فَضِيلَةُ العَلَّامَةِ الإِنْسَانِي الكَبِير
محمد أمين شيخو
(قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ فَضِيلَةُ المُرَبِّي الأُسْتَاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالدّيراني

تأويل الأمين

آلاء الرحمن في تبيان الفرقان

تأويل الأمين للقرآن العظيم

(القرون الأولى)

(نجـاة أبنـاء الأسـرة العاليـة)

لفضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Published by
Amin-sheikho.com

§§§§

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}

{عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}

نبوة قدسيةٌ نزل بها الروح الأمين على قلبك الحق أسماعاً تفتَّحت لتستقبل رسالة سماوية:

«كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلْق وعرَّفتهم بي، فبي عرفوني».

إذ أراد لهم معدن الجود والكرم والإحسان، أراد لهم الرقي والتسامي والتسابق والنوال المتزايد الأبدي أسوةً حسنة بمن استجابوا لعطائه ساداتنا الكرام وموالينا العظام سيدنا محمد وسيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام وممن تابعهم بشفاعتهم النجاة وبها الصلاة لكامل العطاءات والسلام، إذا استجابوا لمطلبيه. أي: يستنيروا وأن لا ينقطعوا عنه تعالى بغمار الشهوة لتقرَّ أعينهم بما نالوا بملء رضاهم من مشاهدات لا تغيب بوجه ربهم ذي الجلال والإكرام حقيقة تدرِّجُهُم بمقاماتهم العليا.

أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون..

هؤلاء الذين هم استجابوا لدعوة ربهم فآمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا، والذين استجابوا لرسولهم ولربِّهم فهما في السمو والعلو سواء.

أما الذين ما استجابوا وظلوا عنه في استكبار وهم فريقا المنافقين والكفار، فلم تشأ العناية الإلّهية أن تدعهم نهبة اختيارهم الأول السخيف باستبدالهم الذي هو أدنى الفاني المنقضي بالذي هو خير، فأرسل لهم أولئك السابقين السادة المقرَّبين، الذين يتقلبون في جنَّات النعيم ليمنحوا قومهم من فيض بره تعالى

وإحسانه، يدخلونهم فيما حوت نفوسهم الطاهرة الشريفة النقية من الكمال الإلّهي فيغدون بنورهم مشاهدين، وبالتالي ليردُّوهم إلى طريق السعادة والهدى إلى حضرة الله لكي يصلُّوا فلا يملُّوا ليخرجوا من نفاقهم وكفرهم، أي: من هلاكهم ولعلهم يثوبون لرشدهم ورشادهم.. فإن عادوا لسلوك سبيل الناجحين السابقين المؤمنين ثم ما يلبثون بعد توبتهم وأوبتهم حتى يرفلوا بثياب النعيم بالإيمان والتقوى، والذين لم يستجيبوا فهم كأبيهم اللعين إبليس.

أما إبليس فهو من المكلَّفين أيضاً فهو حينما لم يفكِّر أبلس عليه الأمر فكان مثله كمثل أولئك المنافقين ثم كفر وأخذ يناصب منقذيه آدم وذويه عليهم السلام العداوة والبغضاء يفسِّر بمنظاره الأسود جميع دعواتهم ومساعداتهم له ظلماً وتعدِّياً فضلَّ وأضلَّ جِبلاًّ كثيراً ممَّن اتبعوه.. يَهْوي بهم في ظلمة لا يعلمون حقيقتها.

فيا أيها الإنسان يا ابن خليفتي آدم العظيم أنت ابنه يا من سَجَدتْ لأبيك أسمى الخلائق.. الملائكة المقرَّبين، يا من أربيك في إغداقات النعيم بدلال ونعم.

عُد ملتفتاً إليَّ بتذكُّر فضلي المتتالي عليك وتقرَّب إليَّ بالإحسان لأخيك الإنسان..

عُد إلى مسلك أبيك آدم وأبيك محمد وأبيك موسى عليهم السلام.. وحذارِ من عداوة إبليس..

أتنكرُ فضلي وتجعله لك أباً فتخسرني وتخسر كل شيء!!.

فمن تردَّى برداءٍ ما ارتداه أبيه [١] (آدم عليه السلام) سوف يأتيه زمان يتمنَّى الموت فيه.

---

١ –لُفظت أبيه لضرورة الشعر (القافية).

فكِّر كيف سلك رسولك الكريم فأعطاه دلالة فوق دلالة العالمين هدى ونوراً للبشرية أجمعين.

وأنت أيضاً كن معه وتحت لوائه واسلك كما سلك الرسل الكرام فأعطاهم الله ما أعطاهم تنل من الله بهم عطاءاتٍ كبرى مما نالوا.

وإن أبيت إلاَّ أن يطول بك الطريق وكنت ممَّن لا يُقام لك يوم القيامة وزناً جعل لك عبرة قصة بني إسرائيل..

قد رشَّحوكَ لأمرٍ لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

تقديم المربِّي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

تأويـل سـورة الفاتحـة

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ :

«لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»

(١) وفي حديث آخر:

«من صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بفاتحةِ الكتابِ فهيَ خداجٌ (٢) **، فهي خداجٌ، فهي خداجٌ».** (٣)

فما هي الصلاة؟.

وما هو السر الأعظم الذي تنطوي عليه فاتحة الكتاب حتى تتوقَّف عليها الصلاة؟.

* * *

الصلاة: هي صلة النفس بربِّها، وارتباطها الوثيق بنور خالقها بارتباطها برسوله الكريم ﷺ . تلك هي الصلاة في حقيقتها. وإذا خلتِ الصلاة من هذه الصِّلة والارتباط، فقد أصبحت صورةً لا حقيقة. وهي والحالة هذه مجرَّد أقوال وأفعال، ولكن كيف تحصل لنا هذه الصلة بربِّنا؟. وكيف نصل إلى الصلاة في روحها وحقيقتها؟.

١- الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده

٢ -الخداج: النقص. وتقديره: فهي ذاتُ خداج، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، أو فيه مُخدجة، فوضع المصدر موضع المفعول.

٣ -الحديث رواه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. الموطأ في الصلاة، باب القراءة خلف الإمام. أبو داود في الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته.

فالفاتحة إذاً تُريك كمالَ الله سبحانه، وبرؤية الكمال تتولَّد المحبَّة وتحصل الصلة، وتلك هي الثمرة المطلوبة من تِلاوتها في الصلاة، وفي كل ركعة من الركعات.

وكلَّما تلا المؤمن فاتحة الكتاب مرةً ازداد في الكمال الإلَهي شهوداً ومعرفة، وسما في محبّة الله بصلاته درجة فدرجة، وفي الحديث الشريف:

«الصلاةُ معراجُ المؤمنِ» [١]

فهي معراج يرتقي بها في محبّة الله ومعرفته من حال إلى حال، وهي معراج يتدرَّج بها المؤمن في رؤية طريق الفضيلة آناً بعد آن، إذ أنَّ النفس بهذه الصلة تستنير بنور الحق، فترى طريق الخير من الشرِّ. والصَّلاة للمؤمن نورٌ وبرهان.

قال تعالى:

{... إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...} [٢]

* * *

أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم عندما نريد أن نقرأ القرآن لقوله تعالى:

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [٣]

فما معنى الاستعاذة؟. وما معنى قولنا بالله؟.

ومن هو الشيطان؟. وما معنى الرجيم؟.

* * *

الاستعاذة:

---

١ – وفي كنز العمال (الصلاة قربان المؤمن) رقم الحديث /١٨٩٠٧/.

٢ – سورة العنكبوت (٤٥).

٣ –سورة النحل: الآية (٩٨).

مصدر لفعل عاذ، بمعنى ألتجئ وأحتمي معتزّاً مستجيراً بصاحب العزّة والقوة، ولا يكون الالتجاء والاحتماء إلاَّ بقوي عزيز الجانب. وعلى وجه المثال نقول:

لو أن طفلاً كان يسير في الطريق، فلحق به عدو من إنسان أو حيوان يريد إيقاع السوء به وأذاه، وفيما هو على أشد ما يكون من الخوف والذعر، ألفى أباه قادماً نحوه، أفتراه والحالة هذه يلتجئ ويحتمي، وإن شئت فقل أيعوذ بغير أبيه؟. إنه يعوذ به لأنه يعلم حبّه وإخلاصه وقوَّته على دفع عدوّه عنه، وكذلك الإنسان المؤمن ما عليه إلاَّ أن يعوذ بربِّه ويقبل عليه بنفسه وهنالك يُحفظ ويُوقى ويندفع عنه الشر والأذى وإلى جانب ذلك يسمو ويرقى. ويكون له في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة.

ومعنى قولنا **(بالله)**: أي بالمطاع، والمُطاع هنا: هو الجاري حكمه وأمره على كل مخلوق بلا استثناء شاء أو أبى "وما في حكمه وأمره إلاَّ الخير والرحمة"، فكل مخلوق سائر بحسب ما خُصِّص له من الوظائف، وقائم بما هو مخلوق له من الأعمال، فالجمل مسيَّر مذلَّل لخدمة الإنسان، يحمل له الأثقال، والنحلة مسُوقَةٌ ومضطرة إلى أن تجمع العسل من الأزهار، والكرة الأرضية مسيَّرة بأمره تعالى تسبح في الفضاء؛ والقمر مسيَّر يسبح حول الأرض وهو دائب الحركة والدوران؛ وما من دابة إلا هو تعالى آخذٌ بناصيتها يسيِّرها كيف يشاء، والكون كله خاضع لأمر الله، ولا يستطيع أن يخرج عن أمر هذا المطاع. وذلك ما نفهمه من كلمة **(بالله)**.

والشيطان: مأخوذة من: شَطَنَ، وشَاطَ.

وشطن: بمعنى بَعُدَ عن الحق، وشاط: احترق وهلك.

فالشيطان: هو البعيد عن الحق المحترق الهالك، فببعده عن طريق الحق أصابه الاحتراق والهلاك.

والرجيم: هو المرميُّ دوماً بالعذاب لأنه مطرود من القرب من الله.

والرجيم أيضاً: هو الذي ينصبُّ عليه البلاء والشقاء بصورة متمادية، وما أصابه البلاء والشقاء إلاَّ ببعده وإعراضه؛ والبعد والإعراض سبب كل بلاء، ومصدر كل شقاء.

ومجمل قولنا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أي: أحتمي وأعتز بالمطاع الذي خضع لأمره كل شيء، من الشيطان الذي ببعده عن الحق صار معذَّباً دوماً، ومحروماً من كل خير.

فإذا التجأت بنفسك إلى الله عند قراءة القرآن بعد أن آمنت بالله إيماناً منبعثاً من نفسك وأحببت بما فيك من كمال رسول الله ودخلت بمعيَّته ﷺ في حضرة المطاع الذي ذلَّت وخضعت لأمره سائر المخلوقات، فهنالك تصبح في حصن حصين وحرز منيع لا يدخله شيطان وتنقطع عنك وأنت في هذا الحصن وساوس الشيطان ويزول الوقر من الأذنين، وينكشف الغطاء عن العينين، عندها تسمع الكلام من المتكلِّم جلَّ جلاله وترى وتشهد ما في أوامره من المنافع والخيرات.

وبعد قولك: **(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)** تستطيع أن تقول:

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}:

فما معنى بسم الله؟.

وما معنى الرَّحمن؟.

وما معنى الرَّحيم؟.

* * *

بِسْم: كلمتان وهما: الباء واسم. ولفهم معنى **(بِسْمِ اللَّهِ)** نقول على وجه المثال: إن الحاكم عندما يلفظ الحكم يقول: باسم القانون، أي: إنني إنما أحكم وأبيِّن العقوبة التي أمر بها القانون. ويقول الرئيس: باسم الأمة أتكلَّم، أي: إنني أبيِّن ما أمرتني ببيانه وأبلغ ما ترغب به.

فبناءً على ما تقدَّم يكون معنى قولنا: باسم الله، أي: إنني إنما أتلو على نفسي وعلى غيري كلام الله، وإنما أبيِّن أمر الإلٓه وأُبلِّغ كلام المطاع، ولكن ما صفة هذا المطاع؟. إنه:

{الرَّحمن الرَّحيم}:

وصفة الرحمن تعمُّ كلَّ موجود، ويشمل خيرها كل مخلوق.

والرَّحمن: هو المتفضِّل بالشِّفاء على جميع المخلوقات، والله تعالى باسم الرَّحمن يتجلَّى على المريض والفقير والمهموم والمحزون، فيكون المرضُ والفقرُ والهمُّ والحزنُ، وكلُّ بلاء وعذاب، كلُّ ذلك يكون رحمةً من الله، إذ بها يحصل الشِّفاء النفسي، والتدرُّج من حالٍ إلى حال.

فكثيراً ما يكون البلاء سبباً في الرجوع إلى أمر الله، وداعياً يدعو النفس المعرضة إلى الإقبال على الله، وهنالك يحصل لها بإقبالها الشفاء والخلاص مما عَلِقَ بها من أدران.

وبصورة عامة البلاء لمن يستحقه خيرٌ ورحمةٌ من الله، وهو دائماً يعود على صاحبه بالخيرات.

فباسم الرَّحمن يعود المرضُ على المريض صحة، وينقلب الفقر غنىً، والإخفاق نجاحاً، والعسرُ يسراً، وباسم الرَّحمن، تتدرَّج سائر المخلوقات حتى الجمادات والحيوانات في تذوُّق الفضل الإلٓهي اناً بعد آن؛ وباسم الرحمن، صار خروجك أيها الإنسان من العدم إلى الوجود، وبه تحيا وتنبعث فيك الحياة بعد

الموت؛ وباسم الرحمن، يتدرَّج المؤمن في المعرفة الإلَهية من كمال إلى أكمل يوماً بعد يوم؛ وباسم الرحمن يزداد عذاب أهل النار، وهنالك يُنسيهم حريقها الشديد أَلَم أمراضهم النفسية التي نشأت بسبب سيرهم مع هواهم في الدنيا وعصيانهم لأوامر ربّ العالمين، فهم يغيبون في عذاب النار الشديد عن عذاب نفوسهم الغليظ وفتك أمراضها الذَّريع.

وباسم الرحمن يتجلَّى الله في الجنَّة على المؤمنين فيرتقون في منازل القرب، ويعرجون في معارج الكمال، فمن كمال إلى أكمل، وهكذا ولا ينقطع خير هذا الاسم أبداً ولا ينتهي فضل الرَّحمن.

فالرَّحمن إذاً هو المتجلِّي على عباده بالرَّحمة، وذلك ليس خاصاً بأهل الطاعة من المؤمنين، فالخلْق جميعاً تشملهم رحمته تعالى بما يناسب في الدنيا والآخرة. فترى المؤمنين في الجنَّة يتمتَّعون بما أعدَّ لهم ربُّهم وبما يتناسب مع حالهم من النعيم المقيم.

وترى الكفَّار في النار يداوَوْن على ما فيهم من أمراض بما يناسبهم من عذاب الجحيم، وذلك من الله تعالى رحمة، وهو سبحانه رحمن بخلْقه كافة لأن ذاته تعالى رحيم.

والرَّحيم: هو المتجلِّي على عباده بالنعمة والخير وهو خاص بأهل الطاعة من المؤمنين، ففي الدنيا يحيون حياة طيبة، وينعمون بفضل ربّهم الرحيم، وفي الجنَّة يتمتَّعون بما أعدَّ لهم الله فيها من النعيم المقيم.

وهكذا فكلمة **(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)** إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي من رسول الله ﷺ يُخاطبك بها معرِّفاً ومبيِّناً أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه باسم الله وعن لسان الله وهو بيان لك من الله، وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ ويصغي إليه وتتفتَّح مسامع نفسه لِمَا سيتلوه عليه فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: تصدِّق رسول الله ﷺ فيما يقول ثم تقول:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: بمعيَّتك يا رسول الله ندخل على الله مطيعين له فتعاهد ربَّك وأنت بمعيّة رسوله الكريم على أن تكون عبداً مطيعاً له وتطلب المعونة منه تعالى. عندها يقول رسول الله ﷺ وأنت معه:

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}.

هذه هي الصلاة: عندها يُملي الله أمره عليك فتركع طائعاً خاضعاً وتسجد طالباً المعونة من الله على طاعته، الصلاة يجب أن يكون رسول الله ﷺ في نفسك: الدخول على الله بصحبة رسول الله ﷺ . وفي الحديث الشريف:

«وليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل منها» (١)

ولا بد لنا والحالة هذه من أن نفصِّل في هذه النقطة بعض التفصيل لا سيَّما والصلاة هي عماد الدين ورأس الأمر كله فنقول:

بما أنَّ الصلاة هي صلة النفس بخالقها، وبما أن العقل هو روح الصلاة وثمرتها، لذلك كان لزاماً علينا أن نُعرِّف المراد من العقل، وماذا نعقل في صلاتنا والأصول الواجب اتِّباعها حتى نصل إلى العقل. ونبدأ ببيان المراد من العقل فنقول:

المراد بالعقل هنا: العقل النفسي وهو ما توعيه النفس وما تختزنه فيها من بعد أن شهدته ورأته، أما ما يعقله الإنسان في هذه الصلاة التي نحن بصددها فيدور حول أمرين اثنين:

١- كنز العمال: ج٣. ص٣٨٢. ح٧٠٥٠.

فهو يعقل طرفاً من الكمالات الإلٓهية عقلاً نفسياً من بعد أن آمن بها وعقلها فكرياً، وإلى جانب ذلك يعقل سرَّ التشريع الإلٓهي وبعض ما انطوت عليه الأوامر التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ في القرآن الكريم، ويكون عقل الكمالات الإلٓهية بمشاهدة المصلِّي طرفاً من هذه الكمالات شهوداً نفسياً، إذ يرى العظمة الإلٓهية والعدل ويشهد الرأفة والرحمة والعطف والحنان والفضل والإحسان وغير ذلك ممَّا انطوت عليه الأسماء الإلٓهية، وهنالك تتمثَّل نفسه هذه الكمالات وتوعيها وتغدو مستقرة فيها.

أما عقل الأوامر الإلٓهية فتكون برؤية ما انطوت عليه من خير، فيرى المصلِّي مثلاً عندما يقرأ آيات الحجاب فائدة الحجاب وما فيه من الخير للمرأة ذاتها وذويها، والمجموعة البشرية كلها. وعندما يقرأ الآيات التي تنهى عن الخمر والميسر يرى ما فيهما من الأذى وما ينجم عن تعاطيهما من مضرَّات. وكذلك الأمر بالنسبة للميتة وما ينشأ عن أكلها من أمراض وعاهات، ويرى الفائدة من الصيام والصلاة والحج والزكاة، إلى غير ذلك من الأوامر التي يعقلها المصلِّي بما يسمعه في صلاته من آيات القرآن. فهو لا يسمع بآية إلاَّ ويرى ما انطوت عليه من معانٍ رؤية متناسبة مع مقدار ما هو فيه من وجهةٍ إلى خالقه وما هو عليه من صلةٍ وإقبال، وذلك ما نعنيه بعقل الأوامر الإلٓهية.

ومن لم يعقل في صلاته طرفاً من الكمالات الإلٓهية، ومن لم يعقل ما في الأوامر الإلٓهية من خيرات، ومن لم يعقل شيئاً مما تنطوي عليه آيات القرآن الكريم التي يتلوها في الصلاة، فليسَ بعجيب أن تُلَفَّ صلاتُه كما يُلَفُّ الثوب الخَلِقْ ويُضرب بها في وجه صاحبها، إذ أنه لم يَفد منها شيئاً.

أما الطريق إلى العقل فإنما يكون برفقة ذلك الإمام والاقتداء به وهو في الحقيقة السيد الأعظم ﷺ . ومن لم يُصَلِّ مقتدياً بذلك الإمام فليس يستطيع أن

يصل إلى العقل، ولو أنه صلَّى في اليوم مئة ركعة، ولو أنه قام يصلِّي الليل كله.

ولعلَّك تسأل عن السبب وتعجب من هذا القول فأقول:

إذا كان العقل نتيجة لما يحصل عليه المصلِّي من شهود ورؤية نفسية فكيف تستطيع هذه النفس أن تشاهد كمال الله وليس لها نور تُشاهد به هذا الكمال؟.

أم كيف تنكشف لها المعاني وليس لها سراج منير يُريها هذه المعاني ويُبيِّن لها ما في الأوامر الإلَهية من خيرات!. لذلك فهذا المصباح من لوازم الرؤية، وهذا السراج المنير من لوازم وضروريات مَنْ يريد أن يصلَ إلى العقل. وما ذاك المصباح والسراج إلاَّ رسولُ الله ﷺ . قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله الكريم:

{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً} [١]

وما أَمَرَ الله تعالى رسوله بالاتجاه شطر المسجد الحرام إلاَّ لتكون نفسه مقبلة عليه تعالى من ذلك المكان لنستطيع نحن أن نولِّي وجهنا شطره حيثما كُنَّا وفي أي مكان وُجدنا فنجعله لنا في إقبالنا على الله إماماً وليكون لنفوسنا سراجاً مضيئاً، وذلك سرّ الأمر الإلَهي ولُبَابُهُ، وهكذا فالاتجاه إلى الكعبة الشريفة واستقبال هذه القبلة ركن من أركان هذه الصلاة. ومن لم يُصلِّ جامعاً نفسه فيها مقبلاً على الله بصحبة هذا الإمام فلا يَعقِلُ من صلاته شيئاً، لأنه إنَّما يصلِّي وحيداً فريداً، وبذلك يطمع الشيطان فيه ويهرع إليه فيملأ قلبه بالهواجس والوساوس والخطرات، ورسول الله ﷺ يقول:

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (٤٥-٤٦).

«عليكم بالجماعة وإيَّاكم والفُرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد» [١]

وفي حديث آخر:

«فإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[٢]

قال تعالى في سورة آل عمران (١٠٣):

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا...} أي: عنه ﷺ .

وبناءً على ما قدمناه نقول: نحن في صلاتنا واستقبالنا الكعبة لا نعبد الكعبة ولا نتَّجه إلى الأحجار، بل إنما نتَّجه من ذلك المسجد الحرام إلى الله.

ونحن لا نعبد رسول الله، بل إنما نتَّخذه لنا في صلاتنا إماماً وفي نفوسنا سراجاً منيراً، تدخل نفوسنا متى أرادت الإقبال على الله من ذلك المكان فتجد إمامها به فتقتدي به وتُقبل على الله بمعيَّته وهو لها نِعْمَ الإمام وخير رفيق. وتستنير بالنور الإلّهي الساطع على نفسه ﷺ بسبب إقباله على الله، ويُريها بعض ما استكنَّ في أوامره تعالى من الأسرار والخيرات. وهذا يُبيِّن لنا سرَّ قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}[٣].

فما أمرنا الله تعالى بالصلاة على هذا الرسول الكريم إلاَّ لنصل نفوسنا به فتدخل على الله بمعيَّته، وتستنير بذلك النور الإلّهي الساطع على نفسه. ومن لا صلة له برسول الله ﷺ ، ومن لا محبَّة له بهذا الرسول الكريم ﷺ فليس بمستطيع

---

١ – صحيح الترمذي: /كتاب الفتن/ رقم الحديث (٢٠٩١).

٢ – مسند الإمام أحمد: /كتاب مسند القبائل/ رقم الحديث (٢٦٢٤٢).

٣ – سورة الأحزاب: الآية (٥٦)

مهما حاول وجهد أن يُصلِّي الصلاة التي أمر بها الله، وهو محروم من ذوق الإقبال على الله، أعشى البصيرة عن رؤية كمال الله، وهو ليس بمدرك شيئاً ممَّا يقرؤه من آيات، قال تعالى:

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ...} (١)

أقول: والاتجاه إلى الله تعالى من طريق الكعبة ما هو بالأمر الجديد الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ عن لسان الله، بل إنما جعلها الله تعالى قبلة العالمين منذ عهد سيدنا إبراهيم ﷺ . وقد ذكر لنا تعالى أن سيدنا إبراهيم ﷺ إنما كان يعلِّم الناس من قبل قواعد الاتجاه إليه تعالى من طريق هذا البيت. فقال تعالى:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٢)

وليست الكعبة قبلة لسيدنا إبراهيم فحسب، بل إنما هي أول بيت وضع للناس منذ أن أوجدهم الله تعالى على سطح هذه الأرض، وإن شئت فقل من لَدُن آدم عليه السلام، قال تعالى:

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً...} (٣)

فالكعبة إذن هي الوسيلة في قيام وجهة الأنفس إلى خالقها في الصلاة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة، قال تعالى:

{جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ...} (٤)

---

١ – سورة الأنعام: الآية (٣٩).

٢ – سورة البقرة: الآية (١٢٧).

٣ – سورة آل عمران: الآية (٩٦–٩٧).

٤ – سورة المائدة: الآية (٩٧).

ومشروعية ذلك كما رأيت أن تجتمع الأنفس في كل زمان برسولها المجتمعة نفسه من ذلك المكان إلى الله.

أما وقد شرَّف الله تعالى العالم ببعثة سيِّد ولد آدم فهو ﷺ إمامنا وإمام العالمين. وروح الصلاة أن تُقبل على الله بمعيَّته، وتعرج نفسك إلى الله تعالى برفقته. ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور.

* * *

ونعود الآن إلى تأويل سورة الفاتحة:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}:

لفهم هذه الآية الكريمة نشرح كل كلمة من كلماتها، وعند ذلك نستطيع فهم معناها بمجملها، ولذلك نقول:

الحمد: هو ما ينبعث في النفس من تقدير المحسن، وما ينشأ فيها من الثناء على المنعم المتفضِّل، فالامتنان الذي نقابل به من ساق لنا الخير حمدٌ، والثناء الذي نرجع به على من أوْلانا النعمة وصدر عنه الخير حمد.

والحمد كما نرى حالة نفسية تقوم في النفس تجاه المحسن المتفضِّل عندما نرى فضله وإحسانه، ولا يُحمد الشيء إلاَّ إذا كان جامعاً لكل خير من كل وجه، وخالياً من كل شائبة ونقص.

فلِمَن الحمد يا تُرى؟. ومن هو الذي يستحق الحمد فيحمده كل شخص، لا بل كل موجود ونفس على كل عمل وفعل؟. لقد بيَّن لنا تعالى على لسان رسوله أن الحمد له وحده ولذلك قال تعالى:

{لِلَّهِ}:

وكلمة **(لله)** مأخوذة من الإلَه، والإلَه: هو الذي يؤول إليه أمر كل ما في الكون من حيث رزقه ومعاشه وإمداده بالحياة وقيامه وتسييره في أعماله ومنحه

ما يتطلَّبه في حياته بما يتناسب وكمال كافة المخلوقات، فمن كمال لكمال أوسع وليس بالإمكان أبدع مما كان.. أي: ليس بإمكان أحد من البشر أن يُبدع مثل هذا الإبداع أبداً. فسبحانك ربِّي ما أعظم كمالاتك ولا إلّه لي وللكائنات كلها سواك.

فالله تعالى يريد أن يعرِّفك بأنه يُحمد على تسييره لهذا الكون، فما من حادثة تحدث ولا مصيبة أو ضائقة تلم وتنزل ولا عسر أو يسر ولا مرض أو شفاء وما من همٍّ أو غم ولا نصرة أو خذلان، وما من واقع يقع في هذا الكون إلاَّ وهو منه تعالى محض الخير والفضل والإحسان، فهو سبحانه يُحمد على كل حال وهو تعالى يستحق الحمد وله الحمد في كل ما يسوقه لهذه المخلوقات، أدرك طرفاً من ذلك أولوا العلم والأبصار ولو انكشف الغطاء لما اخترت إلاَّ ما اختاره الله لك وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وكيف لا يُحمد الله تعالى على ما يسوقه لعباده وهو الرَّحمن الرَّحيم؟.

وهل يُعاملك الرَّحمن إلاَّ بما فيه السعادة لك، وهل يسوق لك هذا الرب الرحيم إلاَّ ما فيه خيرك.

وكلمة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) إنما تنطوي تحتها معان جمَّة، فهي تعرِّفنا أن الله تعالى "رب" وأن هذه الربوبية عامة، فهو سبحانه رب العالمين، ثم هي تعرِّفنا أيضاً بأنه تعالى هو المسيِّر لأمور هذا الكون وهي تعرِّفنا أخيراً بأنه يُحمد على تسييره، وأن الحمد مقصور عليه، فله الحمد وحده.

وبصورة عامة إنما تعرِّفنا بأن ربّ العالمين المسيِّر لما في الكون من إنسان وحيوان أو أي شيء إنما يُحمد على كل حال، وأن كل فعله وسائر ما يسوقه لمخلوقاته فضل وإحسان وخير. ونعرِّفك بكلمة (**رب**) فنقول:

الرب: هو المربِّي، مأخوذة من: ربّى. وأصل الفعل ربا، بمعنى: زكا ونما، وكما تقول: ربا الزرع، أي: نما. وتشدِّد الباء فتقول: ربَّى فلان الغنمة، أي: خصَّها بالعناية فجعلها بسبب هذه العناية تنمو وتستمر في الحياة فأمدها بما يلزمها من مأكل منوَّع مغذِّي وشرب موافق روي وعُني بإيوائها في مأوى خاص مهوًّى وأسامها في الأرض ترعى في الفلاة متعرضة لنور الشمس والهواء النقي. وبصورة عامة قدَّم لها سائر ما يتوقَّف عليه دوام وجودها وحياتها واستمرار نمائها.

فالتربية إذاً تعني الإمداد بما يلزم لدوام الحياة واستمرار الوجود والنماء، وقد أصبح من السهل علينا أن ندرك معنى التربية لنبتة أو لزرع ومعنى تربية طفل أو شخص، ومن اليسير علينا أن ندرك المراد من قولنا المعلم مربٍّ وأن ندرك مجال تربيته والنواحي التي يخصُّها بعنايته.

وكذلك الأمر بالنسبة للمرشد والرسول وبصورة أعم نستطيع أن ندرك طرفاً من تربية الله تعالى لهذا الإنسان وعنايته به وإمداده إيَّاه بما يلزم منذ أن كان جنيناً في بطن أمه حتى أضحى طفلاً رضيعاً، وما كان يرافق هذه الطفولة من العناية الإلَهية في تسخير الأم المشحون قلبها بالعطف والحنان إلى أن أصبح إنساناً سوياً ورجلاً كاملاً، ثم دوام هذه التربية واستمرارها عليه حتى آخر لحظة من لحظاته.

ويضيق بنا المجال ولا تتَّسع بطون الكتب لشرح معنى كلمة **(رب)**.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نجد لهذه الكلمة نهاية غير أن ذلك لا يمنعنا من تقريب القارئ من معناها بعض الشيء فلعلَّه إذا هو فكَّر أدرك طرفاً من هذه التربية ووجد نفسه على شاطئ بحر خضم منها لا يُدرك لها قراراً ولا تُحدُّ بحدٍّ، وهنالك يعظِّم المربِّي ويقدِّره وتخشع نفسه له وتعلم أن الحمد كله له.

أرأيت تربيتك في بطن أمك إذ جعلك تعالى في مستودع محفوظ من كل أذى وضرر ذي حرارة مناسبة وجو معتدل يأتيك رزقك رَغَداً بأصول ونظام تحار له العقول وأنت تسبح في الماء لا يضرك شيء من الأشياء يُساق لك الدم صافياً نقياً والغذاء كاملاً، وتُخلَق خلْقاً من بعد خلْق حتى تغدو إنساناً سوياً.

فمن الذي كان يعتني بتربيتك آن ذاك؟. أهي أمك أم أبوك؟. ومن هو المربِّي لك في ذلك الطَوْر؟. أليس هو الله تعالى صاحب العطف والحنان؟.

هل جلست تفكِّر بعنايته بك في هذه الفترة من حياتك وهل جلب انتباهك هذا الدور؟.

وإذا نزلت إلى هذه الدنيا وواجَهتْ عيناك النور من هو الذي كان يُحضِّر لك اللبن سائغاً رويّاً في ثديي أمِّك؟. من هو الذي كان يبدِّل لك معاييره يوماً من بعد يوم؟. أم من هذا الذي أودع في قلب أمك العطف عليك والحنان وجعلها تحزن لحزنك وتفرح لفرحك وتمرض لمرضك وترضى أن تضحِّي براحتها راغبة في سبيل تأمين راحتك؟.

والآن وقد بلغت أشدّك وأصبحت رجلاً هل فكَّرت في من يقدِّم لك صنوفاً وألواناً وأنواعاً متنوِّعة من الأغذية والثمار؟. ومن ينزِّل لك من السماء الثلوج والأمطار؟. ومن الذي سَلَكَ لك في الأرض الينابيع والأنهار [1] ؟.

ومن الذي جعل لك الأرض كرة سابحة في الفضاء تدور حول نفسها فيتولَّد في ذلك الليل والنهار؟.

---

١ –انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم "النظرية العلمية الجبَّارة" للعلاَّمة محمد أمين شيخو.

وهل نظرت إلى الشمس وما يأتيك منها من حرارة وضياء وإشعاع، والقمر وما هو عليه من نظام تتعرَّف به إلى السنين والحساب؟. والهواء وما فيه من غازات نافعة بنسب معيَّنة لا تستطيع أن تظل بدونها ساعة من نهار؟. من الذي شحن الهواء بهذه الغازات الضرورية للحياة؟. ومن الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً وبهذا القدر المناسب للراحة والحياة؟.

من الذي خلق لك البحار وملأها بالماء وجعل ماءها ملحاً أُجاجاً لا يفسد؟.

ما هذه الرياح المستمرة في طوافها على سطح الأرض تأتي بالخير وتبشِّر بالمطر وتجدِّد الهواء؟.

ما هذه المعادن المودوعة في باطن الأرض، ما هذه الأتربة وما هذه الأملاح؟. من الذي ألقى في الأرض من كل زوج اثنين من النبات وبثَّ فيها من كل دابة؟. أليس ذلك كله ضروري للحياة؟. أليس ذلك الممد المربِّي هو الله؟.

وهل فكَّرت بشيء من عنايته بك وعرفت معنى كلمة **(الرب)**!. الذي يربِّيك في هذه الحياة؟.

وأوجز القول وأنتقل إلى كلمة **(العالمين):**

إن كلمة **(العالمين)** هي جمع عَالَم، والعالم: تشمل المخلوقات التي تشترك بعضها مع بعض في هذه الحياة وذوات الصفات الواحدة: فالنمل عالم، والطير عالم، والأسماك في البحار عالم، والنباتات عالم، والمواشي عالم، والإنسان عالم، والنجوم السابحات في الفضاء عالم، والجراثيم عالم.

حتى إن عالم الطير يضم عوالم عديدة، وكذلك عالم الأسماك يشتمل على أنواع شتّى وعوالم مختلفة.

وفي الإنسان عوالم كثيرة من كريات بيض وكريات حمر ولكل من الكريات أنواع وأشكال ووظائف وأعمال وتوالد وتكاثر وغذاء ووسط مناسب للحياة، وفي

الإنسان ما فيه من عوالم لا تُحصى وما يعلم بها إلاَّ الله. ولو أنك دقَّقت وفكَّرت بعض الشيء لشاهدت ورأيت ولطأطأتْ نفسُك مقرّةً بجلال الله وعظمته وقدرته ولرأيت أن الله تعالى واسع عليم، وأنه سبحانه العزيز الحكيم والرؤوف الرحيم.

وهكذا ففي هذا الكون الخضم عوالم وفي كل شيء عوالم لا يعلم بعددها إلا خالقها وموجدها ولكل عالم من هذه العوالم شرائط للحياة وإمداد خاص بها وأصول للتوالد والتكاثر وأنواع منوَّعة من الأغذية. وهذه العوالم التي على سطح الأرض ذات مقادير وأعداد ونسب معيَّنة وقوانين للحياة، قال تعالى:

{... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} (١)

وهذا الرب الممد لهذه العوالم كلها القائم عليها والمتكفِّل برزقها والممد لها بالحياة هو الله تعالى وحده رب العالمين.

فالابن الرشيد العاقل حينما ينضج ويكبر يحمد كل ما قام به والده بسن صغره تجاهه من تصرُّفات على اختلاف وجوهها من عطاء أو منع، شدة أو رحمة، غضب أو رضى، أي يقرُّ نفسياً بحسن هذه التصرُّفات ويحترم تلك المعاملة التي عامله بها أبوه حتى رفع من سويته العلمية والخُلقية.

فأنا حينما أرى أن المرض قد زال عني وخلصت منه، وحينما أرجع إلى معالجة الطبيب وعنايته بي حتى خلَّصني مما كنت أشكو منه وشعرت بالصحة قد عادت لي من بعد ألم ومرض أجد في نفسي تقديراً واعترافاً بفضل هذا الطبيب وأرى جميع تصرُّفاته ومعالجاته إيَّاي مهما كان نوعها إنما كانت حسنة، إذ إن غاياته جميعها كانت شفائي وخلاصي مما كان بي، فأرى الخير فيما وصف لي من الأدوية الكريهة المرّة، وفي تلك المعالجات الشديدة حتى أرى

---

١ – سورة الرعد: الآية (٨–٩).

الخير بما قام به هذا الطبيب من جرحٍ جرحني به وألم أثاره في بعض نواحي جسمي تبيَّن لي الآن عواقب ذلك كله وقد عادت عليَّ بالخير والشفاء والسعادة، وكذلك الطالب حينما يصبح رجلاً وجيهاً في المجتمع ذا منصب رفيع في عمله ومعرفة عالية بين ذويه وعندما يرى شأنه العالي ومكانته السامية التي أصبح عليها، هنالك يحمد معلِّمه، أي: يرى الخير فيما قام به تجاهه من تصرُّفات مهما كان نوعها ومهما كانت صورتها، حتى إنه ليقرّ معترفاً في قرارة نفسه بأنَّ ضَرْب معلِّمه ومعاقبته وحرمانه إيَّاه في بعض الأحيان من الطعام وشدته عليه إنما كانت كلُّها خيراً وهي لا تختلف عنده في شيء عن مدحه ومكافأته وثنائه عليه.

التضييق والحرمان كلاهما عند هذا الطالب سيَّان في الخير، إذ لولاهما لما استقامت نفسه ولما كدَّت وجدَّت في سبيل التعليم، وبالتالي لما نالت تلك المنزلة الرفيعة، ولما بلغت ذلك الشأن العالي في المجتمع، فهو يحمد معلِّمه على ما قام به تجاهه من تصرُّفات لأنها كلها خير وإحسان.

وكذلك بالنسبة للابن الرشيد مع أبيه، والمريد الصادق مع مرشده ودليله إلى الله والمؤمن مع رسوله، والإنسان تجاه خالقه ومربِّيه، فهذا الإنسان حينما يرى مثلاً أن هذه الأمراض التي ساقها الله تعالى له في الحياة، وأن الفقر والمصائب والهموم والكروب والشدائد في الحروب إنما كانت سبباً في توبته إلى الله، وخلاص نفسه وتطهيرها مما بها من العلل والأمراض. تراه حينما يشعر بالصحة النفسية يحمد الله تعالى على ما تفضَّل به عليه، ويرى الخير في جميع تلك المعاملات التي عامله بها تعالى مهما كانت شديدة، ومهما كانت مؤلمة، إذ إنه لولاها لما تطهَّرت نفسه من الأدران ولما تمحَّصَ ما في قلبه، بل لكان ألمه

النفسي ولكانت دناءته وانحطاطه أشدّ عليه من جميع تلك الشدائد من مرض أو فقر أو خوف وفزع وضيق.

ذاك كله يراه المؤمن في الحياة الدنيا فيحمد الله تعالى عليه في دنياه قبل موته، فإذا كانت الآخرة وكانت الحياة الطيبة وأضحى هذا المؤمن في جنان الخلد يستغرق في النعيم فهنالك يحمد الله تعالى حمداً لا نهاية له حمداً لا يُوافي نِعَمَ الله ولا يُكافئ مزيده، لأن نعمه تعالى لا تتناهى، وكل حمدٍ مهما عَظُمَ ففضله تعالى أعظم ونعمته سبحانه أكبر وأكبر.

أما الكافر فيحمد الله تعالى في الآخرة، يحمده على أن ساق له في الدنيا ما ساق من شدائد كلها كانت في مصلحته ولخيره ويحمده على أن خلق له النار لأنه يرى أن احتراق جسده بها وشديد إيلامها أهون عليه مما يخالج نفسه ويلازمها من حسرة على ما فرَّط في الحياة الدنيا ومن خزي ودناءة وانحطاط ماثلة أمامه بسبب أعماله التي قدَّمها، فإذا ما صار إلى النار وذاق عذاب حريقها وكان ذلك الألم الجسدي من عذاب الحريق سبباً في غيبته عن آلامه النفسيّة التي لا تُطاق، وسبباً في احتجابه عن عاره وخزيه ودناءته وحسراته حتى إنه ليشتد في طلب النار ويتطلَّبها حتى يستجيب له ربُّه فهنالك يحمد الله تعالى على استجابته له وأمره تعالى بإيوائه هذا المثوى ليخلص بهذه النار مما يُقاسي من أهوال نفسه وآلامها الكبرى. وفي الحديث الشريف:

«إن العَارَ ليلزم المرءَ يوم القيامة حتى يقول يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى، وإنه ليعْلَمُ ما فيها من شِدَّةِ العذاب» [١]

١- الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ك) عن جابر (ح).

وهكذا فأهل الجنَّة يحمدون الله تعالى لِمَا يتفضَّل عليهم من فيوضات تجلّياته العلى ونعمه، وأهل النار يحمدونه لأنه خيَّرهم فاختاروا الأدنى وأصرُّوا فما أجبرهم وما منعهم، بل منحهم كامل شهواتهم التي ابتغوها بدنياهم وما طلبوه أعطاهم بالتمام وما ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم، وكل الخلْق يومئذٍ يروا فضل الله تعالى عليهم، وعظيم إحسانه إليهم، قال تعالى:

{... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (1)

ولا تظننَّ أن معنى كلمة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ)** تقف بنا عند هذا الحد الذي بيَّناه فما ذاك من معناها إلاَّ طرف يسير، وهنالك معانٍ تنطوي تحت هذه الكلمة لا يعلمها إلاَّ الله فما من واقع يقع، ولا حادث يحدث ولا حال يحول ولا همّ ولا غم ينزل، ولا مرضٍ أو فقر وشدة تلمّ إلا وهي من الله تعالى فضل ونعمة وإحسان تسوقها وتنزلها يد الرحمن الرحيم، فهو تعالى دائم العناية بالخلْق، باسط يده على عباده بالحنان والرحمة يقلّبهم من يسر إلى عسر ومن ضيق إلى فرج، ومن فقر إلى غنى، ومن غنى إلى فقر وفاقة، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى صحة، يحوِّل من حال إلى حال وكل ذلك منه تعالى تمحيص وتنقية لهذه النفس وكله منه تعالى مداواة وتطهير وتصفية، وكل ذلك فضل ورحمة وإحسان، فلو كُشف الغطاء لما اخترت غير ما اختاره لك الله ولرضيت بالواقع. قال تعالى:

{... وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (2)

"وفي الصبر على ما تكره خير كثير".

---

١ – سورة يونس: الآية (١٠).

٢ – سورة البقرة: الآية (٢١٦).

قال تعالى: **{.. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}**(١)

فالمؤمن إذا أصابته المصيبة، وحاقت به الشدة صبر واستسلم لأنه يعلم أن يد الحنَّان المنَّان إنما أنزلت به ما أنزلت من شدة، فكيف لا يرضى وكيف لا يستسلم، إنه يرضى ويستسلم لأنه يعلم رحمة الله، ويعلم حنان الله ويرى عناية الله، عنايته تعالى التي خلقت ما في الأرض وما في السموات لهذا الإنسان، عنايته تعالى التي سخَّرت الشمس وسخَّرت القمر دائبين، وسخَّرت الليل والنهار والأنهار والبحار، وخلقت من فواكه وأثمار ونباتات وأزهار وسهول وجبال، ومآكل ومشارب ولذائذ، خلقت كل ذلك وتخلق على الدوام فضلاً ومنَّة ورعاية لهذا الإنسان، إنه يرى تلك العناية الإلَّهية المحيطة به، القائمة على هذا الكون كله والمشرفة عليه كله، إنه يرى دوام العناية الإلَّهية عليه في الليل والنهار، وفي كل لحظة من اللحظات فلو انقطع إمداده تعالى عن العين لما أبصرت وعن الأذن لصمَّت وما سمعت، وعن اللسان لتوقَّف وما نبس بكلمة، وعن الفكر لزال وما وعى وعن القلب لسكت وما نبض نبضة، يرى المؤمن عناية الله تعالى به ظاهراً وباطناً فيستسلم لتصرُّفاته تعالى ويعلم أنها كلها خير وفضل ورحمة. ويحمده تعالى على كل حال.

على أن كلمة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** ليست فيما وردت عليه الآن في سورة الفاتحة اعترافاً من المصلِّي يعترف به، وإقراراً يقرُّه، بل إنما هي إعلام من رسول الله ﷺ .

---

١ – سورة البقرة: الآية (١٥٥–١٥٧).

فهذه الذات العليّة التي خلقتك وأوجدتك، والتي تشرف على شؤونك وتربِّيك، هذه الذات العليَّة التي تسيِّر جميع الكائنات، والتي يؤول إليها أمر كل شيء، يبيِّن لك رسول الله أن الحمد لله رب العالمين فيها جميعاً. إنها تُعرِّفك أن رب العالمين الذي شملت تربيته كل شيء، المسيِّر الذي بيده كل شيء وإليه تؤول أمور كل شيء، هذا الرب الممدُّ والإلّه المسيِّر يُحمدُ على كل ما تراه وكل ما يجري في هذا الكون من تسيير وتصرُّفات.

في كل ركعة، وفي كل صلاة، لا بل في كل يوم وبما يُقارب الأربعين مرة يتلو عليك رسول الله ﷺ عن لسان الله كلمة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** لتستقر هذه الكلمة في نفسك ولتتبع معناها ولتحمده تعالى حقّاً، فإذا أنت حمدته وعرفت حنانه فقد توثَّقت الصلة بينك وبينه وهنالك تدخل في النعيم، النعيم النفسي وتتسامى نفسك وترقى من حالٍ إلى حالٍ أعلى، والصلاة معراج المؤمن، وتلك هي الغاية من الصلاة، ومن لم يقرأ آية الحمد ومن لم يتعرَّف إلى كلمة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ)** ومن لم يفقه معانيها ويدخل بها على الله فلا صلاة له وما هو من الصلاة في شيء.

هذا وقد يعرض لك سؤال من الأسئلة فتقول:

تبيَّن لي ممَّا سبق من شرح وبيان أنه لا يقع واقع في هذا الكون إلاَّ وقد أذن به الله وشاء، وأنه ما من حادث يحدث إلاَّ انطوى على فضل ورحمة وإحسان، فكيف نؤوِّل على ضوء ما عرضتموه جريمة القتل تقع على القتيل فتذهب بحياته وتحرم زوجه وبنيه من عطفه ورعايته وتسبِّب للقاتل الخزي والعار وتزج به في السجون بالدنيا، وتُلقي به غداً في النار. وكذلك السرقة والزنا وسائر أنواع الجرائم والتعديات، وهل وقوع ذلك كله وحدوثه تشمله كلمة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)؟**. وهل نستطيع أن نعدَّ ذلك فضلاً ورحمة وعناية من الله بكل من الطرفين، القاتل

والمقتول، والسارق والمسروق ماله، والزانية والزاني، والمعتدي والمُعتدَى عليه، وهل كل ذلك يُحمدُ تعالى عليه؟.

وجواباً على هذا السؤال وبوجه الاختصار أقول:

ما دام كل واقع في هذا الكون لا يقع إلاَّ بعلم الله ومن بعد إذنه، فلا شك أن كلمة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) تشمل وبدون استثناء كل حادث وواقع، وله الحمد تعالى على كل حال. ونفصِّل ولا نطيل فنقول:

الإنسان في هذه الحياة أحد رجلين: كافر ومؤمن، حيّ وميِّت، أعمى وبصير، أصم وسميع، فإذا أعرض الإنسان عن آيات ربِّه ولم يسلك طريق الإيمان التي شرعها الله تعالى وبيَّنها لعباده أضحت نفسه في ظلمة وعمى. فإذا ما رأى شهوة من الشهوات الخبيثة استحبَّها واستهواها، إذ لا نور له من الله يرى به حقيقتها وما تزال هذه الشهوات تعتلج في نفسه ويستفحل أمرها حيناً بعد حين حتى تملك عليه مشاعره وتستولي على قلبه وإنه ليصمِّم عليها ويعزم على فعلها وما مثل هذا الإنسان والحالة هذه إلاَّ كمثل امرئ سائر في وادٍ سحيق اعترضته صخرة عظيمة سدَّت عليه طريقه ذلك هو مثل الإنسان هذا بالنسبة لشهوته، إنها الصخرة العظيمة سدَّت عليه طريق الإيمان، فمهما ذكَّرته بآيات الله لا يتذكَّر، ومهما أوردت له من العبر والمواعظ، لا يتَّعظ ولا يعتبر، ومهما حذَّرته من العواقب وأنذرته بسوء المصير لا يحذر ولا يخاف ولا بدَّ قبل كل شيء من إزالة هذه الصخرة المانعة التي تعترض طريقه. فإن أنت أزلتها فقد انفتح الطريق إلى الإيمان وأمكن المضي والسير. ولذلك ورحمة من الله تعالى بهذا الإنسان الذي أصبح سجيناً وراء شهوته وقد انسدَّ عليه بسببها طريق الإيمان، أنه يُطلقه فيقع فيما هو مصمِّم عليه ومشتهيه، وهنالك تخلص النفس مما كان مسيطراً عليها وتخلو ساحتها مما كان شاغلاً لها ومالكاً عليها مشاعرها وتزول هذه الصخرة

التي كانت قد سدَّت عليها طريقها، ولا بدَّ للنفس بعد تحقيق هذه الشهوة وخروجها من ساحة النفس والراحة التي تعقب خروجها لكي تسير في طريق الإيمان والحالة هذه لا بدَّ لها إذن من دافع يدفعها وسائق يسوقها، لذا يسلِّط الله تعالى على هذا الإنسان بعد وقوعه في شهوته صنوفاً من الشدائد والمصائب والبلاء فإما المرض، وإما الفقر والفاقة وإما السجن والعذاب والتنكيل، وإما العرض على القتل والإعدام، وكل امرئ يسوق الله تعالى له الدواء المناسب بحسب حاله وبحسب شهوته وجرمه، ويشتد البلاء على هذا الإنسان المجرم ويزداد في الشدة، وما يزال به يضيّق عليه ويزيد في الضغط حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأً ولا منجاً من الله إلا إليه. وهنالك تستسلم النفس إلى الله وتعلم أن ما أصابها من الشدة والبلاء إن هو إلا بما كسبت يداها وبسبب ما وقعت فيه من إجرام، وتصدق وما أسرع ما تنكشف لها الحقيقة أن لا إلّه إلا الله وأن الفعل كله بيد الله، وأن الشدة التي حاقت بها إن هي إلاَّ محض رحمة وفضل وإحسان من الله فتشكر الله على البلاء، وتشكره على ما ساق لها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وترى أن الجريمة التي نفَّذتها وأن البلاء الذي حلَّ بها من بعد، والعقوبة التي ذاقتها، كلها عوامل ووسائل ساعدتها على السير في طريق الإيمان. ولو أنها حُبِسَت وراء الشهوة، ولو أنها لم يُسلَّط عليها من بعد ذلك البلاء والشدّة، لظلَّت محرومة ممنوعة من الخير والحمد لله على ما أصابها وله الحمدُ على كل حال ولا يُحمد على مكروه سواه.

ذلك هو الحال النفسي للقاتل عندما تُنفَّذ فيه عقوبة الإعدام، وحال السارق حينما تقطع يده ويذوق مزيد الآلام الممضّة، ذلك هو حاله إن رجع للتفكير حال البلاء والشدّة، إنه ينتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن الموت إلى الحياة فيغدو سميعاً بصيراً ويموت وهو يشكر الله ويحمده، وفي الحديث الشريف:

«يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان»[1].

أما إذا خرجت الشهوة، وحاق من بعدها البلاء والشدة وظل هذا التفكير خامداً فلا بدَّ والحالة هذه من شدَّة أعظم وبلاء أكبر.

قال تعالى: **{.. وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ..}** [2]

وإن لم تفد هذه العلاجات كلها فالمصير حتماً إلى النار ونعوذ بالله من مصير أهل النار.

وحيث أني شرحت لك من قبل ما يحل بأهل الجرائم في النار يوم القيامة وبيَّنت لك أنهم يومئذٍ يرتمون بالنار ليخلصوا من خزيهم وعارهم وإنهم إذ ذاك يحمدون الله تعالى على ما يداويهم به فيها فلا حاجة هنا للتفصيل عن أحوالهم بها.

تلك هي رحمة الله تعالى ونعمته وفضله ومنَّته على المعرضين من بني الإنسان تنبت الشهوة في أنفسهم بسبب إعراضهم، ويُزيِّن الله تعالى لهم أعمالهم فيقتل القاتل، ويسرق السارق، ويزني الزاني، ويجرم المجرم ثم تكون الشدَّة والمداواة وتخلص تلك الأنفس إن هي رجعت إلى الله ممَّا كان بها من جرثوم الشهوات وتدخل في حصيرة الإيمان، وتحمد الله على ما عالجها به من علاجات.

أما بالنسبة للمقتول وزوجه وبنيه، والمسروق ماله، والمعتدى عليه فلا تظننَّ أن الذي اعتلجت في نفسه جريمة القتل أو السرقة أو الزنا والتعدي يستطيع أن

---

١ –مسند الإمام أحمد ج٣ ص١١٦

٢ – سورة الرعد: الآية (٣١).

يسرق أو يعتدي على أي إنسان أراد. فالله سبحانه هو المهيمن والمشرف، وهو الحكيم العليم.

قال تعالى: **{... مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [١]

فإذا انتهى أجل المرء وكان من الحكمة والخير أن يموت هذا الذي انتهى أجله قتلاً وبهذه الصورة الرهيبة ساق الله تعالى القاتل إليه، وجعل تنفيذ جريمته عليه، وهنالك تكون الشدَّة التي تقع على المقتول ساعتئذٍ دواءً لنفسه وعلاجاً، إذ أنه لا بدَّ أن يكون من قبل قاتلاً فنال جزاءه وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها، أو أن له من الأعمال السابقة ما اقتضى أن يكون موته بهذه الصورة، فلعلَّه إذا هو التجأ وأناب تطهر نفسه وتخلص ممَّا بها من أدران.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [٢]

وذلك ما كنَّا فصَّلناه وبيَّناه في كتاب آخر. وكذلك الأمر بالنسبة للمسروق ماله، والمعتدى عليه، لا بدَّ أن كلاًّ منهما سبق أن ظلم فأعاد الله تعالى عمله عليه.

قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [٣]

حتى أن الزاني الخبيث لا يقع عمله وعدوانه ولا ينفِّذ شهوته إلا على امرأة فاجرة خبثت نفسها وتطلَّبت هي أيضاً الفاحشة.

قال تعالى: **{الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}** [١]

---

١ – سورة هود: الآية (٥٦).

٢ – سورة البقرة: الآية (١٧٩).

٣ – سورة الأنعام: الآية (١٢٩).

وهكذا فهذه الذات العليَّة قائمة على الكون بالقسط وبيدها نواصي الخلْق تسيِّرها بالحق، وما من واقع يقع إلا من بعد إذنه، ولله الحمد على كل ما يسوقه لعباده. وإن من شيء عنده إلاَّ بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

فإن أردت أن لا يعتدي معتدٍ عليك فاستقم كما أُمرت، وإن أنت شذذت وبغيت فارتقب وقوع البلاء، والشدَّة من بعد الرخاء والله لا يغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، ومن زكَّى نفسه وسلك بها طريق الإيمان فقد أفلح وفاز، ومن أعرض عن طريق الإيمان، ودسَّ نفسه فقد خاب، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

والحمد لله على كلِّ حال وعلى كل ما يسوقه لكلِّ امرئ بأكمل ما يناسبه، ويتبيَّن لنا من هذا كلّه أن الحمد على درجات ثلاث:

١. حمد مبنيٌ على الاعتقاد.

٢. حمد مبنيٌ على العرف.

٣. حمد مبنيٌ على العلم.

فمن لا يعتقد بها فهو كافر، والذي يشك فهو منافق، والمؤمن كل ما يحصل له عنده به عقيدة متينة قوية بأنه من الله تعالى خير ومن لم يعتقد بهذا فهو كافر.

المؤمن إذا أصابته شدة رجع إلى الله وقال: الله تعالى كله خير وأسماؤه كلّها حسنى فلا يصدر عنه سوء أبداً ولا بد أن هذه الشدة فيها خير لي. إذا قوي الاعتقاد تحوَّل إلى عرف ثم إلى علم وذلك هو أقوى الإيمان. ننتقل الآن إلى:

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}:

---

١ – سورة النور: الآية (٣).

فهو رحمن بخلْقه بالشدة التي يسوقها للمعرضين علاجاً ودواءً لما فيهم من علل وأمراض، وهو تعالى رحمن بالنعمة وبما يسوقه من الإحسان والفضل للمحسن المطيع لما استحقه ولما فيه من الصحة والحياة، وهو سبحانه رحمن بهذين الفريقين لأنه ذاته تعالى رحيم.

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}:

والمالك: هو صاحب المُلك، وصاحب السلطة والأمر، والدِّين: هو الحق وتأدية الحق لصاحب الحق بالحق.

ويوم الدين: هو اليوم الذي تدين فيه الأنفس، أي: تقرُّ كلها بالحق، فهي تدين وتقرُّ لأن الشهوة التي كانت تحجبها عن رؤية الحق في دنياها تظهر لها يومئذ حقيقتها وهناك تخجل من عملها وإساءتها فتندم وتتحسَّر على تفريطها وتقصيرها، فترى أن كل ما جاءت به الرسل من ربِّها حقّاً، وترى أن الله هو الرَّحمن الرحيم وأن الله عادل وربٌّ متفضِّل، فتخضع مستسلمة إليه وترى أن النار التي سيصير إليها العصاة هي لهم خير علاج، وأن الجنَّة التي سيصير إليها الطائعون المحسنون هي لهم خير مستقر ومقام.

ومثل الخلْق جميعاً يومئذٍ كمثل إنسان بين يدي طبيب حاذق، فتراه يدين له أي يستسلم لأمره من بعد أن عاين مقدرته وعرف كماله وعلمه، فإن كان هذا الإنسان صحيحاً ووصف له ذلك الطبيب طعاماً مغذّياً أخذ ذلك عنه بقبول وتسليم، وإن كان مريضاً عليلاً وأمره بالحمية ووصف له بعض العلاجات المرة الكريهة تراه يدين لكلامه ويُذعن مستسلماً لحكمته.

وكذلك يوم القيامة يدين الخلْق جميعاً لربِّ العالمين، فيشكر المحسنون ربَّهم عما يسوقه إليهم من النعيم، ويحمده العصاة المجرمون ويستسلمون له على ما سيحله بهم من العذاب في الجحيم، قال تعالى:

{... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [1]

وكلمة (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) تُبيِّن لك أن هذا الرب الرحيم الذي كل فعله لعباده إحسان وخير هو المالك يوم القيامة وليس لأحد من الخلْق يومئذٍ إرادة ولا اختيار في عمل يتقرَّب به إلى الله، وإذا كان قد منحك الله في هذه الحياة الدنيا حرية الاختيار لتقوم بالأعمال التي تكون سبباً في سعادتك يوم المعاد فقد انقضى في ذلك اليوم العظيم وقت العمل ومضى وسيكون يومئذٍ الحساب وسيكون الجزاء على الأعمال وليس لأحد إذ ذاك أن يختار غير ما يستحق وليس يُجزى إلاَّ على ما قدَّم، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

فإذا عرفت النفس صفات الخالق المذكورة فعندها تخضع له وتستسلم، وتسلِّم أمرها له، وإنها لتقول:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: أي: يا صاحب الحول والقوة، يا رحمن يا رحيم، ويا مالك يوم الدين لا أعبد سواك.

ونعبد: بمعنى نطيع، إذ أن العبادة هي الطاعة، طاعة المولى لسيده، والعبد لخالقه. في هذه الآية الكريمة عهد من العبد يُعاهد فيه ربَّه على طاعته في كلِّ أمرٍ من أوامره.

وليست العبادة قاصرة على الصلوات والصيام والحج والزكاة. إنما العبادة كلمة عامة، تدخل في البيع والشراء، وفي معاملة الناس، وكل عمل من الأعمال. فبقولك:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}: إنَّما تُعاهد ربَّك على أن تكون عبداً مطيعاً له وحده فلا تطيع معه غيره مِنْ بعد أنْ عَرَفت رأفته ورحمته، ومِنْ بعد أنْ شَهِدْتَ جلاله وعظمته.

---

١ – سورة يونس: الآية (١٠).

فأنت تقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** ونفسك قد أصبحت في حال لم تجد لها ملجأ إلاَّ الله، ولا دليلاً إلى الخير سواه، أي إنك تقول:

أي ربّ!. وأنت المحمود على كلِّ حال، أنت رب العالمين، الرَّحمن الرَّحيم المالك لنفسي وللعوالم بأسرها من بداية خلقك إيَّاهم ودائماً وإلى ما لا نهاية له، والقابض على كل شيء، لم أجد لي مطاعاً أطيعه غيرك، ولا هادياً يهديني إلى ما فيه سعادتي سواك، فأنت ربي المطاع، لا أخرج في سيري عن أمرك، وأنت سيدي المعبود، لا أهتدي في كل عمل من أعمالي إلاَّ بهدْيِكَ. وتقول ذلك وقد انغمستْ نفسُك في جلال الله تعالى وعظمته، وشهدت فضله ورحمته، فوقفتْ خاشعة في أعتاب حضرته، وتحقُّق حصولك على هذا الحال إنَّما يتم بالصحبة النفسية مع إمامك ﷺ.

ثم تطلب من سيِّدك الرَّحيم بك أن يمنحك المعونة على السيْر في طريق الحقِّ، فالشهوات والأهواء تكتنفك، إن لم يتم إيمانك بالله وقد تخللت صلتك بربِّك انقطاعات تسرَّبت لنفسك من خلالها تلك الشهوات، والعوائق والموانع تحيط بك تريد أن تصدُّك. وقد تشتهي نفسك أثناء غفلتك شهوة من الشهوات الخبيثة المحرَّمة، وتصرُّ عليها، وتلحُّ في طلبها، ويصل جرثومها إلى سويداء نفسك، فإن منعك الله من فعلها ولم يمددك بالحول والقوة فتك جرثوم تلك الشهوة بك، وتسرَّب إلى كلِّ ذرَّة من ذرَّات نفسك، فأصبحت وقد أحاطت تلك الشهوة بنفسك من جميع جهاتها، لا تستطيع منها مخرجاً، ولا تجد إلى الرجوع إلى ربِّك سبيلاً ومسلكاً، بل تظلُّ نفسك مشغولة بشهوتها.

والشهوة مسيطرة عليها بكلِّيتها وشاغلة ساحتها، ولذلك من رحمة ربِّك أن يُطلقك ويُسيِّرك، وهنالك تستطيع أن تفعل ما أصررت عليه، وتصل إلى ما نويت.

وفي الحديث الشريف: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**».

قال تعالى: **{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً}** (١)

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً، كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً} (٢)

فإذا نويت نيَّةً وعزمت عليها وأصررت، فهنالك الإمداد من الله بالحول والقوة، وهنالك الوقوع في الفعل، وبهذا يجتمع جرثوم الشهوة في مكان واحد وتخلو ساحة النفس ممَّا كان يشغلها جميعها، وبعد ذلك يُنزل الله الأمراض بذلك العاصي ويسلِّط عليه المصائب، قال تعالى:

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٣)

فإن هو بهذه المصيبة أقبل على ربِّه سرى ذلك النور الإلَهي الى النفس، وبهذا النور ترى حقيقة شهوتها، وتجد خبثها وعظيم شرِّها، فتعافُها وتأنف منها، ولا تعود تقع بها، قال تعالى:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٤)

---

١ – سورة النساء: الآية (١١٥).

٢ – سورة الإسراء: الآية (١٨–٢٠).

٣ – سورة آل عمران: الآية (١٦٥).

٤ – سورة السجدة: الآية (٢١).

وإن أصابتها المصيبة ولم تقبل على ربِّها، ظلَّ جرثوم الشهوة عالقاً بها مجتمعاً في جهة من جهاتها، ولا تزال على ذلك حتى يوافيها أجلها، هذا لمن لم يؤمن من ذاته بذاته أبداً، بل كان إيمانه تصديقياً سطحياً فيكون عذاب القبر أو سعير النار سبباً في إقبال نفسه وشفائها، هذا إن كانت ممَّن اعتادت أن تُقبل أحياناً وحصلت لها الصلة بربِّها في دنياها. أما إذا كانت كافرة معرضة ولم تحصل لها الصلة بربِّها في الدنيا أبداً، ولم تتوصَّل إلى صفاته تعالى كي تتذوَّق محبَّته فتشفى ممَّا بها، فهنالك تكون النار سبباً حائلاً يحول بينها وبين ألم الشهوة الخبيثة التي تفتك بها، فتغيب بألم النار الشديد عن ألم داء الشهوة الخبيثة، ومن رحمة الله بها ألاَّ يرفع النار عنها أبداً، بل تظلُّ دائمة الحريق خالدة فيها.

هذا حال النفس الملوَّثة بجرثوم الشهوات الخبيثة في الدنيا، فالمصائب وعذاب القبر وسعير النار أسباب وعلاجات، تقود النفس إلى الإقبال على الله، وبذلك الإقبال تكون رؤية الحقيقة، ويكون الشفاء من جرثوم الشهوة المحرَّمة، التي علقت بالنفس ساعة الإعراض عن الله.

على أنه إذا استطاع المؤمن أن يُقبل على ربِّه الإقبال الصادق، فإنه يرى بنور ربِّه ما في الشهوات المحرَّمة من شر وأذى، وهنالك يكون الإقبال على الله وقاية له من الوقوع، وتطهر نفسه من عللها الخبيثة، فلا يميل إلى المحرَّمات، ولا يواقعها أبداً، ولذلك أمرنا ربُّنا أن نصل نفوسنا به دوماً، ونتجه إليه اتجاهاً صادقاً، فنصلِّي الصلاة الحقيقية التي لا نرى فيها مع ربِّنا سواه، والله في قبلة أحدنا ما دام في مُصَلاَّه، وتلك هي مشروعية الصلاة، قال تعالى:

{... إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...} [1]

وبهذه الصورة المذكورة تنهانا صلاتنا، وتلك صلاة المؤمن بالله حقّاً، ومن لم تكن صلاته على هذا الوجه ظلَّ أعمى، لا يرى خيراً ولا شرّاً، فتراه يستحب الشر ويحسبه خيراً. قال تعالى:

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [2]

ولذلك خوفاً من أن تميل نفوسنا إلى شهوة خبيثة، نطلب منه تعالى أن يمدَّنا بمعونته، فيكون معيناً لنا على رؤية حقيقتها، ولذلك نقول:

{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}:

ولكن ما هذه المعونة التي نطلب منه تعالى؟. إنها هدايته لنا بنوره لنرى خير شهواتنا من شرِّها ولذلك نقول:

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

والصراط: هو الطريق. وهداه إلى الطريق بمعنى: أرشده إليه وبيَّنه له وعرَّفه به، وفي هذه الآية تحصل لك التقوى، أي: أنك تطلب من خالقك بعد أن التجأت إليه وأدخل رسول الله نفسك عليه تعالى فعذْتَ بجنابه، وصرتَ في حضرته، تطلبُ منه أن يتجلَّى عليك بنوره لترى طريق الحق، وليستبين لك سبيل الرشد.

وبالحقيقة للأشياء صورة وحقيقة. فالعين بواسطة نور الشمس ترى من الأشياء صورتها دون حقيقتها. وذلك لأن خيال الجسم إنما يرتسم على الطبقة الشبكية في العين، وهنالك تراه النفس وتشعر به، فالنفس والحالة هذه لا ترى إلاَّ

---

١ – سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

٢ – سورة فصلت: الآية (١٧).

الخيال والصورة، ولا تستطيع أن تشهد الكُنهَ والحقيقة ورؤية الحقيقة لا بد لها من نورٍ قوي أقوى من نور الشمس، ومن بصرٍ نافذ حديد يصل إلى اللب، وذلك النور القوي الذي يكشف لك الحقيقة البيّنة الواضحة، هو نور الله تعالى، وذلك البصر الحديد إنما هو النفس بذاتها وكليَّتها مجرَّدة عن كل حجاب يحجبها، فبهذه الآية الكريمة إن أصبحت صادقاً في التجائك لله عندها تُقبل بنفسك على الله وتستهديه، وتطلب منه أن يتجلَّى عليك بنوره، فإذا صدقت في توجُّهك وطلبك حقّاً فهنالك تحصل لك التقوى فيجمع تعالى نفسك مع نفس رسوله الكريم وبنوره ﷺ يصل بك إلى نور الله تعالى الأصل، ويكشف لك هذا النور الإلٓهي حقيقة الأشياء، فتميّز خيرها من شرّها، ويكون لك من الله فرقان يُريك طريق الحق واضحاً نيّراً، قال تعالى:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ...} [١]

فهذا النور الإلٓهي يضيء للنفس طريق الحق ويُريها الخير من الشر، والمؤمن الصادق يستهدي ربَّه في سائر شؤونه ويستلهمه الرشد والصواب في كل أمر من أموره، وفي الحديث القدسي:

«.. يا عبادي كُلُّكم ضالٌّ إلاَّ من هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم» [٢]

فإذا حصلت لك التقوى هذه، وصرتَ ذا بصيرة عند تلاوة الآية التي نحن بصددها، فهنالك ترى أن الكون كلَّه مشمول بالعدل، وقائم بالحق، وتشهد أن الخلْق جميعاً مسيَّرون على صراط مستقيم، فلا يُسلَّط الحاكم الغاشم إلاَّ على

---

١ – سورة الحديد: الآية (٢٨).

٢– رواه مسلم.

امرئٍ مُسيء ظالم، ولا يُعانُ الجاني المجرم إلاَّ على معتدٍ آثم، ولا يسوق الله صاحب المعروف والإحسان إلاَّ لعبدٍ سبق منه المعروف وصدر منه الإحسان، ولهذا فإنك تطلب من الله أن يجعل تسييرك على صراط مستقيم يعود عليك بالنعمة والخير فتقول:

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}:

أي: اجعل يا إلّهيعملي كلَّه إحساناً لخلْقك، وسيْري خالصاً في خدمة عبادك، واجعلني ممَّن عاملوا خلقَكَ بالخير والإحسان فاستحقوا منك النعمة والإحسان، ولا يتقرَّب المتقرِّبون إليك إلاَّ بخدمة خلْقك، فاجعلني يا إلّهيفي زمرة عبادك المحسنين، الذين تفانوا في خدمة خلْقك، ففازوا برضائك، وكافأتهم على إحسانهم بجنَّتك ونعمتك، رسولك النبي الأمي ورسلك الكرام وأنبيائك العظام.

{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ}:

وهم الذين أقرُّوا لك بالربوبية، ولرسولك بالرسالة، فقالوا: لا إلّه إلاَّ الله موسى كليم الله، لا إلّه إلا الله عيسى من روح الله. لا إلّه إلاَّ الله محمد رسول الله ثم حادوا عن طاعتك، ومالوا عن شريعتك، فكانت أهواؤهم مسيطرة عليهم، وشهواتهم غِلاًّ في أعناقهم، فاحفظني يا إلّهيمن أن أكون من هؤلاء المغضوب عليهم الذين سمعوا كلامك ثم عصوك ولم يطيعوا أمرك، فكانت معاملتهم لعبادك مشحونة بالمكر وملأى بالأذى والشر، وحلَّ عليهم غضبك، ونَزَلَ بهم سُخطك، لأنهم حرموا أنفسهم ممَّا أعددته لهم من الفضل والخير، وخسروا ما هيَّأته لهم من النعيم المقيم.

{... وَلاَ الضَّالِّينَ}:

وهم الذين لم يهتدوا إليك، بل ضلُّوا عنك وعن رسلك، فلم يهتدوا بهدْيك وما عرفوا أسماءَك الحسنى، ولم يشهدوا صفاتك العليا، فكان ذلك سبباً في ضلالتهم

عن طريق الحق والهدى، فحسبوا عمل الخير خسارة ومغرماً، وظنُّوا التعدِّي والمكر ربحاً ومغنماً، فاحفظني يا إلّهيمن أن أضل عنك، ومن أعرض عنك استحوذ عليه الشيطان فكانت أعماله كلُّها شرّاً. إذ كانت الدنيا الدنية المنقضية أكبر همِّهم ومبلغ علمهم لا يبغون سواها وعن سماع الآخرة والإلّه عازفون ولدنياهم بكلِّيتهم منصرفون وعندما ماتوا ما ربحت تجارتهم، إذ ما كانوا بدنياهم أبداً مهتدين.

احفظني يا إلّهيمن أن أضلَّ عنك فإنك ربٌّ رؤوفٌ رحيم، وإنك مصدر كل فضيلة وخير، ومن ضلَّ عنك عاد لا يفعل خيراً أبداً، ومن ضلَّ عنكَ هَلَكَ وخسر خسراناً مبيناً.

* * *

تأويل سورة البقرة

شرح الآيات الورادة في مطلع سورة البقرة

سنجعل طريقتنا في التأويل أن نورد المعنى اللغوي للكلمة الواردة في الآية، ثم المعنى المرادف في الآية، ثم ننتقل إلى معنى الآية كلها بادئين بتأويل مطلع سورة البقرة فنقول:

قال الله تعالى:

{الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}.

الْكِتَابُ: هو ما يُكتب، أي: ما يُثبت من المعاني والدلالة المترابطة التي تصل بالقارئ إلى هدف وغاية معيَّنة وهي تشمل المثبت على الورق وغيره.

والمراد بكلمة (**الْكِتَابُ**) هنا هذه الدلالة التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ وأثبت حقائقها في قلبه وأمره بأن يُبلِّغها للناس.

الرَّيْب: هو الخروج عن الحد. تقول رابني الأمر، أي: أخرجني عمَّا أنا فيه من الطمأنينة.

وفي الحديث الشريف:

«دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك»[١].

أي: دع ما يُخرجك عن دائرة الاستقامة والطمأنينة من رضاء الله عنك إلى ما لا يريبك أي: ما لا يُخرجك.

والرَّيب هنا تعني: الخروج من دائرة المنطق الصحيح والسير الإنساني.

الهدى: كل ما يهتدي به الإنسان في الوصول إلى هدف معيَّن. فاللافتة التي تُنصب في الطريق تُبيِّن وجهة الطريق للمسافر تُسمَّى هدى. والمصباح الذي يحمله السائر في الظلام ليبيِّن له الطريق يُسمَّى هدى.

---

١ – رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ت (٢٥٢٠)

والمراد بالهدى هنا: هذا البيان الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ليدلَّ الإنسان على طريق الوصول إلى معرفة الله ويعرّفِه بالسبيل الذي يجب أن يسلكه الإنسان في هذه الحياة ليكون من السعداء.

لِلْمُتَّقِينَ: مأخوذة من اتَّقى، بمعنى: تجنَّب وردَّ. تقول: اتَّقيت ضربة عدوي بالترس، أي: تجنَّبتها ورددتها. واتَّقيت الوقوع في الحفرة بالمصباح، أي: تجنَّبت الوقوع وباعدت نفسي عن التردي فيها بواسطته.

والمراد بكلمة **(لِلْمُتَّقِينَ)** الواردة هنا: الصادقين في طلب المعرفة.. معرفة الحق جلَّ وعلا، أي: طالبي التقوى فيكون من نتائج معرفتهم بربِّهم أن يتفضَّل عليهم ربُّهم بنور منه يقيهم من الوقوع في المهالك والموبقات. ويكون ما نفهمه من آية:

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}:

أي: أيُّها الرسول المخاطَب بكلمة **{الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ...}**: هذا البيان المُنزل إليك والذي كتبناه في قلبك لتبيِّنه للناس لا ريب فيه، أي: لا خروج فيه عن طريق الحق والإنسانية، إنما هو يجمع البشرية وهو هدىً للمتقين.

والمراد بكلمة **(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)** إنما هو دليل بيّن في طلب الحق "طريق التقوى" ويعرّفِهم بأصولها، وبسلوكهم هذه الطريق تستنير نفوسهم بنور خالقها وتعرف خيرها من شرِّها.

ثم بيَّن لنا تعالى طريق التقوى فقال:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}:

وإذن فحصول التقوى وإن شئت فقل: الاستنارة بنور الله ورؤية الخير من الشر متوقف على الإيمان. والإيمان هو المعرفة المبنية على نظر ومحاكمة واستدلال.. وعلى وجه المثال نقول:

لا يعدُّ مصدِّقاً بجريان التيار الكهربائي بسلك ما ولا هو بمؤمن حقّاً بجريان هذا التيار الساري رجل قالوا له قولاً: يجري في هذا السلك تيار كهربائي فأعاد القول وردَّده بلسانه كالأطفال دون أن يتحقَّق من وجود التيار بنفسه، وكل ما يتولَّد في نفسه من المعرفة عن طريق السماع إنما هو اعتقاد مبني على قول الآخرين. وهذا الاعتقاد قد يتطرَّق إليه الشك فتجد هذا الشخص يتردَّد بين الشك واليقين والتصديق والتكذيب. ولا يمكن أن يعدَّ مؤمناً ما لم يبنِ معرفته على نظر واستدلال. فإذا هو أشعل المصباح ورأى توهُّجه، أو فتح المفتاح وتحركت المروحة الكهربائية، أو ضغط الزر وسمع رنين الجرس فعندئذ يحكم حكماً فكرياً جازماً بوجود التيار وإن لم يره لأن الفكر بناءً على ما أدركته الحواس من الآثار يحكم بوجود المؤثِّر.

وهذا الحكم الذي يحكمه المرء بناء على مشاهدة الآثار وبناء على النظر والاستدلال إنما هو حكم جازم لا يتطرَّق إليه الشك وهذا هو الذي نُسمِّيه الإيمان. وهكذا بين الاعتقاد والإيمان بون شاسع وفرق عظيم.

فالاعتقاد: يكون مبنياً على السماع من الآخرين.

والإيمان: إنما ينبثق في النفس من ذاتها بناءً على نظرها ومحاكمتها.

وننتقل الآن إلى كلمة: **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..)** الواردة في الآية الكريمة فنقول:

لقد بيَّن الله تعالى لنا أن طريق التقوى هو الإيمان بالغيب، وهذا الإيمان بالغيب إنما يكون بالنظر في هذا الكون والتأمُّل فيه ثم الحكم بوجود إلّه مسيِّر وخالق عظيم ومربٍّ حكيم.

فإذا نحن نظرنا إلى الشمس تشرق في الصباح من المشرق فهذا يدلُّنا بلا شك على أن الأرض محمولة في الفضاء، وأنها تتحرك بحركة منتظمة وتدور

دورة كاملة في اليوم والليلة. وإذا كنا نحكم بوجود تيار كهربائي يحرِّك المروحة الكهربائية عندما نراها تتحرَّك وإن لم نرَ ذلك التيار فإن تفكيرنا لا يُقرُّ بوجود حركة بدون محرِّك، فلا شك أن تفكيرنا أيضاً يحكم بوجود قوة عظيمة هائلة تحرِّك هذه الكرة الأرضية في الفضاء كما تحرِّك القمر حول الأرض بنظام في هذا الفضاء، وهكذا إذا وسَّع الإنسان تفكيره وتعمَّق انتهى به الأمر إلى الحكم بوجود خالق ومربٍّ وإله، أي: مسيِّر.. وهو يحكم حكماً جازماً بوجود هذا الخالق العظيم والمربِّي الحكيم والإلّه المسيِّر وإن لم يره، وذلك هو الإيمان الفكري.

فإذا فكَّر الإنسان بالمصير والفراق والموت المحتوم خافت النفس واتَّعظت وأرسلت بشعاعها إلى الفكر الذي سرعان ما يرسم لها المخطَّط الكامل للوصول إلى الإلّه الخالق ومشاهدة نوره واليقين الحتمي الشهودي بوجوده وإشرافه عليه وعلى المخلوقات كلّها جليلها وضئيلها، وتعلم النفس علم اليقين بأن الوجود والقيام وحياة الكون كلّه تتم بهذا الإلّه العظيم، شهوداً نفسياً مبنياً على علم فكري جازم وأنه حتماً سيسأله عن أعماله كلّها وأن سعادته أو شقاءه مبنيان على سيره الحسن أو السيء فيخشى النتائج ويستقيم.

إذاً فالإيمان بالغيب لمن غاب عنه الوجود الإلّهي ثم بتفكيره الذاتي استدل عليه بذاته.

فإذا خطا الإنسان هذه الخطوة الأولى وعرف أن له خالقاً عظيماً ومربِّياً حكيماً وإلهاً مسيِّراً بيده تصريف أمور الكون صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فلا شك أن إيمانه هذا يجعله في حصن الاستقامة فلا يجرؤ على أن يؤذي نملة صغيرة، ولا أن يقول كلمة واحدة، أو ينظر نظرة، أو يخطو خطوة ما لم تكن خالية من إيذاء الخلْق، موافقة لرضاء الله تعالى.

وهذه الاستقامة في العمل، وهذا السير الطيّب يُولّد في النفس الثقة برضاء الله وبذلك تستطيع النفس أن تُقبل على خالقها وتتجه بكلّيتها إليه.

وهذا ما يجعلنا نفهم معنى كلمة **(وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ)** الواردة في الآية الكريمة بعد كلمة **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)**.

فإقامة الصلاة تتوقَّف على الاستقامة التي هي ثمرة من ثمرات الإيمان بالغيب.

وإذن فليست إقامة الصلاة تلك الألفاظ التي تشبه ألفاظ الأذان مما نذكره قبل صلاة الفرض، فما تلك الألفاظ إلا مذكِّرات، وليست الصلاة فقط تلك الأقوال والأفعال التي ما هي إلاَّ وسائل وأسباب لحصول الصلاة والتعبير عنها وحصر النفس بوجهتها إلى الله، فما الصلاة إلاَّ تلك الصلة المعنوية التي تشعر بها النفس المؤمنة المستقيمة على أمر ربِّها حينما تُقبل عليه بوجهها، وما إقامة الصلاة سوى القيام بالأعمال العالية التي تولِّد في النفس الثقة برضاء الله عنها، فإذا وقف هذا العبد المحسن للصلاة بين يدي خالقه وأقبل عليه وشعرت نفسه بتلك الصلة فقد صلَّى الصلاة الحقيقية واستفاد منها ومن لم يسلك هذه السبيل فصلاته صورة لا حقيقة.

وفي الحديث الشريف:

«ربَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلاَّ الجوع، وربَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلاَّ السهر» [١]

---

١ –الجامع الصغير (٤٤٢٨) سنن ابن ماجه عن أبي هريرة.

إن هذه الصلاة التي بيَّناها، وأعني بها تلك الصلاة المملوءة بالوجهة إلى الله تعالى والإقبال عليه بسبب إيمان المصلِّي الذاتي بالغيب والشهود اليقيني لعظمة وجلال وكمال الله هي الصلاة الحقيقية التي يجب أن يصلِّيها الإنسان.

* * *

ولكن ما هو أثر هذه الصلاة في النفس؟. وبِمَ تعود على صاحبها؟.

أقول: إذا وقف الإنسان بين يدي خالقه وأقبل بوجهه على الله تعالى ذلك الإقبال العالي فهنالك تنطبع نفسه . والنفس كما نعلم كالمرآة . بانطباعات من الكمال الإلٓهي كالرحمة والرأفة والعدل والحلم إلى غير ذلك من الكمالات، وينقلب المصلِّي من صلاته وفي نفسه من الكمال والصفات السامية ما يتناسب مع وجهته وإقباله على ربِّه. وقد أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ فقال:

«ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل منها»[1].

وتجد هذا المصلِّي الذي صلَّى تلك الصلاة قد أصبح إنساناً إنسانياً شفوقاً على الناس، رحيماً بالخلْق يتمنَّى لهم كل خير وحب، كل مساعدة وإحسان ويتحيَّن الفرص إلى بذل المعونة والإنفاق مما آتاه الله من علم أو مال أو جاه أو قوة. ولذلك ذكر تعالى في الآية الكريمة بعد كلمة **(وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ)** كلمة **(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)** ليُعرِّفنا أثر الصلاة في صلاح الفرد والمجتمع وليُبيِّن لنا أن الصلاة الحقيقية ثمرتها فعل المعروف ومد يد المعونة لكلِّ محتاج، ومن لم تصل به صلاته بعد إلى هذه الغاية السامية من فعل المعروف والإحسان للخلْق فذلك دليل على أنها خالية من الوجهة إلى الله تعالى، أو بالأحرى غير مبنية

١- كنز العمال: ج٣ . ص٣٨٢

على ذلك الركن الأساسي من الإيمان بالغيب، فما عليه إذن إلاَّ أن يسعى وراء الوصول إلى الإيمان حسبما بيَّناه من قبل.

وقد أشار تعالى إلى هذه الناحية الهامة في كتابه الكريم في كثير من المواضع، فما ذكر لنا الإيمان في موضع من القرآن إلا وجعله مقروناً بالعمل الصالح ليبيِّن لنا أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح لا يفترقان، قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً} [١]

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ...} [٢]

{وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..} [٣]

{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [٤]

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

* * *

ونلخِّص الخطوات التي فصَّلناها من قبل والتي انطوت عليها الآية الكريمة التي نحن بصددها فنقول:

١. الإيمان بالغيب يُولِّد في النفس الخشية ويحملها على الاستقامة على أوامر الله تعالى.

٢. والاستقامة تبعث في النفس الثقة من رضاء الله عنها فتستطيع بذلك أن تُقبل عليه تعالى بوجهها وتصلِّي صلاة حقيقية.

---

١ – سورة الكهف: الآية (١٠٧).

٢ – سورة يونس: الآية (٩).

٣ – سورة العصر.

٤ – سورة الزخرف: الآية (٧٢).

٣. والصلاة تولِّد في النفس الكمال فتجعل الإنسان شغوفاً بعمل الخير محبّاً للإنفاق مما آتاه الله.

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

وتلك هي الطريق التي تصل بالإنسان إلى التقوى.

وهنالك طريق ثانية تصل بالإنسان إلى التقوى أيضاً، وقد أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}:

والمراد بكلمة **(بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)**: ما أنزله الله تعالى من البيان والدلالة على رسول الله ﷺ في القرآن.

والمراد بكلمة **(وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)**: ما أنزله الله تعالى على الرسل الذين سبقوا رسول الله ﷺ .

أما كلمة **(يُوقِنُونَ)** فمأخوذة من: أيقن. تقول: أيقن فلان بالأمر، أي: تحقَّق منه وثبت لديه وقوعه بصورة لا يتطرَّق إليها الشك. فنحن نهاراً نوقن بقدوم الليل قبل وقوعه لأن هذا النظام الذي قام عليه خلْق السموات والأرض منذ أن خلقهما الله تعالى حتى الآن يجعلنا نتحقَّق من ذلك.

ونحن نؤمن بأن الموت لا بد أن يحل بنا لأننا رأينا أن الموت أمر يُدْرِكُ كلَّ مخلوق فلا ينجو منه أحد. قال تعالى في سورة الحجر (٩٩):

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} أي: استمر على عبادته حتى ساعة الموت، التي وقوعها لديك ثابت ومحقَّق.

ونعود الآن لتأويل الآية التي نحن بصددها فنقول: هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريق الثانية التي أشارت إليها الآية الكريمة إنما بدؤوا طريقهم بالنظر فيما

سمعوه من رسول الله ﷺ من القرآن الكريم فوجدوه مُحكماً مترابطاً جميع أوامره تدور حول سعادة الإنسان وسائر المخلوقات وهو إنما يجمع البشرية كلها تحت لواء إنساني واحد، فلما رأوا ذلك فيه حكموا حكماً مبنياً على تفكير واستدلال أنه من عند الله، فلا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، وبذلك صدَّقوا رسول الله ﷺ فآمنوا برسالته إيماناً شهودياً بنوره ﷺ كما آمنوا برسالة من سبقه من الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين.

وحيث إنهم آمنوا بهذا الكتاب المنزَّل على رسول الله ﷺ أنه كلام الله، وبما أن الله تعالى أخبرهم فيه عن الآخرة ولذلك فقد أصبح هذا اليوم لديهم ثابتاً محقَّق الوقوع منهم بالآخرة وبالجزاء على الأعمال (**... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**)، ولكن علامَ يحملهم يقينهم بالآخرة؟.

لا شك أن ذلك اليقين بالآخرة والجزاء على الأعمال يجعل الإنسان يخاف من المسؤولية ويستقيم على أوامر الله، وهذه الاستقامة تولِّد في النفس الثقة من رضاء الله عنها وبذلك يستطيع هذا الإنسان أن يُقبل على الله في صلاته وتحصل الصلة بالله. وبهذه الصلة كما رأينا من قبل تنطبع النفس بالكمال، وهنا يلتقي هذا المؤمن الذي سلك هذه الطريق الثانية بذلك المؤمن الذي سلك الطريق الأولى، فكلاهما انطبعت نفسه بالكمال. وبما أن الكامل يحب أهل الكمال ويقدِّرهم ولذلك تجد الذي وصل إلى هذه المنزلة يعظِّم رسول الله ﷺ الذي فاق العالمين طرّاً في الكمال فتقارن نفسه نفس رسول الله ﷺ وترافقها وتدخل بمعيَّتها على الله تعالى وبذلك تشاهد الكمال الإلٓهي من رأفة ورحمة وعطف وحنان فتحب هذا الخالق العظيم وتنتقل في هذا الحب إلى مرتبة العشق لهذه الذات العليَّة الكاملة وبذا تشتق من الله تعالى نوراً تهتدي به فتميِّز الخير من الشر

والحق من الباطل؛ وإنما تتَّقي بهذا النور كل ما يعود عليها بالشر والهلاك وهي دوماً على نور من الله وهدى.

وهكذا فالذين سلكوا الطريق الأولى بادئين بالإيمان بالغيب والذين سلكوا الطريق الثانية بادئين بما أنزل إلى رسول الله ﷺ ، هذان الفريقان يلتقيان في الصلة مع الله ويسيران معاً إلى التقوى بصحبة رسول الله ﷺ وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}:

فهم في سيرهم حتى وصلوا إلى التقوى وهم من بعد وصولهم إليها على هدى من ربِّهم، **(وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** أي: إنهم يعملون ما يعود عليهم بالخير والفلاح.

* * *

فلننتقل الآن بعد أن بيَّنا معنى الإيمان والطريق الموصلة إليه، إلى شرح الآيتين التاليتين اللتين وصف الله تعالى بهما أحوال الكافرين وذلك بقوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

ونبدأ بالآية الأولى فنقول:

الكفر: هو الستر، تقول: كفر الشيء، أي: ستره وغطَّاه، وكفر الليل بظلامه الطريق، أي: سترها فلم تعد تتبيَّن. والمراد بالكفر: عدم رؤية الفضل والإحسان والعظمة والقدرة الإلٓهية، وعدم مشاهدة التربية والتسيير الإلٓهي بسبب إهمال النفس تفكيرها في آيات الكون وانصرافها إلى الدنيا.

وبشيء من التفصيل نقول: إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك العظمة الإلٓهية ما لم ينظر مفكِّراً في هذه المخلوقات. فبقدر التعمُّق في التفكير في المخلوقات

ورؤية ما فيها من إحكام ودقة صنع يكون تعظيم الخالق وإدراك حكمته وعلمه. وبقدر ما يشاهده في هذا الكون من دلائل العطف والإحسان وآيات الرحمة، يكون إدراك الرحمة الإلّهية وتقدير العطف والإحسان. وإذا نحن لم نفكِّر في سير هذه المخلوقات من شمس وقمر، وأرض ونجوم، ورياح وسحاب، وبحار وأنهار، وما دمنا لم نعقل أن الكون كله تديره وتنظِّم شؤونه يد واحدة فلا نستطيع أن نتوصل للإيمان بهذا الإلّه ونحن بعيدون عن إدراك كلمة **(لا إلّه إلا الله)** ولو أننا قلناها في صلواتنا وأذاننا وردَّدناها في غير صلواتنا آلاف المرات.. نعم لم نقلها بعد ولم نتوصَّل لتلك المرتبة التي أشار إليها الحديث الشريف في قول رسول الله ﷺ:

«من قال لا إلّه إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟. قال: أن تحجزه عن محارمِ الله»[١].

ولم نتحقَّق بعد بحديث: «**بُني الإسلام على خمس**[٢] **: شهادة أن لا إلّه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله..**»[٣] . لأن الشهادة معناها المشاهدة. فلا يقول امرؤ أمام حاكم من الحكَّام أشهد بكذا إلاَّ إذا كان عاين ذلك الأمر وشاهده. وما لم يتحقَّق بالمشاهدة فشهادته باطلة كاذبة لا يُبنى عليها شيء.

وهكذا فإعراض النفس عن التفكير بآيات الكون وعدم إعمال الفكر فيما يقع تحت المشاهدة من المخلوقات يسبِّب عدم تقدير الخالق، لا بل عدم رؤية القدرة والعظمة والرحمة والحنان الإلّهي وذلك هو الكفر. قال تعالى:

---

١ - رواه الطبراني في الأوسط الكبير

٢ - انظر كتاب درر الأحكام في شرح أركان الإسلام (المدارس العليا للتقوى) للعلامة محمد أمين شيخو.

٣ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[1]

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [2]

فكلمة **(الكفر)** منحوتة وناشئة من إهمال التفكير في معرفة الخالق، وبما أن هذا المعرض عن التفكير لم يُدرك شيئاً من أسماء الله تعالى كالحكمة والرحمة والعدالة الإلّهية، لذلك مهما حذَّرته من عواقب عمله ومهما أنذرته بسوء المصير بسبب ما يقارفه من أعمال، لا يُبالي بتحذير ولا يخاف إنذاراً لأن الخشية والخوف إنما ينشآن في نفس قدَّرت وعظَّمت خالقها وخشعت إليه.

قال تعالى: **{... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...}** [3]

وذلك ما نفهمه من آية:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}.

ولا بد لخروج هؤلاء مما هم فيه، من العودة لجادة الصواب والرجوع إلى التفكير وبذلك ينبثق الإيمان في نفوسهم فيؤثِّر فيهم الإنذار ويحذرون ويخافون سوء المصير.

أما إذا استمرَّ الإنسان في إعراضه عن التفكير في هذا الكون وظلَّ بعيداً عن الإيمان بلا إلّه إلا الله فلا شك أن إعراضه هذا يكون سبباً في تولُّد الشهوات الخبيثة في نفسه وامتلاء هذه النفس بالعلل والأدران ولذلك ومن الرحمة الإلّهية بهذا الإنسان المريض النفس أن يختم الله تعالى على قلبه لإخراج ما فيه.

---

١ – سورة يوسف: الآية (١٠٥).

٢ – سورة النحل: الآية (١٠٤).

٣ – سورة فاطر: الآية (٢٨).

والختم على القلب: هو عدم رؤية الحقائق. تقول: ختم العامل زجاجة الدواء، أي: أحاط فوهتها بمادة مانعة تحول دون نفوذ الهواء والأجسام الغريبة. فالله تعالى يختم على قلب هذا الإنسان المُعرض فيقارف العمل الذي تدفعه الشهوة إليه ويقع فيه، فإما أن يسرق أو يزني أو أن يضرب غيره ويعتدي عليه ولا يرى عواقب عمله وما سيلحقه من شدة. ولو أنه رأى ذلك وشاهده لما قارف العمل ولظلَّ خبثه مكبوتاً كامناً في نفسه وما دامت النفس مشغولة بالشهوة فلا يمكن لها في حال من الأحوال أن تُقبل على الله، وما مثل هذا الإنسان إلاَّ كمثل طفل فسد الطعام في معدته وامتلأت المعدة بآلاف الجراثيم ولذلك أصبح لزاماً على والده أن يعطيه مسهِّلاً يُخرج له الأطعمة الفاسدة من جوفه، إذ في بقائها هلاك وإضرار به. وبما أن هذا الطفل يمانع من شرب المسهِّل لذلك تجد والده يضع له فيه المواد التي تزيل رائحته وتطيِّب نكهته وتجعله مقبولاً لديه وهنالك يُقبل على الدواء طمعاً بطعمه الطيِّب فإذا شربه واستقرَّ في جوفه بدأ يعمل عمله.

وهكذا فالله تعالى يختم على قلب الكافر مريض النفس فلا يُريه ما وراء عمله من شدائد وآلام ولا ما يترتب عليه من مسؤوليات وبذلك يُقبل على العمل ويقارفه وحينئذ تخلو ساحة النفس منه وتخلص من تلك الشهوة الخبيثة، ذلك ما نفهمه من كلمة **(خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ)** الواردة في الآية الكريمة.

وكلمة **(وَعَلَى سَمْعِهِمْ):** فمعناه عدم نفوذ النصيحة والتحذير، فمهما سمع هذا الكافر الذي ملأت محبّة الدنيا قلبه بما حلَّ بالمعرضين الذين قارفوا المعاصي والآثام فلا يتَّعظ بموعظة ولا يؤثِّر فيه النصح، وهو إلى جانب ذلك لا يرى ما يحلُّ بالآخرين ولو أنهم نالوا العقوبة على مشهد منه. قال تعالى:

(... وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ...).

والغشاوة: في الأصل جرم كثيف غير شفاف يظهر على حدقة العين فيحول بينها وبين الرؤية. والغشاوة هنا بالنسبة للنفس إنما هي الشهوة الخبيثة، فإذا ملأت الشهوة النفس سدَّت على الإنسان سمعه وغشت بصره فأصبح لا يسمع موعظة ولا يرى خطراً وهو مُقْدم عليه، وقد أشار إلى ذلك ﷺ :

«حبُّك الشيء يُعمي ويُصمُّ» (١)

فإذا وقع هذا المعرض في الشهوة وخرجت من نفسه فهنالك يسوق الله تعالى له الشدائد من فقر أو مرض أو ذل أو إهانة وربك حكيم يسوق لكل امرئ ما يناسبه، فلعلَّ هذا الإنسان بهذه الشدائد يثوب إلى رشده ويُعمل تفكيره فيعرف مصدر هذه الشدة فيؤمن بخالقه ويتعرَّف إلى مسيِّر هذا الكون والذي ما ساق له ذلك البلاء إلاَّ بسبب أعماله وإعراضه.

ونجمل تأويل هذه الآية فنقول:

الإعراض عن الإيمان بالله وعدم الوصول إلى لا إلّه إلا الله يولِّد في النفس الخبث والعلل. ومن رحمة الله أنه يبدأ بإخراج علَّة هذا المريض النفسي فيختم على قلبه وسمعه فلا يعود يشاهد ولا يسمع ولا يرى ما وراء تلك الشهوة من الشدائد. فإذا هو وقع في الشهوة وخلصت نفسه منها، ساق الله تعالى له البلاء والشدائد فلعلَّه يفكِّر ويتعرَّف إلى خالقه ويُقبل عليه وهنالك تطهر نفسه ويصبح في عداد المؤمنين. قال تعالى:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٢)

---

١ – أخرجه أبو داوود عن أبي الدرداء/مسند أحمد ج ٥/ص١٩٤.

٢ – سورة السجدة: الآية (٢١).

عوْدٌ على بدء

تأويل سورة البقرة

يُبيِّن الله تعالى لرسوله الكريم في مطلع هذه السورة أنَّ النَّاس فريقين:

فالفريق الأول: هم الذين تطلب نفوسهم الوصول إلى التقوى وهؤلاء هم في الحقيقة من أعلى المخلوقات نفساً وأسماهم عند الله مكانةً أولئك على هدىً من ربِّهم وأولئك هم المفلحون.

وأما الآخرون: فهم الذين كفروا وهؤلاء هم الذين أعمت الشهوة نفوسهم وغشيت أبصارهم وبذلك أنكرت نفوسهم عظمة خالقها فأصبحوا لا يعون قولاً ولا يفقهون موعظة وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

وهناك فريق ثالث: وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين.

وقد بدأ تعالى السورة بأن خاطب رسوله الكريم بآية: **{الم}**، ثم أتبعها بكلمة **{ذَلِكَ}** المنتهية بكاف الخطاب لتدرك أن المعني في الخطاب بكلمة **(الم)** إنما هو رسول الله ﷺ . فإذا نحن عرفنا أن كلمة **(ذَلِكَ)** إنما تشير إلى مُخاطب يُخاطب عن أمر وهو الكتاب، والحديث عنه وعليه أي عن الكتاب، فلا شك أننا حينئذ ندرك أن المقصود بكلمة **(الم)** إنما هو رسول الله ﷺ المنزَّل عليه هذا الكتاب الكريم.

والآن وبعد أن قرَّرنا أن المعني بالخطاب بكلمة **(الم)** إنما هو رسول الله ﷺ نريد أن نبيِّن تأويل هذه الكلمة ثم نبيِّن السبب الذي جعل هذه الكلمة ترد على شكل رمز لا على شكل صريح فنقول:

هذا الرمز وإن شئت فقل: هذه الكلمة تتركب من حروف ثلاثة:

(ألف ولام وميم) وهذه الحروف إنما هي أوائل لأسماء رسول الله ﷺ .

فالحرف الأول يُشير إلى كلمة (**أحمد**).. والحرف الثاني وهو اللام يشير إلى كلمة (**لطيف**).. وأما الحرف الثالث فيُشير إلى كلمة (**محمود**).

كلمة (**الم**) تقول:

يا أحمد الخلْق، يا لطيف، يا محمود.. فأنت أحمد الخلْق، إذ حمدتني حمداً سبقت به جميع عبادي فكنت أحمدهم لي وأعظمهم تقديراً لفضلي وإحساني وبذلك صرت لطيفاً فكل من رافقت نفسه نفسك الطاهرة عرجْتَ به إليَّ ودخلْتَ بنفسه بلطف عليَّ وبهذا وبفعلك الطيِّب صرت محموداً عندي وعند عبادي.

* * *

ولعلَّك تقول: لماذا بدأ الله تعالى هذه السورة وأمثالها من السور الكريمة بمثل هذه الرموز ولم يذكر لنا ما يشير إليه على وجه صريح فنقول:

يتوقَّف فهم القرآن الكريم على مبدأين اثنين:

أولهما: طهارة النفس.

وثانيهما: تدبُّر الآيات ويقظة التفكير.

وقد أشار تعالى إلى المبدأ الأول مبدأ طهارة النفس في الآيات الواردة في سورة الواقعة فقال تعالى:

{فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[١]

كما أشار إلى المبدأ الثاني.. مبدأ تدبُّر الآيات وإعمال الفكر في قوله تعالى: **{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}** [٢]

---

١ – سورة الواقعة: الآية (٧٥–٨٠).

٢ – سورة ص: الآية (٢٩).

{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...} [1]

وبشيء من التفصيل نقول:

ليست طهارة النفس أمراً شاقّاً ولا تكليفاً عسيراً. فنظرة في هذا الكون لا بد أن تهدي صاحبها إذا كان صادقاً في طلب الحق إلى معرفة خالقه ومربيه وتعرِّفه بإلهه ومسيِّره. فإذا آمن الإنسان بلا إلّه إلاَّ الله وعرف أن سَيْر الكون كله بيد الله فلا شك أن إيمانه هذا يبعث في قلبه خشية هذا الخالق العظيم ويحمله على الاستقامة على أمره، وتُولِّد هذه الاستقامة في النفس الثقة برضاء الله عنها وبذلك تستطيع أن تُقبل عليه تعالى وتحصل لها الصلة بخالقها ولكن ما هي فائدة هذا الإقبال على الله والصلة به تعالى؟.

إن النفس بإقبالها على الله وصلتها به وهو تعالى صاحب الكمال تشتق منه الكمال وتطهر مما فيها من خبث وأدران وتلك هي الطهارة التي أشارت إليها الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً في قوله تعالى:

{لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ} [2]

وبهذه الصفة التي اشتقها الإنسان من الله تعالى تجده يحب أهل الكمال ويقدِّر من فاقه في الكمال وقد غدا أهلاً لأن يدرك كمال الله تعالى صاحب الكمال ويمس معاني ذلك الكلام العالي المنطوي على الكمال فيؤوِّله بما يتوافق مع الكمال.

فإذا قرأ المؤمن **(الم)** فلا شك أن تفكيره يستيقظ منبعثاً من رقاده متسائلاً عما تشير إليه حروف هذا الرمز فينتبه ويفكِّر، ومن لا يفكِّر فلا جدوى له،

---

١ – سورة محمَّد: الآية (٢٤).

٢ – سورة الواقعة: الآية (٧٩).

والتفكير سمة الإنسانية ينبغي على الإنسان ألا يقلِّد دون تفكير، بل عليه أن يفكِّر بالصلاة وحقيقتها وما فيها وبالصوم وأسبابه وموجباته والغاية منه وبالحج وما فيه من أسرار وحِكَم بالغة تسمو بالإنسان لأسمى الإنسانية، وتدلُّه الكلمات التالية وهي كلمة **(ذَلِكَ الْكِتَابُ)** وكلمة **{... يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}** على أن المُخاطَب إنما هو رسول الله ﷺ المنزَّل عليه هذا القرآن. ويجول هذا الفكر جولته في البحث عن معنى هذه الحروف مستمدّاً العون من الله تعالى، فإذا بهذا المؤمن يرى بما فيه من كمال أن هذه الحروف أشارت لأسماء رسول الله ﷺ الذي فاق الخلْقَ جميعاً في الكمال وكأنه يسمع أن الله تعالى ينادي رسوله:

يا أحمد: أي: يا أحمد الخلْق، إذ بعملك العالي الرفيع وتضحياتك الإنسانية الكبرى غدوت قريباً مني فحمدتني حمداً سبقت به كافة عبادي فكنت أحمدهم لي وأعظمهم تقديراً لفضلي وإحساني وتسييري الخيِّر لكل عبادي، وبذلك صرت لطيفاً "يا لطيفاً" فكل من رافقت نفسه نفسك الطاهرة عرجْتَ به إليَّ ودخلت بنفسه بلطف عليَّ. وبهذا وبفعلك الطيِّب صرت محموداً "يا محموداً" عندي وعند عبادي.

فإذا سمع هذا المؤمن نداء الله لرسوله واصفاً إيَّاه بأعلى صفات الكمال فعندئذ ترتبط نفسه بنفس رسول الله ﷺ برباط المحبة والتقدير لهذا الرسول الكريم وتراه يقرأ الآيات التالية كلها مصاحباً لتلك النفس الطاهرة لا ينفكُّ عنها وتلك هي الشفاعة في معناها الصحيح. صحبة تلك النفس المؤمنة لنفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة وارتباطها بها برباط الإجلال والتقدير والمحبة. ذلك هو المقصود من الصلاة على رسول الله التي أمر الله تعالى بها عباده المؤمنين كافة فقال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [1]

يربط المؤمنون نفوسهم التي اشتقت من الله تعالى طرفاً من الكمال برباط المحبة بنفس رسول الله ﷺ الذي فاق الخلْق جميعاً في الكمال.

* * *

ولكن ما هي نتائج ارتباط الأنفس بنفس رسول الله ﷺ :

أقول: إذا قرأ الإنسان كلمة **(الم)** وأوصلته تلك إلى الشفاعة وإن شئت فقل إلى صلة نفسه بنفس الرسول الكريم فعندئذ ينعكس في نفس هذا المؤمن الصافية ما هو منطبع من معاني القرآن في نفس رسول الله ﷺ المقبلة على الله ويكون هذا الانعكاس متناسباً مع صلة هذا المؤمن برسول الله ﷺ ومقدار حبّه له، ثم تنعكس هذه المعاني من نفس هذا القارئ إلى الدماغ فيدرك الفكر تلك المعاني ويحلّلها ويترجم اللسان معبِّراً، ويتابع هذا المؤمن القراءة حتى يصل إلى آخر السورة وتظهر له معاني الآيات آية بعد آية، وما دام وهو مرتبط بنفس رسول الله ﷺ فالمعاني يتتابع انعكاسها في نفسه حتى يأتي على السورة كلها.

وتوضيحاً لهذا المعنى وعلى وجه المثال نقول:

مَثَلُ هذا المؤمن في صلة نفسه برسول الله ﷺ أثناء قراءته كلام الله كمثل رجل مبصر دخل غرفة ينيرها مصباح وبها صنوف مختلفة من الأشياء، فكلَّما اتَّجه إلى شيء من الأشياء التي تنصب عليه أشعة ذلك المصباح انطبعت صورة هذا الشيء في عين الرائي المستنيرة فاتَّضح له ذلك الشيء وأدركه وهكذا وما دام داخلاً هذه الغرفة فهو مستنير، وما دام يتطلَّع إلى الأشياء فهو لها

---

١ - سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

مدرك وبها موقن وما الغرفة إلاَّ نفس رسول الله ﷺ الطاهرة وما الأشياء إلاَّ الآيات الكريمة. وما المصباح الكاشف في الغرفة إلاَّ النور الإلّهي المتوارد على نفس رسول الله ﷺ . وما الرجل المُبصر إلاَّ ذلك المؤمن الذي تفتَّحت عينه بالإيمان أي بمعرفة ربّه.

ذلك مثل سقناه لتوضيح هذه الحقيقة وليس المثل كالممثَّل وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.

ذلك بعض ما نفهمه من كلمة **(الم)** التي جعلها الله تعالى مفتاحاً لهذه السورة وذلك هو السبب الذي جعلها ترد على شكل رمز ولم تأت مدلولاتها على شكل صريح. فمن آمن بالله وسلك الخطوات التي أوردناها آنفاً أدرك معاني القرآن واهتدى إليه.

قال تعالى في معرض الردِّ على الذين استغلق عليهم فهم القرآن ولم يدركوا ما انطوت آياته عليه:

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} (١)

هذا الارتباط برباط المحبة بنفس رسول الله ﷺ ، هو الذي يكون سبباً كما أشرنا إليه من قبل في فهم كلام الله، لكنَّه لا يقف بهذا المؤمن عند حدٍّ ما، بل إنه يزداد حيناً فحيناً.. وآناً بعد آن حتى يصل بالمؤمن إلى درجةٍ كافية لأن يدخل بصحبة رسول الله ﷺ على الله، فإذا بلغ هذا المؤمن تلك الدرجة السامية

---

١ - سورة فصلت: الآية (٤٤).

ودخل على الله بصحبة رسول الله ﷺ عندئذ يكون هذا الرسول الكريم لهذا المؤمن سراجاً منيراً يرى به الكمال الإلٓهي فيحبه ويهواه.

ويزداد به هذا الحب ويتسامى إلى أن يصل إلى درجة العشق فلا يستطيع أن ينفك عن خالقه، وبهذا العشق للكمال الإلٓهي تشتق النفس نوراً من الله تعالى ترى به الخير خيراً والشر شرّاً، وإنها لتمرُّ بهذا المؤمن ساعات تتكشف له فيها الحقائق. فإذا قرأ آيات الكتاب فعندئذ يرى بذلك النور الإلٓهي ما في أوامر الله تعالى من الخير والسعادة فيحبها ويرغب بها ويشكر الله تعالى على أن أمره بها، كما يرى فيما نهاه الله تعالى عنه ما استكنَّ فيه من الشر والشقاوة فيحذره ويتقيه ويشكر الله تعالى على أن نهاه عنه.

تلك هي التقوى في حقيقتها: إنما هي دخول على الله بصحبة رسول الله ﷺ ومشاهدة بذلك النور الإلٓهي المستَمد من الله ما في أوامره تعالى من الخير وما في نواهيه من الأذى والهلاك.

وإذا كان المؤمن يُدرك في المرحلة الأولى التي مرَّت بنا من قبل معاني الآيات ويفهم تأويلها فهو في هذه المرحلة مرحلة التقوى إنما يُدرك أسرار التشريع والحكمة الإلٓهية من تلك الأوامر التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ .

إن الصلاة على رسول الله ﷺ التي تكون سبباً في فهم المؤمن كلام الله تعالى في المرحلة الأولى هي التي تسمو به إلى المرحلة الثانية وتصل به إلى التقوى. ومن لم يُخالط قلبه حب رسول الله ﷺ ظلَّ بعيداً عن الله، بعيداً عن أن يمسَّ معاني آيات الله تعالى أو يدرك حقائقها، قال تعالى:

{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [١]

أما وقد عرفنا طرفاً مما تُشير إليه كلمة **(الم)** التي بدأ الله تعالى بها هذه السورة الكريمة فلننتقل إلى الآيات التي تليها والتي أوردها الله تعالى في حق أولئك الذين تتطلَّب نفوسهم الوصول إلى التقوى بادئين بتأويل الآية الأولى وهي قوله تعالى:

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} فنقول:

كنا قد بيَّنا في تأويل **(الم)** معنى التقوى والله تعالى في هذه الآية الكريمة إنما يُخاطب رسوله الكريم بقوله:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ) أي: هذا الكتاب الذي بإقبالك علينا وبناء على الصفات العالية التي نلتها طُبع في نفسك الكتاب وكُتبت حقائقه فيها، ثم جاءك به الوحي شيئاً فشيئاً وبلَّغناه لعبادنا على لسانك.

هذا الكتاب **(لاَ رَيْبَ فِيهِ)** أي: لا خروج فيه عن الحق.

وكلمة **(لاَ رَيْبَ)** مأخوذة من: راب. تقول: رابني الأمر، أي: أخرجني من طوْر إلى طور، من طور الطمأنينة إلى الاضطراب والشك، وهكذا فالريب هو الخروج، وهذا الكتاب الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله لا ريب فيه، أي: لا خروج عن طريق الكمال الإنساني، فكل ما فيه من دلالة وبيان إنما هو ضمن الكمال، ضمن المنطق، ضمن الحق وهو يبيّن لنا طريق الكمال الإنساني الذي إذا نحن سلكناه أدَّى بنا إلى الحياة الطيبة والسعادة الكاملة في الدنيا والآخرة.

---

١ – سورة التوبة: الآية (٢٤).

أما كلمة **(هُدىً)** فهي في الأصل تشمل كل ما يهتدي به الإنسان في الوصول إلى هدف معيَّن، فاللافتة تُنصب عند ملتقى الطرقات لتبيِّن وجهة الطريق، والمنارة البحرية يوقد فيها المصباح على ساحل البحر لتُعرِّف السفن بموقع المدينة، والدليل يحمله السائح بين يديه فيتعرف بما فيه من مصوَّرات وكتابة إلى الطرقات والمواقع الهامة في المدينة، كل واحد من هذه الأشياء إنما هو هدىً لصاحبه يهديه ويرشده إلى غايته.

وهكذا الكتاب الكريم المنزل على رسول الله ﷺ إنما هو:

(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ): طالبي التقوى، ولن يهتديَ به من لم يكن للتقوى طالباً، والتفكير شرط أساسي فإن فكَّرتَ عندها تطلب الخير الصحيح لنفسك: وما من مخلوق إلاَّ ويطلب الخير لنفسه، لكن الأعمى لا يميِّز بين النافع والضار والتقوى استنارة والتقي بصير.

والمتقين: مأخوذة من: اتَّقى، بمعنى: تجنَّب وردَّ. تقول: اتَّقيت ضربة عدوي بالترس، أي: تجنَّبتها ورددتها. واتَّقيت الوقوع في الحفرة بالمصباح، أي: تجنَّبت الوقوع وباعدت نفسي عن التردِّي فيها بواسطته.

والمتقي: هو الذي استنارت نفسه بنور خالقها فأصبحت كما رأينا من قبل ترى الخير خيراً والشر شرّاً. والمراد بكلمة **(لِلْمُتَّقِينَ)** المقرونة بهذه اللام في أولها أي الصادقين في طلب التقوى. فهذا الكتاب إنما هو هدى لهؤلاء، فهو يبيِّن لهم الطريق الموصل إلى التقوى ويعرِّفهم بأصولها فإذا هم اتَّبعوا تعاليمه واهتدوا بهداه وصلوا حتماً إلى بغيتهم وظفروا بمطلبهم.

وقد بيَّن لنا تعالى في الآيات التالية طريق التقوى فقال تعالى:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

وبتدبُّر هذه الآية الكريمة تبيَّن لنا أن أول خطوة يخطوها الإنسان في طريق التقوى هو الإيمان بالغيب. والإيمان هو المعرفة المبنية على نظر ومحاكمة واستدلال وكما سبق وقلنا وعلى سبيل الذكرى لا يعد مؤمناً رجل قيل له: إن التيار الكهربائي يجري في هذا السلك فأعاد القول وردَّده بلسانه دون أن يتحقَّق من وجود التيار بنفسه، وكل ما يتولَّد في نفسه من المعرفة عن طريق السماع إنما هو اعتقاد مبني على قول الآخرين وهذا الاعتقاد قد يتطرَّق إليه الشك فتجد هذا الرجل يتردَّد بين الشك واليقين والتصديق والتكذيب ولا يمكن أن يصل إلى الإيمان ما لم يبنِ معرفته على نظر ومحاكمة واستدلال. فإذا هو أشعل المصباح ورأى توهُّجه، أو حرَّك المفتاح فدارت المروحة الكهربائية أو ضغط الزر وسمع رنين الجرس فعندئذ يحكم حكماً فكرياً جازماً بوجود التيار وإن لم يره الآن لأن الفكر بناءً على ما أدركته الحواس من الآثار يحكم بوجود المؤثِّر. وهذا الحكم الذي يحكمه الإنسان بناءً على مشاهدة الآثار وبناءً على النظر والاستدلال إنما هو حكم جازم لا يتطرَّق إليه الشك في حال من الأحوال وهو الذي نُسمِّيه بالإيمان.

وهكذا فبين الاعتقاد والإيمان بون شاسع وفرق عظيم. فالاعتقاد يكون مبنياً على السماع من الآخرين والإيمان إنما ينبثق في النفس من ذاتها بناءً على مشاهداتها ومحاكمتها. ونعود الآن إلى الآية:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ..):

والتي هي أول خطوة نخطوها في طريق التقوى فنقول:

إن كلمة **(الإيمان بالغيب)** تتضمَّن معنييْن اثنين:

فكلمة **(الإيمان)** تُشير إلى الحكم الفكري المبني على المشاهدة والاستدلال، وكلمة **(الغيب)** إنما تُشير إلى شيء مغيب لا يمكن للإنسان أن يشاهده بعينه.

ولنستطيع الجمع بين المعنييْن نعود بك إلى المثال الذي أوردناه آنفاً بخصوص التيار الكهربائي فأنت لا تستطيع أن تشاهد التيار الذي يجري في السلك بعينك ولكنك تستطيع أن تحكم بوجوده حكماً فكرياً جازماً إذا شاهدت آثاره. فتوهُّج المصباح ورنين الجرس ودوران المروحة وشعاع المدفأة الكهربائية كل هذه الآثار تُثبت لك مرور التيار وتجعلك تؤمن بوجوده إيماناً غيبياً وإن لم تره بعينك.

وهكذا فكلمة **(الإيمان بالغيب)** تتضمن الحكم الجازم بوجود المؤثِّر بناءً على رؤية الآثار.

كما تتضمن أن الفكر الجازم يُقنع النفس ويقودها لمشاهدة المؤثِّر بعين البصيرة لا بعين الرأس أي البصر:

{... فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [١]

ويتضح بذلك لنا المعنى الكامل لكلمة **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)** أي: غاب عنهم الوجود الإلَهي والشهود الإلَهي فبحثوا فِكْراً وتيقيناً وطلبوه فوجدوه وآمنوا إيماناً شهودياً بوجوده تعالى. وفي الحديث القدسي:

«**ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء**»[٢].

ونعود لشرح الآية التي نحن بصددها فنقول:

إذا نظر كل واحد منا إلى ذاته وما قام عليه جسمه من تركيب بديع، وأمعن بالنظر في كل جهاز من هذه الأجهزة التي تقوم بوظائفها على أكمل وجه وأتم تنظيم، وإذا هو دقَّق في حاسة السمع أو البصر أو التذوُّق ونظر إلى ما هي

---

١ – سورة الحج: الآية (٤٦).

٢ –الزبور . إحياء علوم الدين: الجزء الرابع . ص٤٦٩ بلفظ: «من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني» فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

مجهَّزة به من أغشية وأعصاب وما هي عليه من التكوين الدقيق، ثم أرجع البصر إلى ما قبل سنين لمَّا كان جنيناً في بطن أمه وتساءل باحثاً عن من نظَّم هذا الجسم ذلك التنظيم وركَّبه ذلك التركيب وربَّاه تلك التربية من بعد أن كان نطفة لا يتميَّز فيها جزء عن جزء. فلا شك أن تفكيره يحكم بوجود مربٍّ نظَّم هذا التنظيم وركَّبه ذلك التركيب وربَّاه تلك التربية حتى أصبح مخلوقاً كاملاً وإنساناً سويّاً، فهو لم يخلق ولم ينظِّم جسمه بذاته ولا أبوه أو أمه خلقته من نطفة ولا أحد من المخلوقات، إذن لا بدَّ من وجود خالق، وهنالك تنشط نفس هذا الإنسان الذي فكَّر لتتجه للخالق الحقيقي وتطلب الوصول له والاتصال به.

وهنالك وفي أدوار الحمل والطفولة نقاط يستطيع الفكر أن ينتقل فيها خطوات فيُدرك من تربية مربِّيه معاني أدق ويتوصَّل إلى آفاق أبعد مدى وأوسع. كما لو أمعن النظر في الكيفية التي كان يتأمَّن معها تغذية الجنين في بطن أمه خلال تقلُّبه من طوْر إلى طوْر وإمداده بما يجعله ينمو يوماً بعد يوم حتى إذا ما تمَّ له النماء وخرج إلى هذه الدنيا وجد الغذاء في ثديي أمه محضَّراً معقَّماً متناسباً في حرارته وكميته مع الحاجة، متزايداً في معاييره الغذائية تزايداً مضطرداً مع ما يستدعيه نماؤه المتواصل وتقدُّمه في السن، موفوراً وجوده عند الحاجة.. فكلَّما جاع الطفل وجد وجبة الغذاء جاهزة في الثديين حاوية صنوف المواد الغذائية اللازمة على شكل دقيق. فإذا مضى على ذلك شهور وأضحى لبن الأم غير وافٍ بالمطلوب ظهرت الأسنان اللبنية لتعاون الثديين وتليها الأسنان الدائمة لتجهِّز الجسم بما يحتاجه من التغذية اللازمة. هل ذلك النظام الدقيق يجري لوحده أم صدفة؟. النظام لا بد له من منظِّم.

وهكذا إذا نقل الإنسان تفكيره في مجال أوسع ونظر في الكيفية التي يتوفَّر بها لهذا المخلوق ما يحتاجه من طعام وشراب وغير ذلك من الشرائط التي

تتوقف عليها الحياة، فلا شك أن تفكيره يقوده إلى معرفة أن التربية تقتضي التسيير الدائم لهذا الكون. فالطعام والشراب لا بد لتوفُّرهما من الرياح والأمطار وتشكُّل الفصول الأربعة المتوقِّف على دوران الأرض وتسيير الشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك من العوامل التي يضيق عنها الإحصاء.

فالمربِّي الذي يمدُّ مخلوقاته بما تحتاجه إذن هو المسيِّر الذي يدبِّر شؤون هذه المخلوقات وهو موجود حتماً معها، ولو كان هنالك مسيِّر غيره لفسد الكون واضطربت الحياة، فمن هو هذا المربي؟. وبالتالي من هو المسيِّر لهذه الكائنات؟. هل هو الكوكب، أم القمر الذي هو أكبر أم الشمس التي هي أكبر وأكبر بالنسبة لهذا الإنسان الباحث الرائي بأمِّ عينيه: ذلك بأن الإيمان الحقيقي شهود بعين البصر ثم بعين البصيرة التي بها اليقين والوصول إلى الحقيقة.

لا شك بأن الفكر السليم ينفي التسيير، وبالتالي ينفي التربية عن كل واحد من هذه المخلوقات، إذ كل واحد منها هو بحد ذاته مُسيَّر، محتاج للتربية والإمداد وخاضع لسنَّة كونية تجري عليه وتجعله منسجماً مع ذلك النظام العام الذي يجمع الكون كله. فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون، فالإله المسيِّر معها ومسيطر عليها يصل إليه طالبه بصدق وتفكير.

وإذا كان الفكر يحكم كما مرَّ بنا من قبل بوجود تيار كهربائي يحرِّك المروحة الكهربائية عندما نراها تتحرَّك ولا يقرّ بوجود حركة بدون محرِّك فلا شك أن حركة الشمس والقمر والأرض وغير ذلك من الأجرام الكونية وانسجام الكون كله وخضوعه لنظام واحد يقتضي وجود قوة عظيمة هائلة لا حدَّ لقدرتها وعظمتها تُهيمن على هذا الكون كله وتسيِّر كل موجود فيه فلا يخرج عن إرادتها مخلوق ولا يسير إلا بإذنها موجود، فهي المربية لهذا الكون وهي المسيِّرة التي لا

يخرج عن إرادتها شيء وهي التي خلقت وأوجدت كل مولود، فهي أصل الوجود وبها سَيْر الكون وعلى إمدادها يتوقف قيام الكون وبقاؤه ولعظمتها وَحْدَهَا تخرُّ الجِبَاه وتعنوا الوجوه، ولها وحدها تخشع القلوب وتسجد النفوس.. إنها حضرة الله وحده الذي لا إلّه إلا هو.

وهكذا فالحكم الفكري الجازم الذي تُذعن له النفس . مقرَّة . بناءً على النظر والاستدلال بوجود المربي وإن لم تره فهذا ما نسمِّيه الإيمان بالغيب. وهو كما رأينا على خطوات.. يبدأ الإنسان الخطوة الأولى بالإيمان بوجود المربي فإذا ما واصل التفكير قاده تفكيره إلى الإيمان بأن هذا المربي هو وحده المسيِّر الحكيم والخالق العظيم، فتستعظم النفس ربَّها وتلتفت بوجهتها الكليَّة وتحوِّل شعاعها عن الدنيا وأوضارها إليه تعالى فيشتبك شعاعها بنوره وتشاهد طرفاً من جلاله وعظمته وجماله وتخضع مذعنة لما رأته وشاهدته وتنتقل من الإسلام الفكري الجازم إلى الإيمان القلبي المشهود، الشهود اليقيني العلمي ويدخل الإيمان إلى قلب هذا الطالب للحق.. والإيمان هو أصل كمال الإنسان.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الوصول إلى الإيمان بالغيب الذي هو أصل التقوى وطريق المعرفة والذي عدَّه رسول الله ﷺ أول ركن من أركان الإسلام بقوله ﷺ :

«**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلّه إلا الله...**» ميسور لكل طالب وفي متناول كل إنسان، فهو لا يحتاج إلى كثير دراسة في الجامعات، ولا إلى تعلُّم العلوم اللغوية وملء الأذهان بفنون التفسير والفقه وعلم الحديث وأصول الاستنباط.

فإذا كان الإنسان صادقاً في طلب الحق ونظر كما رأينا في نفسه نظرة مشحونة بالتفكير فما أسرع ما يهديه فكره إلى مربِّيه الرحيم به، فإذا واصل تفكيره فإنه يصل إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله فيعلم أن لا مسيِّر لهذا الكون إلاَّ الله.

ونوجز القول عن إيمان **(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)** فنقول:

إذا فكَّر الإنسان بذاته دونما مرشد، بل استعان بفكره فقط، ونظر بصدق بالكون فإنه سرعان ما يستدلُّ فيؤمن بالغيب. يحصل هذا الإيمان عندما يفكِّر الإنسان ببدايته ونهايته، كيف خُلِق، ممَّ خُلِق، أين كان، كيف تدرَّج في الطفولة والنهاية ما آخر هذه الدنيا، مَن قَبله أين صاروا، ماذا حلَّ بهم!. عندها يهتدي فيصل للمربِّي، مَن المنعم الممدّ عندها ينتقل للمسيِّر:

من الذي يسيِّر الغيوم، الرزق والأمطار، عندها يؤمن بالمسيِّر بلا إلّه إلا الله.

وهذا العلم إنما هو شهود يقيني ذاتي ناشئ عن طلب منبثق عن نفس تبحث عن الحق والحقيقة اليقينية المجرَّدة عن الأهواء والتعصُّب والانحياز طلباً جدّياً للوصول بالفكر والأصول إلى صاحب الإحسان مَنْ خَلَقَ وأوجد وأنعم وتكرَّم بكل النعم والخيرات لتقابل صاحب الإنعام بالحمد والثناء، لتلاقيه فتشكره على جميل عطاياه وتكون ممَّن هم **{... بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}** [1] فتأنس به تعالى وتكون من بني الإنسان، إذ الإنسان هو من اتَّصل بربِّه فاستأنس به تعالى واستأنس بهذا الإنسان كل المخلوقات. وبذلك تتم الإنسانية وتصفو النفس من كافة الصفات البهيمية الحيوانية منها والشيطانية وتغدو إنسانية تأنس بالله ويأنس بها كل شيء.

فبالإيمان تتحقَّق الإنسانية الحقَّة.

---

١ - سورة الأنعام: الآية (١٥٤).

الإيمان كمال الإنسانية: هذه دعوتنا

نعم إن الإنسان سرعان ما يصل إلى هذا، ولو أنه كان راعياً في شعاب الجبال وسواء كان عربياً أم أعجمياً، إذ لا يختلف في قابلية الوصول إلى هذه المعرفة إنسان عن إنسان.

فهذا الكون العظيم كتاب مفتوح بين يدي جميع الناس، وهذا التفكير جهاز المعرفة مزوَّد به كل إنسان والأمر كله موكول إليك متوقف على صدقك، وذلك ما تقضي به العدالة الإلَهية وما يرضى به كلُّ ذي منطق صحيح وعقل سليم.

فإذا خطا الإنسان هذه الخطوة الأولى فعرف أن له مربّياً قديراً وإلهاً مسيّراً حكيماً، وخالقاً عظيماً بيده تصريف أمور الكون كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فهو حيثما التفت يرى الله معه فلا شك أن إيمانه هذا يجعله في حصن الاستقامة الحصين فلا يجرؤ على أن يؤذي نملة صغيرة، ولا أن يقول كلمة واحدة أو ينظر نظرة أو يخطو خطوة ما لم تكن خالية من إيذاء الخلْق وموافقة لرضاء الله، لأن الخلْق جميعاً هم نسيج هذه الحضرة الإلَهية العليَّة الرحيمة.

وهذه الاستقامة التي تتلو الإيمان بلا إلَه إلا الله والتي تحدَّثنا عنها في بحثنا هذا ينتج عنها عمل الصالحات، لأن الإنسان لا بدَّ له من الحركة والعمل فما دام لن يعمل السيِّئات فحتماً سوف يعمل الصالحات. فإنك تجد في القرآن الكريم كلمة **{آمَنُواْ}** مقرونة دوماً بكلمة **{وعَمِلُوا الصَالِحَاتِ}** لأن العمل الصالح من لوازم الإيمان ونتيجة من نتائجه.

فإذا آمن الإنسان بلا إلَه إلا الله واستقام على أمر الله وعَمِلَ الصالحات فلم يؤذِ أحداً من المخلوقات فعندئذ تتولَّد الثقة في النفس بأن الله تعالى راضٍ عنها باستقامتها وبعملها الطيِّب وهناك تستطيع أن تُقبل بوجهها على ربِّها وتتجه إليه

بكلِّيتها، وهذا ما يجعلنا نفهم معنى كلمة **(وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ)** الواردة في الآية الكريمة.

فإقامة الصلاة التي هي الخطوة الثانية في الطريق الموصل إلى التقوى إنما تتم بالاستقامة التي هي ثمرة من ثمرات الإيمان بالغيب.

وإذن فليست إقامة الصلاة تلك الألفاظ التي تماثل ألفاظ الأذان والتي يؤدِّيها المصلِّي قبل الصلاة المفروضة، فما هذه الألفاظ إلا مذكِّرات، وإن هي إلا لسان حال ذلك المؤمن الذي استقام على أمر الله فأقام بعمله الطيِّب الصلة بينه وبين خالقه وبكلمة "قد قامت الصلاة" يقول بنفسه:

إنني أشعر بتلك الصلة التي قامت في نفسي بيني وبين خالقي باستقامتي على أمره.

أما الصلاة فما هي إلا تلك الصلة المعنوية التي تشعر بها هذه النفس المؤمنة المستقيمة حينما تُقبل على ربِّها، تلك هي الصلاة في حقيقتها. وما هذه الأقوال والأفعال التي نؤدِّيها في صلواتنا إلا وسائل تخلي للنفس الجو وتقطع عنها المشاغل الدنيوية فتذكر خالقها وتصغي إلى آياته وأوامره التي يمليها سبحانه على رسوله الذي هو ﷺ إمامها في صلاتها، وهنالك تفهم تلك الآيات وتُدرك معانيها الجليلة فتكون هذه الآيات دليل لها في سلوكياتها في الحياة.

فإذا وقف الإنسان بين يدي خالقه مُقبلاً عليه وشعرت نفسه بتلك الصلة التي تحدَّثنا عنها وأدركت هذه النفس معاني آيات الله التي يتلوها عليه رسول الله ﷺ ، فقد صلَّى هذا الإنسان حقّاً، ومن لم يشعر بهذا الشعور أو الذوق النفسي الجميل الجليل أو الشهود العليّ ومن لم يدرك من المعاني شيئاً فصلاته صورة لا حقيقة. وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ :

«ليس للعبد من صلاته إلاَّ ما عقل منـها»[1].

وعنه ﷺ : **«ربَّ صائم ليسَ له من صيامه إلاَّ الجوع، ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلاَّ السهر»** [2]

أما وقد بيَّنا لك الصلاة الحقيقية التي يجب أن يصلِّيها الإنسان لتتسامى نفسه وتعرج في معارج الكمال، فلا بدَّ لنا من أن نبيِّن أثر هذه الصلاة في النفس وما تعود به على صاحبها من الخيرات فنقول:

إذا وقف الإنسان كما ذكرنا بين يدي خالقه مقبلاً عليه بكلِّيته فهنالك تصطبغ نفسه . والنفس كما نعلم كالمرآة الصافية . بصبغة من الكمال الإلّهي، فتتشرَّب الرأفة والرحمة والعدل والحلم والحكمة وغير ذلك من الكمالات السامية ما يتناسب مع وجهته إلى خالقه وإقباله على ربِّه:

{صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [3]

وبهذا تجد هذا المؤمن قد أصبح إنساناً إنسانياً حقّاً شفوقاً على الناس، رحيماً بالخلْق، شغوفاً بالإحسان.. سانحاً الفرص لبذل المعونة للمخلوقات والإنفاق مما آتاه الله من علم أو مال أو قوة أو جاه ساعياً وراء تطبيق تلك الأوامر التي تلقَّاها في صلاته وقد سمعها من الله تعالى يتلوها على رسوله. ولذلك ذكر تعالى في الآية الكريمة بعد كلمة **(وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ)** كلمة **(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)** ليُعرِّفنا أثر الصلاة في صلاح الفرد والمجتمع، إذ يخرج المؤمن من الصلاة وقلبه قد امتلأ رحمةً وحناناً على خلْق الله، تلك هي الصلاة في حقيقتها وليبيِّن لنا أن

١- كنز العمال: ج٣ . ص٣٨٢

٢ –الجامع الصغير (٤٤٢٨) سنن ابن ماجة عن أبي هريرة.

٣ – سورة البقرة: الآية (١٣٨).

الصلاة الحقيقية ثمرتها فعل المعروف ومدّ يد المعونة لكل مخلوق، ومن لم تصل به صلاته إلى هذه الغاية السامية من فعل المعروف والإحسان للخلْق فذلك دليل على أنها خالية من الوجهة إلى الله تعالى، أو بالأحرى غير مبنية على ذلك الركن الأساسي من الإيمان بالغيب، فما عليه إذن إلا أن يسعى وراء الحصول على الإيمان حسبما بيَّناه آنفاً.

* * *

ونُلخِّص الخطوات التي بيَّناها من قبل والتي انطوت عليها الآية الكريمة التي نحن بصددها فنقول:

١. الإيمان بالغيب يولِّد في النفس الخشية إذا اهتدت كما اهتدى سيدنا إبراهيم ﷺ ويحملها على الاستقامة على أوامر الله تعالى.

٢. الاستقامة تبعث في النفس الثقة برضاء الله عنها وبذلك تستطيع أن تُقبل عليه تعالى بوجهها وتصلِّي صلاة حقيقية. فالاستقامة تجعل المرء يصلِّي، إذ لا يحجبه عمل سيء عن الله حتى أنه لا يجرؤ أن يؤذي نملةً.

٣. الصلاة الحقيقية تولِّد في النفس الكمال من الله تعالى وتجعل الإنسان شغوفاً بعمل الخير محبّاً للإنفاق مما آتاه الله، فيغدو إنساناً إنسانياً همُّه نفع الخلْق وهدايتهم كما اهتدى، والخلق كلهم عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله.

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

عندها وبهذه الصلاة يفعل المعروف، يُنفق من قوَّته، من ماله ومن جاهه، بل من كل ما آتاه الله، عندها وبهذه الصلاة يصبح كاملاً: إن فعل ذلك فبما اشتقَّ من كمالٍ يقدِّر أهل الكمال فيرى ببصيرته رسول الله ﷺ ويحبُّه فيُقبل على الله بمعيَّته.

وتلك هي الخطوات الثلاث التي يخطوها من يريد الوصول إلى التقوى، أي: الاستنارة الدائمية بنور الله تعالى ورسوله ﷺ :

الخطوة الأولى: خطوة الوصول إلى الإيمان بالغيب تجعل الإنسان في حصن الاستقامة المنيع. فحيثما التفت وأنَّى توجَّه وجد أن الله تعالى معه محيط به وناظر إليه.

وفي الخطوة الثانية: تحط النفس المستقيمة رحالها في حضرة خالقها واثقة برضائه عنها وبذلك تحصل لها الصلة به تعالى وبهذه الصلة تشتق الكمال منه تعالى وتصطبغ بصبغة الكمال وتحب أهل الكمال.

وفي الخطوة الثالثة: تنطلق هذه النفس المصطبغة بصبغة الكمال في طريق الإحسان منفقة مما آتاها الله وبذلك تزداد ثقتها برضاء الله عنها وتزداد إقبالاً عليه تعالى واصطباغاً بالكمال إلى أن تصل إلى درجة تجعلها تقدِّر سيِّد الكاملين وأعني به رسول الله ﷺ تقديراً فائقاً وتهيم به حبّاً فتدخل بمعيته على الله ويكون لها ﷺ سراجاً منيراً ترى به الكمال الإلّهي فتحبه وتعشقه وبهذا تستنير بقبس من نور الله فترى الخير خيراً والشر شرّاً، وتلك هي التقوى وذلك هو طريقها كما أشارت إليه الآية الكريمة التي نحن بصددها وهي قوله تعالى:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

إنَّ هذه الطريق الموصلة إلى التقوى والتي فصَّلنا في بحثنا عنها على حسب ما أشارت إليه الآية الكريمة السابقة هي الطريق التي سلكها سيدنا إبراهيم ﷺ من قبل فكان أسوة لمن بعده في التحرُّر الفكري من الاعتقادات الموروثة الباطلة، ومثلاً أعلى في البحث العلمي سعياً وراء الوصول إلى الحقيقة. كما أعلن تعالى عن هذه الحقيقة الساطعة بقوله:

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [١]

فقد قرَّر القرآن الكريم أن يُبيِّن لنا كيف تحرَّر سيدنا إبراهيم ﷺ من عقيدة الوثنية التي درج عليها الآباء والأجداد من قبل والتي تخالف تعاليم النهج الإلٓهي ما دام الإنسان قد أُعطي من التفكير ما أُعطيه أبوه وسائر الناس أن يفكِّر كما فكَّر سيدنا إبراهيم ﷺ وأن يبحث عن الحقيقة فلا يكون كالحيوان الأعجم مسوقاً لغيره تتلاعب به الضلالات وتتقاذفه الأوهام.

وهي الطريق التي سلكها سيدنا محمد ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم.. وهي الطريق التي سلكها أهل الكهف نوَّامه فكانوا مثلاً لكافة البشر كما سلكها كثير من المؤمنين ممن لم يجتمعوا بمرشد يرشدهم ولا هادٍ يهديهم فكان صدقهم في معرفة الحقيقة رائدهم وكانت الجوهرة وأعني بها الفكر الذي تفضَّل الله تعالى به عليهم وعلى الناس جميعاً عوناً لهم في البحث عن معرفة خالقهم ومربِّيهم.

وتلك هي الطريقة العامة التي يستطيع أن يسلكها كل إنسان فيصل منها إلى التقوى لا فرق في ذلك بين عصر وعصر وجيل وجيل وزمان ومكان وإنسان وإنسان.

---

١ – سورة الزخرف: الآية (٢٣–٢٨).

وهنالك طريقة ثانية تصل بصاحبها إلى التقوى أيضاً ولا تختلف عن الطريقة السابقة في شيء إلاَّ في مبدئها.

فإذا كان الذين سلكوا طريق التقوى ممن تحدَّثنا عنهم آنفاً لم يجتمعوا بمرشد يرشدهم ولا هادٍ يهديهم كأصحاب الكهف فهنالك أناس قيَّض الله تعالى لهم أن سمعوا مناديَ الإيمان يناديهم فانتبهوا من مرقدهم وأعملوا تفكيرهم فيما سمعوه من القرآن فنظروا فيه ووجدوه كله ضمن المنطق العالي الرفيع فاتَّبعوه، فكَّروا واهتدوا، وقاموا يبحثون مدقِّقين في هذا الكون حتى اطمأنت نفوسهم للإيمان فعرفوا خالقهم وصدَّقوا رسوله فيما جاءهم به عن ربِّهم واتَّبعوا النور الذي أُنزل معه علماً منهم بأنه لا بد لهم من يوم يُجزَونَ فيه على أعمالهم وبذلك ساروا جنباً إلى جنب في طريق التقوى مع أولئك الذين تحدَّثت عنهم الآية السابقة، فقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم:

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}:

نظر في دلالة الرسل فعرف أنهم كلهم على حق.

{وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}:

التفكير بالموت هو الخطوة الأولى. ما دامت نفسك بعيدة عن فكرك فإن فكرك لا يهتدي. بالخشية من الموت تُسَلِّم النفس زمامها للفكر وتضرب أشعتها على الفكر فترى النفس الآيات وممدَّها جلَّ وعلا وتؤمن بالآخرة عن شهود.

{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ}:

فهؤلاء يصلون لمعرفة المربِّي، الطرفان الذي فكَّر بنفسه من ذاته والذي سمع من الرسول الكريم، إن فكَّر كلٌّ منهما بالموت فاجتمعت نفسه عندها يفكِّر بالدلالة فيهتدي للحق.

{وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}:

إذن فإن معرفة المربِّي إنما تكون بالنظر بالنهاية "بالتفكير الجدِّي بالموت"، فإن خشي الإنسان عندها يفكِّر فتقترن نفسه مع فكره عندها يعرف المربِّي وينال الخيرات.

وقد جاءت كلمة (**أُوْلَئِكَ**) جامعة كلا الفريقين، إذ لا فرق بين امرئ فكَّر بذاته وبحث حتى توصَّل إلى الحقيقة وآخر ذكَّره مذكِّر وأيقظه موقظ فثاب إلى رشده وما زال جادّاً في بحثه حتى وصل إلى ما وصل إليه الأول.. فهُما فيما وصلا إليه سواء وكلاهما على هدىً من الله وأولئك هم المفلحون.

وتفصيلاً لآية:

{**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} نقول:

إذا توصَّل الإنسان إلى الإيمان بالغيب فعرف مربِّيه الذي يمدّه بالحياة والذي لا ينقطع إمداده طرفة عين، فهو دوماً معه أينما سار وتحوَّل يشاهده في كل حركة من حركاته فلا شك أن إيمانه هذا يولِّد في نفسه الخشية ويحمله على الاستقامة فهو على هدىً من ربِّه أي: سائرٌ في طريق الحق بسبب هذه الخشية التي ولَّدها في نفسه إيمانه بأن مربِّيه دائم الإمداد له والنظر إليه.

ذلك ما نفهمه من كلمة: {**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ..**}.

وسواء في ذلك الذين سلكوا طريق الإيمان بذاتهم والذين سمعوا مناديَ الإيمان فاستجابوا لندائه وآمنوا بربِّهم. فكل من آمن حقّاً بمربِّيه فلا شك أن إيمانه يجعله يسير في طريق الحق لا يخرج عنه ولا يحيد.

وتوضيحاً لكلمة {**.. وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} نقول:

الْمُفْلِحُون: مأخوذة من أفلح، تقول: أفلح فلان، أي: أصبحت نفسه طيبة مهيأة لفعل الخير ومنه كلمة (**فلح**). تقول: فلح المزارع الأرض أي: حرثها

وعرَّض تربتها للشمس والهواء وقد أضحت صالحة وأهلاً لأن تنبت فيها المزروعات.

وهكذا فكلمة **{.. وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** إنما تبيِّن لنا أن الذين ساروا في طريق الحق وأصبحوا على هدىً من ربِّهم هم المفلحون، أي: هم الذين أصبحت نفوسهم طيِّبة طاهرة وأهلاً لأن يصدر عنها كل خير وينبعث منها كل إحسان، إذ باستقامتهم على أمر ربِّهم تتولَّد في نفوسهم الثقة بأن الله تعالى راضٍ عنهم، وهنالك يقبلون على خالقهم وبهذا الإقبال تطهر نفوسهم مما بها من أدران وتغدو طيِّبةً صالحة لكل خير وأهلاً لأن يصدر عنها كل معروف وإحسان.

وهكذا فالإيمان الصحيح يجعل من الإنسان إنساناً كاملاً ومن لم يتعرَّف إلى خالقه ظلَّت نفسه دنيئة منحطة مليئة بالخبث والأدران.

قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}[١]

* * *

ننتقل الآن بعد أن بيَّنا معنى الإيمان والطريق الموصلة إليه إلى شرح الآيتين التاليتين اللتين وصف تعالى بهما أحوال الكافرين:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} فنقول:

---

١ – سورة البيِّنة: الآية (٦-٧).

ليست كلمة (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعني الذين أنكروا وجود الخالق. فقد يُقرُّ الشخص بوجود الخالق ويعترف به أو يخاطبه في نفسه طالباً منه بعض المطالب ومع ذلك يكون متلبِّساً بالكفر منغمساً فيه.

فهذا إبليس لم ينكر وجود خالقه ولم ينكر التربية ولا الوحدانية وهو مع هذا كله أول الكافرين. وقد أشارت الآيات الكريمة إلى اعتراف إبليس بخالقه في قوله تعالى:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (١)

كما أشارت الآية الكريمة الآتية إلى اعتراف إبليس بوحدانية خالقه في قوله تعالى:

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (٢)

واليهود الذين عارضوا الرسل ودسُّوا الدسائس، ودبَّروا المؤامرات لردِّ الحق وصفهم الله تعالى بالكفر في مواضع كثيرة من القرآن من ذلك قوله تعالى:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ...} (٣)

ولو أنك تتبعت أحوال هؤلاء اليهود وما ورد في حقِّهم من الآيات الكريمة لوجدتهم يعترفون بخالقهم تمام الاعتراف وقد وعدهم الله تعالى النار خالدين فيها رغم ما أبدوه من الاعتراف بوجود الخالق والاعتقاد بالآخرة والجنة والنار.

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١١–١٢).

٢ – سورة ص: الآية (٨٢–٨٣).

٣ – سورة الحشر: الآية (١١).

ووصف تعالى الذين أشركوا بالله أيضاً بالكفر فقال تعالى:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ...} [1]

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...} [2]

وهكذا فليس يقتصر معنى كلمة "الكافر" على الذي يُنكر وجود الخالق، بل يتعداها ليشمل كثيرين من المقرِّين بوجود الخالق المعترفين به.

والكافرون عامة إلاَّ ما ندر يُقرُّون بوجود الخالق، غير أن إقرارهم هذا لا يجديهم نفعاً ولا يخرجهم من دائرة الكفر ولو أنهم ذهبوا إلى المعابد وحبسوا أنفسهم في الصوامع وتزيُّوا بزي أهل التقوى والصلاح وما ذلك كله بمغنٍ عنهم ولا بمخرجهم من الكفر.

* * *

ما هو الكفر يا ترى؟.

الكفر: هو الستر، تقول: كَفَرَ فلان درعه بثوبه، أي: ستر درعه وغطَّاه بثوبه فلبسه فوقه. وتقول: كَفَرَ الليل المدينة، أي: غطَّاها وسترها بظلامه فلم تعد تتبيَّن للناظر.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الكفر لا يعني إنكار وجود الشيء إنما عدم رؤيته واحتجابه عن النظر بسبب وجود مانع يمنع من مشاهدته.

والكفر على أنواع:

---

١ – سورة المائدة: الآية (٧٣).

٢ – سورة المائدة: الآية (١٧).

كفر بالخالق الموجد، وكفر بالتربية، وكفر بالألوهية والوحدانية في التسيير، وكفر بالرحمة والحنان الإلّهي، وكفر بنعمة الله وفضله، وكفر بعدل الله، وكفر بآياته الدالة على أن سَيْر الكون كله بيده تعالى إلى غير ذلك من أنواع الكفر.

فالكافر بخالقه: هو الذي لم تشاهد نفسه أنَّ الله تعالى هو الذي خلقه وخلق الكون كلَّه، ولذلك تراه ينسب الخلق والإيجاد تارة إلى الطبيعة وتارة إلى أشياء أخرى. قال تعالى:

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ} (١)

والكافر بربِّه: هو الذي لا يرى أن الله تعالى هو ممدّه بالحياة ومربِّيه، وأنه لو انقطع عنه هذا الإمداد طرفة عين لزال من الوجود، بل يظنُّ أن الله تعالى خلقه وتركه وشأنه على وجه الأرض يدبِّر شؤونه بنفسه ويكسب رزقه بذاته ولذلك تراه يغش ويكذب ويتلاعب في بيعه ومعاملاته سعياً وراء كسب القوت وظنّاً منه أنما يرزق نفسه بسعيه وجدِّه.

والكافر بالألوهية: هو الذي لا يرى التسيير الإلّهي لهذا الكون، بل ينسب الحوادث الكونية إلى الطبيعة أو يعلِّلها ببعض التعاليل السخيفة وهو لا يرى العدالة الإلّهية تدير الخلْق وتُهيمن على الناس، بل يرى أن فلاناً تجاوز على فلان وبغى عليه وهو يتذمَّر من زيد ويشكو عَمْرواً ويتربَّص بفلان وينافق لفلان، ولو أنه آمن بلا إلّه إلا الله وعلم أنَّ السير كله بيد الله لوجد أن الكون كله إنما تسيِّرهُ يد العدالة الإلّهية وأن كل واحد إنما ينال حقّه ويُجزى على عمله، وما

---

١ - سورة الطور: الآية (٣٥-٣٦).

الناس كلهم إلاَّ صورٌ ووسائط ولا يقع في هذا الكون واقع إلاَّ بأمر الله ومن بعد إذنه..

وفي الحديث الشريف من وصية الرسول ﷺ لابن عمه عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما:

«.. واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيءٍ لمْ ينفعوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوكَ بشيءٍ لمْ يضرُّوكَ إلاَّ بشيءٍ قدْ كَتَبَهُ اللهُ عليكَ..» [1] .

وفي حديث آخر: **«إنَّ لكلِّ شيء حقيقة، وما بَلَغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابهُ لم يكنْ ليُخطئهُ، وما أخطأه لم يكنْ ليُصيبهُ»** [2]

قال تعالى: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ}** [3]

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [4]

أما الكافر بالرحمن: فهو الذي احتجبت نفسه عن رؤية الرحمة الإلَهية التي شملت الخلْق عامة، فهو لا يرى أن الله تعالى رحيم به لذلك تجده يتألم لأبسط الحوادث التي تحلُّ به وينسب الظلم إلى الله ولو أنه آمن برحمة الله لاستسلم لله في كل ما يصيبه ولعرف أنه كله من الله تعالى فضل وعناية ولَحَمَدَ الله تعالى

---

١ –رواه الترمذي

٢ –رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.

٣ – سورة آل عمران: الآية (١٦٥–١٦٦).

٤ – سورة فاطر: الآية (٢).

على كل حال من أحواله، وفي الأثر أن رسول الله ﷺ كان إذا جاءت الأمور وفق رغبته قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، وإذا جاءت بخلاف رغبته قال: «**الحمد لله على كل حال**».

وهكذا فالكفر على أنواع وهي كلها تؤدي لنفس النتيجة، لأن احتجاب النفس عن رؤية أي اسم من أسماء الله تعالى إنما يحوِّل النفس بالكلية عن الله. فإذا هي لم ترَ الكمال في شيء تحوَّلت وانصرفت محتجبة عنه، وعلى وجه المثال نقول:

قد أكون ملتفتاً بنفسي إلى امرئ كل الالتفات لما أراه فيه من كمال فإذا ما حدَّثني شخص عن نقيصة من نقائصه.. فلا شك أن نفسي بمجرَّد ركونها إلى هذا القول تتحوَّل عن هذا الشخص وتُعرض ولا تعود ترى شيئاً من كمالاته ما لم يُمحَ أثر هذا القول منها إما بالتحقيق من كذب القائل أو الوقوع على الحقيقة ورؤية الكمال.

وهكذا فالكمال كلٌّ لا يتجزَّأْ، فالذي لا يرى العدل الإلَهي جارياً على الخلْق كافر لأنه بمجرَّد عدم رؤيته العدالة الإلَهية تتحوَّل نفسه عن الله وينقطع عن الوجهة إليه. والذي لا يؤمن بلا إلَه إلا الله ولا يرى أن الحول والقوة والسير كله بيد الله كافر لأنه بعدم رؤيته أن الفعل بيد الله وزعمه أن لأحدٍ فعلاً مع الله يتحوَّل أيضاً عن الله. وكذلك إنكار أي اسم من أسماء الله يؤدِّي بصاحبه إلى الكفر.

ونعود الآن إلى الآيات التي ذكرها الله تعالى لنا عن إبليس فنقول:

لقد اعترف إبليس بوجود خالقه ووحدانية الخالق وتربيته حين كان يقول مخاطباً الإلَه بلفظ: {رَبِّ}، غير أنه كفر بالألوهية فزعم أن له فعلاً مع الله وأن باستطاعته إغواء الخلْق، إذ قال ما بيَّنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [1]

كما كفر بعدل خالقه:

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [2]

وكفر برحمة الله، إذ نسب الإغواء إلى الله:

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [3]

ويجتمع مع إبليس في الكفر كل معترف بوجود الخالق منكر أيَّ كمال من كمالات الله تعالى أو ملحد في اسم من أسمائه قال تعالى:

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [4]

{وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [5]

وقال ﷺ : «**إن لله عزَّ وجل تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنَّة**»

ولا شك أن رسول الله ﷺ إنما يعني بقوله: «**من أحصاها**» أي: من جمعها في نفسه مطمئناً إليها متحقِّقاً منها، وكل امرئ أَعرَفُ بنفسه وما استقرَّ فيها من التحقُّق من كمالات الله ولو أنه قال بلسانه ما قال وتظاهر بما تظاهر.

والآن وبعد أن بيَّنا معنى كلمتي "الكفر والإيمان"، لا بد لنا من بيان سبب الكفر فنقول:

---

١ – سورة ص: الآية (٨٢).

٢ – سورة ص: الآية (٧٦).

٣ – سورة الحجر: الآية (٣٩).

٤ – سورة يوسف: الآية (١٠٦).

٥ – سورة الأعراف: الآية (١٨٠).

كل مولود أيّاً كان إنما يولد ونفسه خالية نقية كالصفحة البيضاء ليس يدنِّسها كفر ولا يزيِّنها إيمان وإلى ذلك أشار ﷺ :

«كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ..»[1]

فإذا ما بدأ الطفل يجاوز سنيّ الطفولة فهنالك يبدأ الأبوان بتوجيهه فيلقِّنانه المبادئ الأولى لدينهما فيتقبلها تقبُّلاً ثقة منه بهما واعتماداً على إخلاصهما وحبّهما له، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله في الحديث الشريف:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنه لسانه، فأبواه يهوِّدانهِ أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» [2]

وما يزال الطفل سائراً بدلالة أبويه حتى يصل إلى سن البلوغ وهي السن التي ينضج بها التفكير ويصبح الإنسان قادراً على التوصُّل للحقيقة والتمييز بين ما يسمعه من أقوال. فإذا هو نظر في نفسه كما قدَّمنا آنفاً عندما تكلَّمنا عن كيفية الوصول إلى الإيمان وأعمل تفكيره طالباً التوصُّل إلى معرفة خالقه ومربِّيه فما أسرع ما يهتدي إلى الحق والدين الصحيح.

وإن هو مال إلى الدنيا وشهواتها واطمأنت نفسه إليها فهنالك تعمى بصيرته وتنسد على تفكيره منافذه وتحجبه الشهوة عن الوصول إلى الحقيقة. وقد عرَّفنا تعالى بأن احتجاب النفس عن خالقها إنما هو بسبب انغماسها في شهواتها بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [3]

وقال ﷺ : **«حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»**[1].

---

١ –الجامع الصغير /٦٣٥٦/ (ع طب هق) (صح).

٢ –الجامع الصغير: /٦٣٨١/ (ع طب هق).

٣ – سورة المطففين: الآية (١٥).

وقد بيَّن لنا تعالى أن الإيمان والكفر صفتان عارضتان هما من كسب الإنسان في هذه الحياة كما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٢)

أي: منكم أنتم لا من الله فكل من لم يعظِّم الله لأنه لم يفكِّر هذا هو الكافر، نفسه شردت بالدنيا بهذه وبهذه، لذا لا يؤمن: إن لم توقن بالموت نفسُك تبقى شاردة، لكن إذا أيقنت بالموت اجتمعت نفسك مع فكرك وعادت إلى الحق. لا كما يتقوَّل بعض الزنادقة أن ذلك من الله منذ الأزل، إذ أخذ قبضة من نور وقال هذه إلى النار ولا أبالي وقبضة أخرى من النور فقال هذه إلى الجنَّة ولا أبالي، فرغَ ربُّكم، فأهل النار للنار، وأهل الجنَّة للجنَّة. فهذا القول الخبيث المدسوس لا أصل له، وكلام الله تعالى بهذه الآية ينسفه نسفاً.

كذلك الإيمان مكتسب وهو نتاج سعي الإنسان الذاتي لمعرفة الله:

{وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}.

{... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...} (٣)

إذن فالمشيئة مشيئتك يا إنسان ولك الخيار وعليك التبعة والمسؤولية والنتاج.

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} (٤)

وهكذا فسبب الكفر على حسب ما فصَّلناه إنما هو ناشئ عن ميل النفس إلى الدنيا وانصرافها عن التفكير بآيات الله، قال تعالى:

---

١ –رواه البيهقي

٢ – سورة التغابن: الآية (٢).

٣ – سورة الكهف: الآية (٢٩).

٤ – سورة الإنسان: الآية (٣).

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[1]

وما دام الإنسان بعيداً عن التفكير بآيات الله وما دام منغمساً في دنياه فهو بعيد كل البعد عن الإيمان بالله. قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [2]

وزيادة في إيضاح هذه النقطة الهامة التي نحن بصددها وأعني بها التفكير بآيات الله توصُّلاً إلى الإيمان بلا إلَه إلا الله نقول:

هب أن رجلاً لم يذق في عمره العسل ولم يره في يوم من الأيام وأردنا أن نعرِّفه به فذكرنا له أن العسل لزج، وأنه حلو لذيذ وأنه ذو لون أشقر وأنه وأنه.. وبعد وصف طويل هل تظن أن الرجل يدرك طعم العسل الحقيقي ويعرف مذاقه، أم تراه يظن أن العسل كالدبس؟. نعم إنه لا يستطيع أن يقع على الحقيقة، بل يظل محجوباً عنها ما لم يذق بذاته طعم العسل ويعاينه بنفسه وكل ما يستطيع أن يدركه من الوصف قبل الذوق والعيان إن هو إلاَّ مجرَّد تصوُّرات وخيالات وأوهام وإن الظن لا يُغني عن الحق شيئاً وليس الوصف كالمشاهدة، ولا البيان كالعيان.

وهكذا فالذي يسمع عن الله تعالى ما حدَّثته به أمه وأبوه ويسمع عن رحمة الله وعدله وقدرته وحكمته ما يقوله الآخرون ولا يتعرَّف هو بذاته إلى خالقه بإيمانه الذاتي المنبثق عن بحثه للوصول لله تعالى وشهود وجوده وأيّاً من أسمائه تعالى الحسنى، فليس كل ما يسمعه بمغنٍ عنه شيئاً ولا بناقل إيَّاه من جو

---

١ - سورة يوسف: الآية (١٠٥).

٢ - سورة النحل: الآية (١٠٤).

الجهالة والبعد عن الله إلى جو المعرفة والعلم بأسماء الله، ولو أنه صرف العمر كله يسمع من فلان ويجتمع إلى فلان، ويقرأ في كتاب، إذ لا يُغني البيان عن العيان ولا السماع عن الشهود، كما لا يُغني الظن النقلي عن اليقين الذاتي.

وإذا أنا لم أشاهد صنعة صانع وآثاره ومنتجاته الفنية فكيف أستطيع أن أحكم في نفسي بمهارته وعظيم مقدرته وعالي مكانته؟. وهل أجد له في نفسي من المنزلة ما يرفعه ويسمو به على غيره، والنفس من قوانينها أنها لا تطمئن إلا إذا واجهت الحقائق وعاينتها بذاتها. وإذا أنا لم أجلس منفرداً وحدي متسائلاً في نفسي قائلاً:

من الذي أخرجني إلى هذا الوجود وما كنت قبل حين من الدهر شيئاً مذكوراً؟. من الذي فطر وجهي وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره؟. من الذي جعل في جسدي الشرايين والأوردة وأعصاب الحس والحركة؟. من الذي جعل القلب مجوَّفاً منقسماً إلى غرف أربع وجعله يتحرَّك منقبضاً منبسطاً بصورة منظَّمة؟. من الذي جعل الدماغ محفوظاً في تلك العلبة الصلبة القاسية؟. من الذي جعل النطفة في ذلك الماء المهين التي تستقر في رحم الأم مدة معيَّنة ثم تخرج بعد حين إلى هذا الوجود على هذه الصورة الكاملة؟.

أقول: إذا أنا لم أفكِّر هذا التفكير ولم أُسائل نفسي هذه الأسئلة، فكيف أستطيع أن أعرف خالقي وموجدي؟. إذ لكل وجودٍ موجد.

وإذا أنا لم أفكِّر في سَوْق الغذاء إلى جسمي بنسب معيَّنة إلى كل عضو من الأعضاء عندما كنت في بطن أمي جنيناً، ثم لم أنظر في اللبن الذي كان يُحضَّر لي فترة بعد فترة في ثديي أمي بعد ولادتي فوراً؟. ولم أدقِّق في هذا النظام الكوني القائم الذي يتأمَّن معه نزول رزقي من السماء وخروجه من الأرض وأنا لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ولا أستطيع لها رزقاً، فكيف أصل إلى

معرفة ربِّي الذي أمدَّني ويمدّني بصورة متواصلة؟. وهل تراني أعرف قدرة القدير إذا أنا لم أفكِّر في هذا الخلق الذي قام عليه جسمي البديع وما هو عليه من تركيب دقيق؟. أم كيف أقدِّر العظمة الإلّهية إذا أنا لم أُرجع البصر إلى دوران الأرض وسبحها بنظام مع ملايين الملايين من الكواكب والنجوم في هذا الفضاء وزنة كل واحد من هذه الأجرام لا يعلمها إلا الموجد الذي أوجدها وجعل فيها ما جعل من قوى وتأثيرات وإشعاعات؟.

وإذا أنا لم أجعل نظري في موضع العينين من الجسد وما يحفظهما من أجفان وأهداب ولم أتساءل عن موضع يديَّ في جسدي وما هما عليه من طول وتقسيمات وشكل مناسب يتفق مع ما أقوم به من أعمال مختلفة، فكيف أستطيع أن أدرك حكمة الحكيم وعلم العليم الذي أوجدني وصوَّرني وبرأني على هذا الكمال؟.

وهكذا فأنا في هذا الكون آية وكم في هذا الكون من آيات تدلُّ كلها على علمٍ وحكمةٍ وقدرةٍ وعظمةٍ، فالجبال في عظمتها وكم هو عظيم من ألبسها تلك العظمة.. تشهد بوجود خالق عظيم وموجد حكيم ورب رحيم و إلّه مسيِّر قدير لا يستطيع أن يعرفه إلاَّ كلُّ ذي لب وصاحب تفكير، ولا يخشع له إلاَّ من عرفه وأدرك طرفاً من عظمته. ومن أعرض عن هذا النظر والتفكير فهو بعيد كل البعد عن معرفة ربّه، محجوب عن إدراك عظمته تعالى ورحمته وجميع كمالاته، بل هو إلى الكفر أقرب منه للإيمان:

{وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ...}.

والله تعالى يُري ملكوته كل راغب صادق ويهدي إليه كل طالب منيب. قال تعالى:

{... إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [١]

تلك هي طريق الإيمان بالنظر والتفكير بآيات الله وعلى صدقك أيها الإنسان يتوقف دخولك في ميادين المعرفة والإيمان.

{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [٢]

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [٣]

هذا وإن ما أورده الله تعالى عن الأقوام السابقة ممن عارضوا رسل ربِّهم رغم ما جاءتهم من معجزات من أكبر الدلائل على أن الكفر لا يزيله من النفس رؤية الخوارق ولا المعجزات، وإنه ليس يُخلِّص الإنسان من الكفر وينقله إلى الإيمان إلاَّ شيء واحد ألا وهو إعمال الفكر والتأمُّل في هذه الكائنات مع اليقين بالموت والخشية منه أو الإصغاء المقرون بالتفكير إلى نداء المنادي يدعو الإنسان إلى الإيمان، ليصل به إن كان صادقاً للشهود.

فالنار كانت على سيدنا إبراهيم ﷺ برداً وسلاماً وما زاد ذلك قومه إلاَّ كفراً وعناداً.

وخروج الناقة من الصخرة معجزة لسيدنا صالح ﷺ ما جعل قومه يعظِّمونه في شيء، بل ما كان منهم إلاَّ أن قالوا ما أنت إلاَّ بشر مثلنا، ثم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربِّهم وقالوا:

{... يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [٤]

وما كان من فرعون لمّا أُلقي السحرة ساجدين إلاَّ أن هدَّدهم بقوله:

---

١ - سورة فاطر: الآية (١٩-٢٢).

٢ - سورة العنكبوت: الآية (٦).

٣ - سورة العنكبوت: الآية (٦٩).

٤ - سورة الأعراف: الآية (٧٧).

{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} (١)

وقال قوم فرعون لسيدنا موسى عليه السلام من بعد أن رأوا ما رأوا من آياتٍ بيناتٍ:

{... مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} (٢)

وأحيا سيدنا عيسى بن مريم ﷺ الميت وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله. أما قومه **{... فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}** (٣)

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الناحية في قوله تعالى:

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} (٤)

وإذن فليست المعجزات بناقلة أحداً من الكفر إلى الإيمان، بل لا بدَّ من إعمال الفكر الدقيق فيما يسمعه الإنسان من الهدى والبيان أو النظر والتأمُّل في هذه الكائنات مع الخشية من الفراق الذي لا بدَّ منه. قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله:

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (٥)

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (٦)

وزيادة في تفصيل هذه النقطة الهامة نقول:

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١٢٤).

٢ – سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

٣ – سورة الصف: الآية (٦).

٤ – سورة الحجر: الآية (١٤-١٥).

٥ – سورة ق: الآية (٣٧).

٦ – سورة الملك: الآية (١٠).

خلق الله تعالى الإنسان وكرَّمه وفضَّله على كثير مما خلق تعالى تفضيلاً وجعل له بصراً وبصيرة. والإنسان يشترك بالبصر مع الحيوان وهو بهذه العين لا يرى إلا صُور الأشياء بناءً على ما ارتسم على الطبقة الشبكية من خيال. والإنسان لا يستطيع أن يدرك ما وراء الصورة إلا إذا أعمل فكره ودقَّق فيما يراه تدقيق الساعي وراء الحقيقة.

فإذا أنا رأيت الشمس تشرق من مكان وتغيب من مكان آخر من الآفاق ثم لا تلبث أن تعيد الكرَّة ولم أتساءل عن سبب عودتها في صبيحة اليوم التالي من المشرق بعد أن غابت مساء أمس في المغرب فلا أستطيع أن أدرك عن كروية الأرض ودورانها وسبحها في الفضاء شيئاً، بل أظل جامد الفكر وأنا في اكتفائي برؤية ظواهر الأشياء أقرب إلى الحيوان مني إلى الإنسان.

أما إذا أعملت تفكيري وجعلت أتساءل باحثاً عن هذه القضية فلا بدّ أن أصل إلى تقرير تلك الحقائق الثابتة وأعني بها الكروية والدوران وسبح الأرض في الفضاء وسبب تولُّد الليل والنهار، وإذا واصلت البحث وتعمَّقت في تفكيري باحثاً عن تلك القوة الهائلة التي تدير هذه الأرض العظيمة، بل الكون كله وتمدُّه بالحياة والوجود آناً بعد آن دون أدنى انقطاع، فلا بد أن أصل إلى معرفة الله معرفة يقينية لا يستطيع أن يحولني عنها أحد أو يزلزل إيماني بهذه الحقيقة وقد أدركت سرَّها بذاتي ورأيته ببصيرتي وعقلته في نفسي. وهكذا فما جعل الله تعالى لنا هذا الكون قائماً على هذا النظام الذي هو عليه إلا ليكون لأبصارنا فيه نظرات ولتفكيرنا منه جولات وجولات ولنفوسنا سبيل تسلك فيها إلى معرفة عظمة خالقها وتهتدي إلى ربها وإلهها الذي يُسيِّرها وإلى ذلك أشارت الآيات الكريمة ومن ذلك قوله تعالى:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} (١)

وإذاً فالرؤية بالبصر شيء لا يعدو الصورة والخيال، والرؤية بالبصيرة إنما هي عقل مبني على محاكمة وبرهان وهي حقيقة مستقرة في النفس لا يمكن أن ينتزعها شيطان أو إنسان متلبِّس بشيطان. وبهذا نستطيع أن نفهم إيمان السحرة بسيِّدنا موسى عليه السلام وعدم إيمان من سواهم من الناظرين.

فالناس يومئذ بما أنهم يجهلون حقيقة السحر لذلك لم يختلف ما شاهدوه من سيدنا موسى عمَّا شاهدوه من السحرة أدنى اختلاف وما كان من فرعون إلا أن:

{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ...} (٢)

أما السحرة الذين كانوا علماء بالسحر وبما هو مبني عليه لمَّا رأوا من سيدنا موسى عليه السلام ما رأوه عرفوا أنه تأييد إلٓهيوأنه ليس من السحر في شيء. وما أن عقلوا هذه الحقيقة حتى خرُّوا ساجدين قائلين آمنَّا بربِّ العالمين رب موسى وهارون.

وقد خاطب الله تعالى رسوله الكريم سيدنا محمداً ﷺ وقد أسف أسفاً شديداً على ضلال الناس وحرص كل الحرص على هدايتهم بما أشارت إليه الآية الكريمة:

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِم كُلَّ شَيءٍ قُبُلاً مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ...} (٣)

---

١ - سورة الطلاق: الآية (١٢).

٢ - سورة طه: الآية (٧١).

٣ - سورة الأنعام: الآية (١١١).

وبما أن الله تعالى سنَّ لهذه النفس، بل لهذا الكون كله سنناً ثابتة لا تتبدَّل ولا تتحوَّل. فمشيئة الله تعالى لا تكون إلاَّ إذا اتَّبع الإنسان هذه السنن وسار عليها:

{... فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً} (١)

هذا وما دامت النفس متعلِّقة بالدنيا وما دامت الدنيا أكبر همِّها فلا يمكن للتفكير أن يخرج من أسْره أو ينطلق من قيوده. وما دام هذا الإنسان لا يفكِّر كما بيَّنا من قبل فليس بقادر على أن يتوصَّل لمعرفة ربه. ولذلك وتخليصاً للنفس من شرك (شبكة) محبة الدنيا وقطعاً لحبائلها جعل الله تعالى الموت لهذا الإنسان واعظاً ومذكِّراً، فإذا رأى أحدنا الموت قد حلَّ بقريب له أو عزيز عليه وكيف أنَّ ذلك المسكين لم يجمع من الدنيا ما جمعه إلاَّ بعد جهود طويلة ومساع جمَّة ثم لم تدم له الفرحة بها طويلاً حتى جاءه هاذم اللذات فإذا هو جثة هامدة لا حراك بها فلا حركة ولا كلام وليس له إلا ما قدَّم من أعمال.

أقول: إذا ذكر الإنسان هذا وفكَّر فيه ثم ذكر القبر وظلمته ووحدته فلا أب ولا أم ولا مؤنس ولا حبيب وعرف أن أمد الدنيا قصير ومتاعها قليل وفراقها وشيك فلا ريب أن هذا التفكير يقطع أواصر محبة الدنيا الدنية من قلبه ويحمله على السعي وراء معرفة ربِّه فينطلق ساعياً ويجلس مفكِّراً باحثاً.

وهكذا فما ترك الله تعالى لهذا الإنسان باباً موصلاً إلى الهدى والخير إلا وفتحه على مصراعيه، ولا وسيلة وسبباً إلاَّ ونصبه للإنسان ظاهراً ماثلاً بين عينيه. وقد أدرك رسول الله ﷺ سرَّ الموت وحكمته وهو ﷺ خير من يدرك حكمة الله ورحمته فيما جعله لعباده، ولذلك أمرنا ﷺ بأن نكثر من ذكر الموت فقال:

---

١ – سورة فاطر: الآية (٤٣).

«أكثروا ذكر هاذم اللذات» [١]

وقال ﷺ واعظاً ومذكِّراً: **«عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به»**[٢].

وما قدَّم الله تعالى ذكر الموت على الحياة في قوله تعالى في سورة الملك (١-٢): **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}** إلاَّ لنذكر الموت فلعلَّنا نرهب ونحذِّر نفوسنا مغبَّة الانغماس في الدنيا فتنطلق مفكرةً ساعية وراء معرفة ربّها وبذلك تحيا حياة طيبة وتسعد سعادة أبدية لا نهاية لها.

وقد كان ﷺ يتكئ مستلقياً في مسجده الشريف على جنبه الأيمن بين السنَّة والفرض من صلاة الفجر مفكِّراً بالموت ريثما يجتمع أصحابه، وهو يريد بذلك أن يعلِّمنا لنقتدي به ونحذو حذوه فنتذكَّر بهذا الوضع الذي نتخذه باتكائنا والذي هو أشبه بحال الميت حينما يوضع في قبره أنه لا بد لنا من الموت وأنه عمَّا قريب سيحلُّ بنا، عند ذلك تتفتَّح منافذ تفكيرنا ونتوصَّل إلى معرفة خالقنا ونكتسب عمرنا الثمين فيما يعود علينا بالسعادة والخير.

أقول: وما شُرعت صلاة الجنازة، وما شُرع تشييع الميت إلى قبره والوقوف على دفنه وزيارة أهل المقابر إلاَّ لهذه الغاية.. أدركَ ذلك من أدركه، وغاب علمه عمَّن غاب عنه، ولله فيما شرع المنَّة والفضل.

ومن اليسير علينا بعد أن عرفنا معنى الكفر والسبب الموصل إليه أن نفهم معنى الآيتين الكريمتين اللتين أوردهما الله تعالى في حق الكافرين فنقول:

---

١ -أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في ذكر الموت رقم /٢٣٠٧/ ورقم /٢٤٦٠/.

٢ رواه الطبراني

إذا بلغ الإنسان الحلم ولم يهتدِ بهدي الله الذي أورده الله تعالى على لسان رسوله ولم ينظر في هذا الكون مفكِّراً، بل التفت إلى دنياه وانغمس فيها فلا شك أن هذا الانغماس يجعله كما رأينا من قبل بعيداً عن معرفة الله، محجوباً عن رؤية كماله تعالى فلا يُدرك حكمة ربه وعظمته وتحتجب نفسه عن رؤية عدل الله ورحمته وغير ذلك من الكمالات الإلَهية، وهذا ما كنا نعبِّر عنه من قبل بكلمة "الكفر"، على أن هذا الكفر إذا استحكم في النفس وتمكَّن فيها كان سبباً في انبعاث الشر منها، فهذا الكافر بربِّه الذي لا يرى التربية الإلَهية سارية في هذا الكون مشرفة عليه تراه يظن أنه إنما يرزق نفسه بنفسه ولذلك يسلك في جلب الرزق طرقاً ملتويةً. فهو يغش ويكذب ويتلاعب بالأسعار ويحلف الأيمان الكاذبة ويتَّخذ شتى الأسباب زعماً منه أنه إنما يوفِّر بذلك لنفسه أكبر حدٍّ من الربح وهو لا يصغي إلى قولك مهما بيَّنت له أن ذلك يعود عليه بعدم التوفيق والخسران، ولو أنه آمن بربِّه لاستقام في معاملته ولعرف أن الرزق على الله فهو المتكفِّل بمخلوقاته وما على الإنسان إلا أن يسعى سعيه ويحسِّن معاملته ويفوِّض الأمر إلى الله، وهذا الكافر أيضاً يظن أن الاعتداء على أعراض الناس غنيمة وهو يستحلي الزنى وكل ما يقرِّبه إليه، ومهما أنذرته من عواقب ذلك ومهما بيَّنت له أن للزنى عواقب وخيمة وأنه يعود على الإنسان بالسفالة والاحتقار ويرميه بشتى الأمراض والآلام، لا يفقه ولا يعي من قولك شيئاً، وكيف يفقه أو يعي وقد أعمته الشهوة عن كل شيء وغلب عليه هواه، قال تعالى:

{أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [١]

---

١ – سورة الفرقان: الآية (٤٣–٤٤).

وهكذا فالكافر المعرض عن خالقه، الكافر الذي أعمت الشهوة بصيرته وغلبت عليه لا يؤمن بقولك ولا يلتفت إلى نصحك وهو لا يرى إلاَّ الشهوة ولا يؤمن بشيء من إنذارك وتحذيرك، ولذلك خاطب الله تعالى رسوله الكريم بقوله:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}:

فمن لم يفكِّر ولم يؤمن بآيات الله تمتلئ نفسه خبثاً وشهوات.

ولو أن هذا الإنسان رجع إلى خالقه فلا شك أنَّ رجوعه يجعله يستنير بقبس من نور الله، فيرى حقائق الشهوات المهلكة التي انغمس فيها الناس وانصرفوا إليها فينطلق باكياً عليهم ويتفطَّر قلبه حزناً وأسى ويتمنَّى لو ينقذهم.

أما إذا ظلَّ مُتلبِّساً بالكفر بعيداً عن التفكير والاستنارة بنور الله فلا يمكن في حال من الأحوال أن يترك الشهوة الخبيثة ويزهد فيما هو ماثل له متغلِّب عليه. وبما أنه ما دام بهذا الحال فهو بعيد كل البعد عن فعل المعروف والإحسان منحرف كل الانحراف عن نيل السعادة الأبدية التي ما أخرج الله تعالى الإنسان لهذه الدنيا إلاَّ ليسعى إليها ويبذل الجهود في سبيلها ولذلك ومن رحمة الله تعالى بهذا الإنسان أن يُخرج له هذه الشهوة الخبيثة المستقرة في نفسه أولاً، ثم يُتبع ذلك الخروج بالعلاج والمداواة، فلعلَّ هذا الإنسان عند ذلك يصحو من غفلته ويسير في طريق سعادته.

وبما أن المداواة لا تكون إلا بعد خروج الشهوة وخلاص النفس منها ولذلك من الحكمة أن لا يطَّلع هذا الإنسان على المداواة التي ستُطبَّق عليه بعد خروج الشهوة، بل يختم الله تعالى على قلب هذا المريض أي يحجبه عن رؤية ما سيصيبه وهنالك يقع فيما صمَّم عليه وتخرج الشهوة وتخلو النفس مما كان شاغلاً لها، مستقراً فيها وعندئذ وبعد خلوِّ النفس من شهوتها يسوق الله تعالى لهذا الإنسان العلاج المناسب. وما مثل هذا الإنسان المريض النفس تجاه هذه

المعالجة إلاَّ كمثل امرئ مرضت إصبعه وامتلأت بالقيح فأول ما يعمله الطبيب أنه يخرج له القيح من إصبعه ثم يعقب ذلك بالمداواة والتطهير. ثم إن الطبيب الحكيم لا يُعلم المريض بألم المداواة والتطهير الذي يعقب الجرح وإخراج القيح بل يسكت عن ذلك كله ويخفيه عن مريضه لأنه لو علم المريض بذلك لما مكّن الطبيب من شقّ يده ولظلَّت علَّته كمينة فيه، وهكذا فالله تعالى يختم على القلب فلا يرى المريض ما يعقب خروج الشهوة.

وذلك ما نستطيع أن نفهمه من قوله تعالى:

{خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ}: فهو لا يعرف ما وراء عمله فيخرج لحيِّز الفعل.

إذن يختم على قلبه كالمريض المحتاج لمسهِّل قوي أو عملية شديدة، فالطبيب يطمئنه ليسهِّل عليه ذلك حتى يخرج ما فيه. كذلك الله تعالى يختم على قلب ذلك المرء كي لا يرى ما وراء عمله، ثم يفعل ما يفعل وبعدها يسوق له البلاء، أي بعد تخلية نفسه مما فيها لعلَّه يرجع للحق.

{وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}: فهو لا يسمع النصيحة.

إن سبب هذا الختم هو امتلاء النفس بجرثوم الشهوة التي سدّت على النفس سمعها وغشت بصرها وأعمتها عن طريق سعادتها، وفي الحديث الشريف:

«حبُّك الشيء يُعمي ويُصمُّ» [1]

والآن وبعد خروج الشهوة وبعد ذهاب الغشاوة لابد من المداواة واستئصال الجرثوم من النفس وتطهيرها بالمطهِّرات المناسبة ولذلك قال تعالى:

{.. وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

---

١ – أخرجه أبو داوود عن أبي الدرداء/مسند أحمد ج ٥/ص١٩٤.

وهكذا فالله تعالى يسوق للإنسان بعد خروج الشهوة من نفسه صنوف الشدائد وعظيم البلاء ليلتجىء هذا الإنسان إلى الله ويطلب منه كشف الضّر ثم يرفع الله تعالى البلاء بهذا الالتجاء، فلعلّ هذا الإنسان يعلم أن الفعل كله بيد الله وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وحده ويؤمن بلا إلّه إلا الله ويخشى ويستقيم، وهنالك تقبل نفسه على الله وتطهر بهذا الإقبال مما بها من أدران وتعمل الخير وتكتسب هذه الحياة الثمينة لتفوز بالسعادة الأبدية وتكون هذه السلسلة من المعالجات التي عالجه الله بها إنما هي من الله تعالى محض الفضل والإحسان ولله الحمد على كل حال، أي: **(وَلَـهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)** بعد مقارفته شهوته، علَّه يرجع للحق، للسعادة للخير.

* * *

بعد أن بيَّن لنا الله تعالى في مطلع هذه السورة ما يجب أن يفعله الإنسان ليكون من المتقين، وبعد أن عرَّفنا بما يطبِّقه تعالى من المعالجات على الكافرين أراد تعالى أن يعرِّفنا بأحوال الطائفة الثالثة من الناس وهم طائفة المنافقين فقال تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}:

لو كان مؤمناً حقاً لما شذَّ ولما فعل المنكر.

وبشيء من التدقيق في هاتين الآيتين الكريمتين يتبيَّن لنا أن الإيمان بالله تعالى شيء وأنَّ الإقرار بوجود الخالق شيء آخر. فالله تعالى في الآية الأولى نفى الإيمان عن هؤلاء بقوله الكريم: **(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ): حقّاً.**

وفي الآية الثانية ذكر لنا أن المنافقين يخادعون الله، والذي يخادع الله إنما هو امرؤ مقرّ بوجود الخالق، ومن هنا يتبيَّن لنا أن كلمة **(بالله)** إذا جاءت مرقّقةً

إنما تعني مَنْ سيْر الكون به.. وهكذا فالإيمان بالله معناه الإيمان بأن سيْر الكون كلّه إنما هو قائم بالله راجع إليه وحده، فلا حركة ولا سكون ولا أحد يجلب الخير أو يدفع الضر سواه وذلك ما عبَّرت عنه كلمة **{لا إلّه إلا الله}**، وأما كلمة **(الله)** إذا جاءت مفخَّمة كما وردت في الآية الثانية فإنما تشير إلى اسم الذات الجامع للكمال كله.

والمنافق: امرؤ يقرُّ بوجود الخالق غير أنه لم يسلك طريق التفكير ولم يؤمن بالله تعالى إيماناً منبعثاً من قرارة نفسه، إنما سمع الناس يقولون شيئاً فقاله، لذلك تراه لا يشعر تجاه خالقه بتلك المعاني العالية التي يشعر بها المؤمن وهو لم يذق طعم محبَّة الله ولم يشعر بحنانه وعطفه ولم يطهِّر الإيمان نفسه وينتزع ما بها من الشهوات الخبيثة ولذلك تراه يغش ويكذب ويذهب إلى الملاهي ويقترف الموبقات وإلى جانب ذلك كله تجدْه يصلِّي الصلاة الصورية التي ليس فيها شيء من الإقبال على الله ويصوم ممتنعاً عن الطعام والشراب وقد يتصدَّق ببعض الصدقات ظنّاً منه أنه بذلك إنما يخادع الله فلا يؤاخذه على ما يقوم به من المعاصي والمخالفات، فهو يتظاهر بالصلاة وبالصوم حتى لا يُعذِّبه الله بظنِّه. ولو أنه آمن حق الإيمان لطهَّر الإيمان نفسه ولفقه المراد الإلّهي من أوامره تعالى ونواهيه، ولعرف أنها كلها لخيره وسعادته فاستقام على أمر الله وخاف من عذابه. وهو يخادع المؤمنين، يظنُّ أنه يخدعهم. أي: يتظاهر لهم بالخير والصلاح ومحبة الله ليبيِّن لهم أنه امرؤ مثلهم في الإيمان وبذلك يبتغي تأمين مصالحه الدنيوية ورواج تجارته وإقبال الناس عليه، ولو أنه آمن أن السير بيد الله وحده لما رجا أحداً سواه ولما خشي غيره.

وهكذا فللمنافق مخادعته والمخادع هو الذي يتظاهر بغير ما يبطن، يفعل ذلك تأميناً لمنافعه وسعياً وراء مصلحته، يظنُّ ذلك خيراً لنفسه وهو في الحقيقة

إنما يخادع نفسه ولا تخفى على الله خافية وعمله راجع عليه؛ لأن أعماله كلها ستعود عليه فيما بعد بالسوء والشقاء.

وما مثل المنافق في مخادعته إلاَّ كمثل طفل مريض حماه الطبيب من بعض الأطعمة الضارَّة ووصف له الأدوية المناسبة التي تخلِّصه مما فيه من مرض فجعل يتظاهر للطبيب بشرب الأدوية، فإذا خلا إلى نفسه اتَّبع شهوته من الأطعمة التي نهاه عنها والتي تكون سبباً في بطء الشفاء واستفحال المرض. أفتظن أن خداعه للطبيب يدفع عنه غائلة المرض ويخلِّصه من الآلام المريرة؟. وهكذا فالمنافق في تظاهره بتأدية الأوامر الإلٓهية من جهة وإشباع شهواته الخبيثة من جهة ثانية أشبه بالطفل الخفيف العقل الضعيف التفكير، فصلاته وصيامه وصدقاته ليست كلها بمغنية عنه شيئاً ولا يستطيع أن يُقبل بنفسه على الله مادام لا يستقيم على أوامره تعالى. ولو أن هذا الإنسان فكَّر قليلاً لعَلِمَ أن الله تعالى غني عن العالمين ولأطاع خالقه وأقنع نفسه على اتِّباع أوامره والانتهاء عن نواهيه.

* * *

وبعد أن بيَّن لنا الله تعالى خداع المنافق وخفَّة عقله أراد أن يعرِّفنا بالسبب الذي ولَّد النفاق في نفسه فقال تعالى:

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}: حب الدنيا، الخبث، الرذيلة في نفسه.

وقد عبَّر الله تعالى عن الشهوات الخبيثة المستحكمة في النفس بكلمة "المرض"، فالمريض الذي يتعاطى المخدِّرات الضارَّة كالحشيش والأفيون وغيرها هو مريض نفسيّاً، فإذا وصل الإنسان كما ذكرنا من قبل إلى سنِّ الرشد ولم يُعمل تفكيره في معرفة ربِّه أو لم يصغ إلى دلالة الرسول المبلِّغ عن الله، فهنالك تميل نفسه إلى الشهوات الخبيثة وتستحكم هذه الشهوات فيها ولا يبقى له همٌّ في

الحياة إلاَّ أن يُشبع رغائبه ويصل إلى شهواته الدنيئة، وهنا يجتمع هذا المنافق الذي استحكمت الشهوة في نفسه مع الكافر الذي كنَّا شرحنا أحواله من قبل، ويصبح من الخير في حقّه إخراج الشهوة المستقرة في نفسه إلى حيِّز الفعل، وذلك ما عبَّرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً..}.

وتوضيحاً لهذا المعنى نذكر المثال الآتي فنقول:

هبْ أنَّ رجلاً فسد الطعام في جوفه وأدَّى به الأمر إلى تخمة شديدة تكاد تذهب بحياته فهل من المعقول أن يتركه الطبيب يتلوى من الألم بسبب ما استقرَّ في جوفه أم تراه يصف له مُسهِّلاً قوياً يدفع هذه السموم عنه ويخلِّصه من هذه التخمة؟.

وهكذا فالشهوة الخبيثة التي استحكمت في الصدر إنما هي تخمة النفس وهي مرض القلب، ومن رحمة الله تعالى بهذا الإنسان أنه يُخرج له هذه الشهوة من قلبه بارتكاب ما صمَّم عليه واستحكم في نفسه، وبذا تخلو ساحة نفسه من هذه الشهوة وإخراجها هو ما عبَّر الله تعالى عنه بقوله:

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً): أي: يُخرج لهم شهواتهم: يفعل جنايةً واحدة ثم يسوق له البلاء لعلَّه يرجع.

أما المعالجة التي تطهِّر النفس من جرثوم الشهوة وتكون سبباً في الشفاء فإنما تتضمنها كلمة:

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}: لإرجاعهم إلى الصواب إلى الحق.

{بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}: بعدم إيمانهم بالآيات الكونية.

فالله تعالى يعقِّب خروج الشهوة وخلوّ ساحة النفس منها بسوق الشدائد وإنزال البلاء، فلعلَّ هذا الإنسان يرجع إلى ربِّه وهنالك يطهِّر الإقبال على الله نفسه ويخلِّصها من ذلك المرض المهلك.

كما تفيد كلمة **(بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)** الواردة في الآية الكريمة: أن المنافق إنما يجرُّ البلاء لنفسه بسبب كذبه، والكذب نقيض الصدق، فالمؤمن صادق مع ربِّه ولذلك تجده صادقاً مع رسوله ومرشده، فلا مطلب له إلاَّ أن يكون ربه راضياً عنه ولذلك تراه دائب البحث عمَّا يقرِّبه من خالقه. فالمال وهو مادَّة الشهوات كله رخيص عنده إذا كان في تقديمه قُربة لخالقه.

قال تعالى:

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١]

والمؤمن يضحِّي بنفسه . وليس عنده أغلى من نفسه . ويبذلها رخيصة ما دام ذلك يقرِّبه من الله، قال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٢]

---

١ – سورة التوبة: الآية (٩٩).

٢ – سورة التوبة: الآية (١١١).

والمؤمن لا يدع باباً من أبواب الخير والإحسان إلا ويَلِجُهُ ولو كان ذلك يُسبّب له تعباً ونصباً.

والمؤمن يصبر عن جميع الشهوات المحرَّمة ويحجز نفسه عنها طاعة لله وخوفاً أن تتباعد نفسه عن الله وتُحرم من قُربه. والمؤمن محبّ لرسول الله، صادق في حبّه، محبّ لمرشده، صادق في معاملته لأنه يعلم أن الرسول ﷺ باب الله وأنَّ مرشده الذي فاقه في معرفة الله ومحبته وحب رسوله هو الذي يدرِّبه على السير في هذا الطريق، فما جزاؤه منه إلاَّ كل طاعة وبر وخدمة ولطف في المعاملة.

وهكذا فصدق المؤمن يكشف له عن كريم الأعمال ويهديه إلى جميل الخصال.

وفي الحديث الشريف: «**إنَّ الصدْق يهدي إلى البرّ، وإنَّ البرّ يهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتى يُكتب عند الله صدّيقاً، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجور يهدي إلى النارِ، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذَّاباً**» [١]

وهكذا فالصدق في طلب الحق إنما هو أكبر مميِّزات المؤمن. أما المنافق فكاذب في طلب رضاء الله ومعرفته، كاذب في حب رسوله، كاذب مع مرشده، يتظاهر بغير ما يبطن، يتظاهر بالإخلاص ودنياه أغلى عليه من كل شيء. فإذا جدَّت الحرب خشي على نفسه من الموت واستأذن مُتحيّلاً للانصراف، قال تعالى:

---

١ –الجامع الصغير /٢٠٥٩/ (ق) عن ابن مسعود (صحيح).

{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَئذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً} (١)

والمنافق إذا طُلب منه الإنفاق في سبيل الله، بخل وظنَّ ذلك خسارة عليه، قال تعالى:

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٢)

وإذا عرضت للمنافق شهوة من الشهوات الخبيثة لم يتأخر عن مباشرتها، إذ لا يرى أعز عليه من شهوته، وجملة القول أن المنافق كاذب في طلب رضاء الله يتظاهر بغير ما يخفيه في نفسه ستراً لأحواله والله شهيد عليه قال تعالى:

{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٣)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ}:

إن قلت له لا تفسد الناس بعملك بالبناء، الكهرباء، الملاهي. يقول لك: هذه نعمٌ من الله، أترجع بنا إلى القرون الماضية. قديماً ما كانت عندهم مدنية.

والفَسَاد: هو نقيض الصلاح وضده. تقول: فسد البيض أو فسد الطعام، أي تغيَّرت رائحته ولعب فيه الجرثوم فأصبح مكروهاً يضرُّ آكله. وتقول: فسد الناس، أي: انحطَّت أخلاقهم وساءت معاملتهم لبعضهم بعضاً، ومن الفساد في الأرض إظهار المرأة زينتها لغير المحارم لأنها بذلك إنما تفسد قلوب الرجال وتجعلهم

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (١٣).

٢ – سورة التوبة: الآية (٩٨).

٣ – سورة المنافقون: الآية (١–٢).

غير سعداء في أُسرهم فلا تعود تعجبهم زوجاتهم وبذلك تضعف الروابط الزوجية وتنحل الأسرة كما أنها بذلك إنما تُحرِّض غير المتزوجين على الوقوع في المحرَّمات.

ومن الفساد في الأرض أيضاً ظهور الغني بمظاهر الترف والسرف وفي ذلك ما فيه من تنغيص عيش الفقير وتكديره وتحريضه على الكسب غير المشروع مجاراة للغير، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تزيُّن الرجل بالذهب والحرير لأن ذلك يوغر قلب الفقير، وإلى ذلك أشارت الأحاديث الشريفة ناهية ومحذِّرة منها قوله ﷺ:

«حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأُحل لإناثهم» (١)

وهكذا فكل ما فيه تحريض الآخرين وجرّهم إلى الوقوع في المحارم، وكل ما فيه تنغيص وتكدير لعيش الناس إنما هو فساد في الأرض. والمنافق مفسد لا يشعر.

{قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}:

نحن في هذه الملاهي نتسلّى تسلية، لا نعمل شيئاً.

فإذا ما ناقشته في أعماله زعم أن في إبداء المرأة زينتها حرية ومدنية، وأن في ظهوره بمظاهر الترف إظهاراً لنعمة الله عليه وأن في الملاهي تسلية وترويحاً للنفس وهو لا يشعر بما يجرُّه ذلك عليه وعلى أسرته وأولاده وعلى الأمة جميعها من البلاء والوباء. ولذلك قال تعالى:

{أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ}: يظنُّ نفسه محسناً.

---

١ –رواه الترمذي {كتاب اللباس، باب ما جاء في الحرير والذهب، رقم: ١٧٢٠} عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ولعلَّك تقول: كيف لا يشعر المنافق بما ينجم عن أعماله من الفساد في الأرض وما ينشأ عنها من نشر الأذى والرذيلة، كيف لا يرى ما في إبداء المرأة زينتها لغير المحارم من الضرر وتفريق أوصال الأسرة؟. كيف لا يشعر بما في الربا من إلحاق الفقر والإفلاس بأرباب التجارات؟. كيف لا يرى ما في ظهور الأغنياء بمظاهر الترف من أذى للخلْق وتحريض على الكسب غير المشروع، وهذه كلها أمور ظاهرٌ أذاها وضررها بالفرد والمجتمع فأقول:

إن رؤية الحقائق ومشاهدة الحق من الباطل والخير من الشر لا تكون إلاَّ بنور الله، وبما أن المنافق امرؤ معرض عن خالقه وليس له نور من ربِّه لذلك تجده أعمى البصيرة لا يرى إلا صوَرَ الأشياء، ولذلك لا يميِّز خيراً من شرٍّ، بل على العكس يرى الأشياء بخلاف ما هي عليه ولذلك تراه لا يقدِّر سير المؤمن ولا يعظِّم ما هو عليه من الاستقامة، بل إنه يستخف باستقامة المؤمن ويهزأ به وهو في سيره وعدم رؤيته الحقائق على طرفي نقيض مع المؤمن.

فالمؤمن يغض بصره عن المحارم لأنه يرى في ذلك فساداً لقلبه وحرماناً من القرب من الله وإفساداً لحياته وسعادته في أسرته، والمنافق يرى في غض البصر حرماناً للنفس من حظوظها وضغطاً عليها وهو لم يذق طعم القرب من الله حتى يخاف فقدان هذا الذوق.

والمؤمن يستقيم في بيعه وشرائه ومعاملاته مع الناس لأن الإنسان في نظره لا ينال إلاَّ رزقه الذي كتبه الله له وما عليه حتى يصل إلى هذا الرزق إلا أن يسعى في الكسب من طرقه المشروعة والرزق على الله الكريم.

أما المنافق فيرى في هذه الاستقامة خسارة ويعدُّ الحصول على أكبر حد من الأرباح مهارةً وحذقاً وهو يظنُّ أنه إنما يرزق نفسه بنفسه فما عليه حتى يصل إلى هذا الرزق إلا أن يقوم بشتى الحِيَل.

والمؤمن يبذل ماله سعياً وراء القرب زلفى من خالقه ويرى في بذل المال في سبيل الله ربحاً ومغنماً.

أما المنافق فيرى في بذل المال في هذه الأوجه خسارةً ومغرماً.

والمؤمن يرى في موته في سبيل الله حياةً لنفسه وفوزاً لرضاء الله وخلوداً في النعيم الأبدي. أما المنافق فيرى في بذل النفس خسارة لا تعوَّض وانقطاعاً عن هذه الدنيا وحرماناً من شهواتها وملاذّها.

وهكذا فنظر المنافق معكوس ونظرته تخالف نظرة المؤمن في كل شيء. فالمؤمن يرى الحقائق والمنافق لا يرى إلا الصور وظواهر الأشياء، ولذلك ترى المنافق يعدُّ سيْر المؤمن جهلاً، أي: عدم معرفة بأصول الحياة الدنيوية وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}:

هؤلاء كانوا جهَّالاً، لا مدنية عندهم، هل نحن خُلقنا فقط للعمل، يجب أن نتسلَّى.

{أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ}: ما سيحلُّ بهم.

والسُّفَهَاءُ: جمع سفيه، والسفيه: هو الجاهل الذي لا يعرف قيمة الشيء.

قال تعالى:

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ...} [١]

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...} [٢]

---

١ – سورة الأنعام: الآية (١٤٠).

٢ – سورة البقرة: الآية (١٣٠).

أي: لم يعرف قيمة نفسه وما يعود عليها من الخير إذا هو سيَّرها في طريق الحق وما يعود عليها من الشقاء إذا هو سيَّرها في طريق الباطل.

وهكذا فالمنافقون لا يعرفون قيمة هذه الحياة الدنيوية ولا يدركون قيمة الاستقامة والسير الطيِّب بخلاف المؤمنين الذين أقبلوا على خالقهم فرأوا قيمة هذا العمر الثمين فاكتسبوه فيما يعود عليهم بالسعادة والخير.

وقد أراد تعالى أن يعرّفِنا بجهل المنافق بقوله الكريم:

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا}: قالوا نحن نصلّي مثلكم لا فرق.

والمنافق إذا لقي المؤمن يظن نفسه أنه مؤمن بالله مثله. والحقيقة أن إيمانه كله تقليدي، فهو لم يفكِّر في عظمة هذا الكون وما قام عليه من خلْق بديع حتى يُدرك عظمة ربّه وحكمة خالقه وموجده، وهو لم يفكِّر في تلك القوة الهائلة التي تدير الأرض والشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية وتربطها ببعضها في هذا الفضاء العظيم حتى يعرف أن سيْر الكون كله بيد الله. نعم إنه لم يدرك من ذلك شيئاً كما أدرك المؤمن، بل إنه امرؤ سمع أقوالاً فردَّدها بلسانه ولم يؤمن بها قلبُه ولم يفقه لها معنى ولم يدرك لها حقيقة، قال تعالى مشيراً إلى أحوال هؤلاء بقوله الكريم:

{يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...} (١)

ثم إن المنافق يظنُّ أنه بصومه وصلاته إنما أدَّى الفرض المأمور بتأديته وإنه لا فرق بينه وبين المؤمن في هذه التأدية، والحقيقة أنه شتَّان بين صلاة المنافق وصلاة المؤمن.

---

١ – سورة المائدة: الآية (٤١).

فالمؤمن إذا وقف بين يدي خالقه شعر بتلك الصلة المعنوية والقرب الإلٓهي وعقل من معاني الآيات المنزلة ما لا يشعر به ولا يعقله المنافق. وفي الحديث الشريف:

«ليسَ للعبدِ من صلاته إلاَّ ما عَقَلَ منها» [1]

وهكذا فالمنافق مغرور وهو لا يشعر بما هو فيه، ومن نتائج غروره أنه يستخفُّ بالمؤمن ولا يقدِّره وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{.. وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ}: من الكفَّار الذين هم مثلهم.

{قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ}: نحن لسنا من أولئك، نحن معكم.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن المنافق ذو وجهين، وجه يقابل به المؤمنين وآخر يقابل به الكافرين. فما دام المنافق في مجلس المؤمنين وما دامت شهوته كمينة في نفسه فهو يتظاهر بالصلاة والتقوى، فإذا ما عُرضت له الدنيا مُتزينة ولاحت له شهوة من الشهوات الخبيثة ظهرت حقيقته وتبدَّى ما استقرَّ في نفسه من خبث فأيَّد جماعته في سيرهم المنحط وباح باستهزائه واستخفافه بالمؤمنين.

فقد أراد تعالى أن يعرِّفنا بخفَّة عقل ذلك المسكين ويُثبِّت تعالى المؤمن على سيره الطيِّب فقال تعالى:

{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}: يحتقر عملهم وسيْرهم.

وما دام الاستهزاء هو: الاستخفاف واحتقار العمل والسيْر.

فالمراد بكلمة **(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)** أي: أن الله تعالى يحتقر من المنافق ما هو فيه من الضلال، وعلى وجه المثال نقول:

---

١ -كنز العمال: ج٣، ص٣٨٢ . ج٧٠٥٠.

إن الطبيب يحتقر ويستصغر عمل الطفل الذي يثور ويغضب إذا ما حماه عن بعض الأطعمة الضارَّة أو وصف له علاجاً مرّاً. والمعلم يستصغر ويحتقر عمل التلميذ الذي يتخلَّف عن المدرسة مستغرقاً باللهو واللعب مُضيعاً أوقاته سدى. والله تعالى يستهزئ بالمنافق أي يستصغر عمله وسَيْره، إذ أنه بلحاقه بالشهوات المنحطة إنما يضيِّع عمراً ثميناً غالياً ويخسر خسراناً كبيراً.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا رحمته بالمنافقين وعنايته بهم فذكر لنا كيفية معالجته لأمراضهم فقال تعالى:

{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}: لا يرون ما وراءها.

فهو تعالى إنما يمدُّ هذا المنافق برغائبه ويعطيه جميع مشتهياته تفريغاً لنفسه مما هو مسيطر عليها وتخليصاً لها مما هي مشغولة به لأن الشهوة ما دامت كمينة فيه محجوزة عن الخروج فلا يؤثِّر فيه إنذار ولا تنفعه موعظة أو شدّة، ثم إن الله تعالى حينما يمدُّه بالشهوة لا يُريه ما وراءها من الشدائد. وذلك ما نفهمه من كلمة (**يَعْمَهُونَ**) عدم رؤية العواقب والاحتجاب عن مشاهدة النتائج التي تعود عليه بالمذلَّة والهوان، ولو أن المنافق رأى ما يعقب عمله من شدائد لما تجرَّأ على الفعل ولظلَّت شهوته مستكنَّة في نفسه ولبقي مرضه مستقراً لا يخرج وبذلك لا تمكن المداواة. فإذا ما احتجبت النفس عن رؤية الشدائد وخرجت الشهوة وفرغت منها النفس فعندئذ تُمكن المداواة ويرجى لهذا المريض البرء والشفاء.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا سبب تولُّد هذه الشهوة في نفس هذه الفئة من بني الإنسان فقال تعالى:

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}: إذ أضاع شيئاً عالياً بشيء دنيء سخيف.

وتفصيلاً لمعنى هذه الآية الكريمة نقول:

الشراء: هو مبادلة شيء بشيء لقاء الحصول على منفعة مقابلة. تقول: اشتريت داراً بكذا دينار، فالدار في هذا المثال هي الشيء الذي نحصل منه على المنفعة، والدنانير هي الثمن الذي اشترينا به، وتطبيقاً على هذا المثال نقول:

المنافقون إنما اشتروا الضلالة بالهدى للحصول على المنافع الدنيوية وسعياً وراء شهواتها الفانية، قدَّموا الآخرة ثمناً فرضوا بالحياة الدنيا بدلاً عن الآخرة ونعيمها وما حملهم على ذلك إلاَّ جهلهم الناشئ عن عدم إيمانهم.

وعلى وجه المثال نقول:

قد يشتري الطفل غير المميِّز قفصاً من سكر بدينار حبّاً وطمعاً في القفص وجهلاً بقيمة الدينار. أما العاقل فلا يخطر له ذلك على بال ولا يمكن أن يفعل ما يفعله الطفل في يوم من الأيام. وهذا مثال تقريبي والحقيقة أعظم من ذلك بكثير.

فالآخرة لا يعادلها من الدنيا شيء، والآخرة نعيمها أبدي والدنيا نعيمها آني ومتاعها قليل. وإذا كان الإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما يتنعَّم بجمال الأشياء المادية الموجودة في هذا الكون، فالمؤمن في الدار الآخرة إنما يتنعَّم بالنظر إلى جمال الله تعالى الذي خلق هذا الكون والذي جمال الكون كله أثر من آثاره ونقطة من بحر جماله، فما نعيم هذه الدنيا بالنسبة إلى ذلك النعيم!.

ثم إنَّ المؤمن إلى جانب نعيمه بالنظر إلى خالقه يكرمه الله تعالى بأنواع منوَّعة من صنوف اللذائذ المادية، قال تعالى:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [١]

---

١ - سورة القمر: الآية (٥٤-٥٥).

والنَهر: هو الخيرات الماديَّة الجارية باستمرار والعائدة عليهم بنعيم مرافق للنظر لوجه الله الكريم أصل الجمال وخالقه.

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..}(١)

ذلك هو طرف من بيان نعيم أهل الجنة وليس البيان كالعيان.

وهكذا فالمنافقون في شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة إنما حرموا أنفسهم من سعادة أبدية لا تعادلها سعادة لقاء الحصول على لذائذ مادية آنية.

ولذلك ندَّد الله تعالى عليهم عملهم بقوله الكريم:

{فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}.

وكيف تربح تجارة من باع آخرته بدنياه، وكم تكون حسرته عظيمة إذا هو رأى تضييعه لما أعدَّه الله تعالى له وتفريطه فيه.

وقد أراد تعالى أن يضرب لنا مثلاً هذه الحياة الدنيا في غرور المنافق بها فقال تعالى:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ}: أضاءت ثم انطفأت. أضاءت شعلة حياته، ثم انطفأت وذلك عندما يصبح أحد أهل الدنيا ذا مال طائل يأتيه الموت، فلا يرى من دنياه شيئاً، بل يذهب إلى القبر.

فما مثل هذه الحياة الدنيا التي اغْترَّ المنافق بها إلاَّ كمثل النار تضيء له قليلاً، ثم لا يلبث أن يذهب نورها عنه ويقع في ظلمة لا نهاية لها.

---

١ – سورة الرعد: الآية (٣٥).

وهكذا فنرى المنافق جاهداً في جمع المال، ساعياً وراء المناصب العالية والسلطان صارفاً عمره الثمين في التمتُّع بشهوات الدنيا ولا همَّ له سواها، فإذا نال من دنياه ما نال وتمَّ له ما يريد وظنَّ أنه إنما أمَّن لنفسه مستقبلاً رائعاً وحياةً هادئة إذا به وقد جاءه الموت ووافته المنية ففارق الأهل والمال والولد وترك الدنيا راغماً ولم يبقَ بين يديه شيء منها. وذلك ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

(.. ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ).

فدنيا المنافق هي أكبر أمله في هذه الحياة وهي بالنسبة له نورُه وعليها اعتماده، لكنها في الحقيقة ستكون فيما بعد ناراً عليه، فإذا ما حلَّ به الموت تألَّم ألماً شديداً على صرفه عمره في السعي وراءها، ثم إنه ينظر فلا يرى بين يديه شيئاً من صالح الأعمال يتقرَّب بها إلى الله وهنالك يقع في ظلمة الحزن والحسرة على ما فرَّط وضيَّع ولا يعود يبصر من هذه الشهوات الدنيا شيئاً وذلك ما نفهمه من كلمة:

(.. لاَ يُبْصِرُونَ).

ثم بيَّن لنا تعالى حال المنافقين تجاه ما يسمعونه من نصائح ودلالة عن لسان رسوله فقال تعالى:

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}.

والأصم: هو الذي لا يسمع، فما كانوا في دنياهم يصغون بآذانهم إلى ما يُتلى عليهم من آيات الله، بل كانوا في صمم عنها لا يريدون أن يسمعوها لاشتغال نفوسهم بشهواتها.

والبكم: جمع أبكم، والأبكم: هو الذي لا يدرك ما يُتلى عليه من حقائق ولا يعيها فهو لا ينطق بالمنطق أبداً.

وكيف يدركون أو يعون والدنيا هي أكبر همِّهم، وشهواتهم هي عندهم أكبر غنيمة فيها؟.

والعمي: جمع أعمى، فما كانوا يرون من آيات الله شيئاً وما كانوا يرون فيما حلَّ بالمعرضين عبرةً وذكرى، وما يتذكَّر إلا كل ذي قلب منيب.. وما يتذكَّر إلا أولوا الألباب.

أما وقد جاءهم الموت الآن ورأوا أن لا بد لهم من الفراق والتفَّتِ الساق بالساق وظهر لهم تفريطهم، فهنالك يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فات، ولكن هيهات هيهات فلن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها. وذلك ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}: أي: للدنيا بعدها.

قال تعالى:

{وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (١)

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (٢)

ثم ضرب لنا تعالى مثلاً آخر عن المنافقين تجاه ما يُتلى عليهم من آيات القرآن الكريم فقال تعالى:

---

١ – سورة المنافقون: الآية (١٠-١١).

٢ – سورة المؤمنون: الآية (٩٩ –١٠٠).

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وتأويلاً لمعنى هذه الآية الكريمة نقول:

الصيِّب: مأخوذة من أصاب وهو سحاب من السماء. تقول: أصاب السحاب بمطره الأرض، أي: وقع مطره عليها فهو صيِّب. وهكذا فالصيِّب: إنما تعني صاحب الإصابة، أي: السحاب الذي يصيب مطره الأرض. وقد عنت به الآية الكريمة هنا على وجه الاستعارة "القرآن الكريم" قال تعالى:

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ...} [١]

فالقرآن الكريم بما فيه من هداية إلى طريق معرفة الله تعالى، وبما فيه من دلالة إلى سبيل الحق والخير كالسحاب الذي يُصيب مطره الأرض العطشى فيروي ظمأها ويكون سبباً في حياتها بعد موتها.

وأما الظُلُمَات: وهي سواد، فهي ما ينشأ عن هذه الغيوم المنطوية تحت كلمة **(صيِّب)** من حُجُبٍ لنور الشمس، فإذا ما انجلت السماء وعاد النور تمتَّعت الأرض بهذه الشمس بعد نزول المطر عليها متعةً كلها خير وخصب.

وهكذا فالقرآن الكريم إنما ينطوي على آيات تحجر على المنافق شهواته التي هي نوره ومطمع أمله في الحياة، فإن هو طبَّق دلالة القرآن وسار عليها وأشرق في نفسه نور خالقه فهنالك يعود إلى الشهوات من وجهها العالي الذي يرجع عليه بالسعادة في دنياه وآخرته، فلا يعود مثلاً يأخذ ما يشتهيه من المال عن

---

١ - سورة الإسراء: الآية (٨٢).

طريق الغش والخداع، ولكن من طريق الكسب المشروع والنصح في البيع ويكون هذا المال بسبب إنفاقه إيَّاه في وجوهه المشروعة عوناً له على الوصول إلى السعادة والقرب زُلفى من خالقه.

وهكذا فالظلمات إنما يراد بها تلك الآيات التي تمنع المنافق من الشهوات التي يباشرها من تلك الطريق الملتوية والوجه المنحط فهو لا يريد أن تحجره عنها وبيانك يقع ظلمة عليه لأن شهواته كما يراها كل أمله من هذه الحياة، ولو عقل ما عقله المؤمن من رحمة الله تعالى وحنانه لما رأى في هذا الحجر والمنع إلاَّ كل خير. فالطفل الصغير قد تحجره عن أن يبري قلمه بموس الحلاقة فيغضب ويبكي ويرى في منعه منه ظلماً وتحول بينه وبين ما يتمنَّاه ولو كان عاقلاً لرأى في ذلك الخير والوقاية من جرحٍ أو قطع إصبعه، ولو عقل المنافق لرأى في ذلك الخير والنور والسعادة الحقّة.

فالظلمات: تتضمن التحذيرات بالقرآن من الموت، النار وما في القيامة.

وأما الرعد: فهو الدويُّ ينشأ من اضطراب شيء عندما يصدمه شيء آخر. تقول: رعد الهواء، أي: اضطرب متموِّجاً تموّجاً عظيماً بسبب كهربائية البرق. وتقول: رعد الرجل، أي: اضطرب بسبب خوفه من أمرٍ ما. وهكذا فمن آيات القرآن الكريم ما فيه رعد، أي أن قسماً منها يلقي الاضطراب في قلب المنافق بسبب ما يسمعه من الإنذارات بالعذاب، ووصْف لحال أهل النار واضطرابهم فيها وحسرتهم على الدنيا بتفريطهم بجنب الله. فإذا ما سمع المنافق أمثال هذه الآيات رعد واضطرب وخشي على نفسه. والرعد: مجمل التهديدات إن لم تتَّق يحصل لك بلاء وشدائد مريرة.

والبرق: مأخوذة من بَرَقَ وهو لمعان، وبرقَ بمعنى: لمع وظهر حيناً ثم اختفى. فبسبب الاحتكاك بين السحب المختلفة الكهربائية تحصل تلك الشرارة التي تضيء وجه الأرض حيناً ثم تختفي.

فهكذا كل ما يُنير سريعاً ويختفي فهو برق ومن الآيات الكريمة ما يصف أحوال أهل الجنة ونعيمها وأُكلها الدائم. فإذا ما برق ذلك للمنافق وسمع به التفت إليه طمعاً في ذلك النعيم وحبّاً بإشباع شهواته منه. والبرق هنا يشير إلى المبشِّرات.

والصواعق: جمع صاعقة، وهي كل ما يفاجئك بشدة فلا ترى منه مخلصاً ولا تجد مفرّاً، يُقال: نزلت صاعقة من السماء، أي: حصل تفريغ كهربائي سريع وشديد فكان سبباً في دمار منزل أو هلاك أُناس. ويُقال: نزلت بالقوم صاعقة العذاب، أي: أصيبوا بعذاب شديد مفاجئ. وتقول: صُعق فلان، أي: نزل به موت مفاجئ وشديد، وهكذا فالصواعق إنما تعني الإنذارات بالموت وانقضاء هذه الدنيا السريع.

فإذا ما سمع المنافق بما يُتلى عليه من الآيات الواردة بهذا الخصوص والمبيِّنة سرعة انقضاء هذه الدنيا وزوال هذه الحياة المفاجئ وما في الآخرة تألَّمَ ولم يُرِدْ أن يسمع.. وذلك ما عنته كلمة:

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ).

فقد عبَّر تعالى عن الإعراض الكلي عن السماع بوضع الأصابع في الآذان لأنه نهاية في عدم وصول القول إلى الأذن. ولكن مهما طالت الحياة بهذا الإنسان فلا بدَّ له من الموت وهل يأبق "يفرُّ" الإنسان من ملَك ربِّه؟. وهل يستطيع الخروج من الأرض أو ينفذ من السماء والله تعالى محيط بالكون.. وأينما فررت فأنت في ملكه وبين يديه وذلك ما عنته كلمة:

(وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ): فأين تهرب، هل لك من مهرب!.

ثم إنَّ الله تعالى عبَّر لنا عن حال المنافق تجاه ما يسمعه من الآيات الكريمة المبشِّرة بالجنة ونعيمها بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ).

فهذه الآيات الكريمة الواردة في القرآن الكريم والتي تصف حال أهل الجنة وسرورهم فيها إنما شبَّهها الله تعالى بالبرق.

وذلك ما نفهمه من كلمة: **(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ)**: حين يسمع عن الجنَّة ونعيمها يفرح.

أي: تكاد هذه الآيات تجتذبهم إلى الإيمان.. ولكن إذا أنت تلوت عليهم الآيات الأخرى التي تُحذِّرهم من العذاب وتبيِّن لهم أن هذا النعيم الذي وعد الله به المتقين في الجنَّة لا يكون إلاَّ بترك المنكرات وهجر ما هم مستغرقون فيه من الشهوات الدنيوية الدنيئة، أي: إن سمع أحدهم أنه يجب أن يستقيم فلا يعمل العمل المنحط لا يحب السماع، قاموا عنك منصرفين لا يريدون أن يسمعوا هذا البيان والتحذير لأنه يريد الرذيلة والملاهي والجنَّة، فعندما تقول له حب الدنيا لا يجتمع مع الجنَّة ينصرف. ولذلك قال تعالى:

(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا).

ثم بيَّن لنا تعالى أن المنافق امرؤ فيه قابلية للإيمان والحياة، فما دام يقرُّ بوجود خالقه ومربِّيه، وما دام يصحب المؤمنين ويجلس في مجالس العلم والخير فمن المرجوِّ له في يوم من الأيام أن يصحو من سكرته ويفيق من رقدته فيؤمن بالله العظيم ويسلك السبيل القويم وهنالك يخلص من النفاق ويدخل في عداد المؤمنين، ولذلك ومن رحمة الله تعالى به أنه لا يطمس على سمعه وبصره، بل يهيِّء له دوماً من ينصحه ويُحذِّره مما هو واقع فيه ولذلك قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ): هذا ليس كالكفرة فأولئك لا يسمعون. لكن المنافق يسمع إلاَّ أنه لا يطبِّق فلعلَّه يطبِّق لذا لا يذهب الله تعالى بسمعه. قابلية شفائهم تجعله تعالى يُمهِلهُم ويحلم عليهم فإن هم عادوا ورجعوا إليه أنار قلوبهم مهما تكن مُظلمة ويطهِّر نفوسهم مهما تكن خبيثة منحطة، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

فلا تيأس أيها الإنسان من رحمة ربِّك ولا تقنطنَّ من عفوه ومغفرته. فإذا أنت تبت إليه قَبِلَ توبتك وعفا عن سيِّئاتك ومهما عَظُم الذنب فمغفرته تعالى أوسع ومهما كثرت الخطايا فحنانه تعالى عليك أكثر وفضله عليك أعظم وأكبر، قال تعالى:

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} (١)

* * *

أما وقد بيَّن الله تعالى لنا أحوال كل من المؤمنين والكافرين والمنافقين، فقد أراد تعالى أن يدعو الناس كافة إلى عبادته والسير ضمن دلالته التي أنزلها على عبده ورسوله، وأن يحذِّرهم من مخالفة أمره ويبشِّر المؤمنين الذين أذعنوا لأمره وساروا ضمن نصيحته بجنَّته ولذلك قال تعالى:

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

---

١ – سورة الشورى: الآية (٢٥-٢٦).

الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

ونبدأ بالآية الكريمة وهي قوله تعالى:

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فنقول:

جاء الخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّهاً للناس عامة، إذ قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ): جمعت كل البشر.

والناس: إنما تعني النوع الإنساني، وقد سُمُّوا بالناس لما في الإنسان من القابلية إن أناب إلى ربِّه وأعرض عن دنياه الزائلة لأن يأنس بالله تعالى ويأنس به الخلْق. فالإنسان إذا عرف خالقه، وخالطت محبّة الله تعالى قلبه فهنالك تأنس به وتُسر بصحبته أكثر من كل مخلوق على وجه البسيطة، فإذا كان الإنسان إنما يأنس وتستريح نفسه بصحبة حصان أصيل أو بقرة ذلولٍ أو طير وديع فأحرى به أن يأنس بصحبة أخيه الإنسان إذا كان طيِّب القلب صافي النفس مملوءاً قلبه بتلك العواطف السامية والصفات الإنسانية النبيلة العالية، مماثلاً لجليسه في محبَّة الله والعشق له والإقبال عليه.

أما ما نراه اليوم من كراهية الإنسان لمجالسة الناس فما ذلك إلاَّ لامتلاء قلوبهم بالإعراض عن الله واستيلاء الخبث والشرّ على نفوسهم، فإذا ما جالستهم

وانعكست أحوالهم في نفسك حصل لك الضيق والمقت وتمنَّيت لو تجلس إلى حيوان أو تنفرد وحدك.

وفي الحديث الشريف: «**الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة**» [1]

والمؤمن إنما يأنس بالمؤمن ويرتاح قلبه معه، ويؤيد ذلك ما رُوي عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا إذا جلس بعضهم إلى بعض قال أحدهم لصاحبه: اجلس بنا نؤمن ساعة.

وتُبيِّن لنا ذلك كله الآية الكريمة التي تأمرنا بأن نصل نفوسنا بنفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة، إذ قال تعالى في كتابه الكريم:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [2]

فبهذه الصلة النفسية برسول الله ﷺ يحصل لك الأنس بالله والاستغراق بمشاهدة كمال الله ومن لم يعرف رسول الله ﷺ فقد خسر خسراناً مبيناً وهو الأبتر البعيد عن الله المحروم من الخير كل الحرمان.

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ): أي اسمع أوامر الذي خلقك، ما أصلك؟. كيف صارت النطفة إنساناً!. شجرة بدون عناية هل تعيش؟. أرض لو ظلَّت دهوراً أتنقلب إلى بستان جميل؟. وأنت من ربَّاك؟.

أما العبادة التي تتضمنها كلمة **(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)** فإنما تعني: دوام الامتثال وإن شئت فقل ملازمة الطاعة على الاستمرار. فالطاعة إنما هي امتثال أمر من

---

١ – الجامع الصغير: /٩٦٩٤/ (ك هب) عن أبي ذر.

٢ – سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

الأمور على حين أن العبادة هي دوام الامتثال في كل أمر من الأمور عن قبول ورضى.

والرب: هو المربِّي الممد بالحياة. ولنستطيع فهم كلمة **{رب}** نقول:

بين كلمة **{رب}** و "ربا" تقارُب في اللفظ يماثله تقارب في المعنى، تقول: ربا الزرع إذا ازداد نموّه، وربت الثمرة، أي: ازداد حجمها وكبرت، ومنه المربَّى وهو الثمر الذي يُطبخ بالسكر فيتشرَّب السكر ويزداد حجمه بسبب ما يمتصه منه.

وهكذا فكلمة **{رب}** إنما تعني الخالق الذي يمدُّك بما يساعدك على النمو وبقاء الحياة. فهو يمدُّك بالطعام والشراب ويؤمِّن لك الهواء النقي والحرارة والنور ويقلِّب لك الليل والنهار ويهيء لك كل ما يتطلَّبه نماؤك وبقاؤك وهو والحالة هذه ربّك وأنت مفتقر لفضله في كل لحظة من لحظاتك محتاج إليه. إنه يربِّيك الآن كبيراً كما ربَّاك من قبل لمَّا كنت طفلاً صغيراً، إذ كان يؤمِّن لك غذاءك المناسب في ثديي أمك ويجمعه لك بنسب متوافقة مع سنّك واحتياجك، وقد ربَّاك سابقاً لمَّا كنت جنيناً في بطن أمك يوم كنت لا تملك لنفسك خيراً ولا تدفع عنها ضرّاً، فكان يسوق الدم الحامل للغذاء لكل عضو من أعضائك بقدر ما يحتاج، وما زالت تربيته وعنايته مستمرة حتى تمَّ خلقك وصرت إنساناً سوياً.

ثم إنك إذا أمعنت النظر أيضاً وجدت أنه تعالى إنما يمدُّ الآن كل عضو من أعضائك بما يحتاج من مواد ويهيء لكل جهاز من أجهزتك ما يتطلَّبه من إفرازات وفوق ذلك كله إنما يمدُّك بالروح التي تتأمَّن حياتك بها، وإلى جانب ذلك كله أنه تعالى يمدُّ نفسك بالحياة كما يمدُّ جسمك بالروح.. ولولا إمداده تعالى المتواصل لانطفأت شعلة النفس، بل لزالت من الوجود ولم يبقَ لك أثر.

وإن نحن شبَّهنا الإنسان بفتيل سراج مشتعل نجد أن دوام الاشتعال يتوقف على الزيت الساري في كل ذرة من ذرات الفتيل. وهكذا بقاء حياتك وإن شئت

فقل: دوام وجودك يتوقف على دوام الإمداد الإلٓهي الساري في كل ذرة، لا بل القائمة به كل ذرةٍ من ذراتك. أفتعبد بعد هذا كله غير ربّك وتطيع سواه ممَّن لا يملك لك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

ذلك بعض ما نفهمه من كلمة: **﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾**.

أما كلمة **﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾** فهي إنما تشير إلى مراحل عديدة في الخلق كما أشارت من قبلها كلمة **﴿رَبَّكُمُ﴾**.

فالخلْق: هو الإيجاد في الأصل والإخراج إلى عالم الوجود. فالذي أخرجك إلى الوجود في عالم الأزل نفساً مجرَّدة، والذي خلقك في بطن أمك خلْقاً من بعد خلْق في أطوار متعددة، والذي أخرجك إلى هذه الدنيا وسوَّاك بهذا الحال من الكمال، هذا الخالق الذي خلقك وربَّاك هو الحقيق بالعبادة، الجدير أن يُطاع على الدوام **﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** أي: من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى الآن. فإن فكَّرت هذا التفكير بأصلك، وأنَّ أرضاً لو بقيت دهوراً أتنقلب لبستان جميل؟. النطفة كيف صارت إنساناً!. وشجرة بدون عناية أتعيش؟. وأنت من ربَّاك فإن عرفت المربِّي وسرت ضمن ما أمرك به وصلت إلى التقوى التي تحدَّث لك تعالى عنها في مطلع هذه السورة الكريمة، ولذلك ختم تعالى هذه الآية بقوله: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**.

أي: إذا أنتم طبَّقتم دلالة ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم كان ذلك سبباً في وصولكم إلى التقوى فرأيتم الخير خيراً والشر شرّاً وعرفتم أن كل ما يأمركم به هذا الخالق المنعم والربّ الممد المتفضِّل إنما هو لخيركم وسعادتكم. أي: إن عرفت المربِّي وعرفت لا إلٓه إلا الله صلَّيتْ عندها تصل للتقوى. كل الأوامر لتصل للصلاة لأن الكمال من الله، إن لم تصلِّ فلن تصبح كاملاً.. تارك الصلاة لا خير فيه.

على أن العبادة التي أمرت بها هذه الآية الكريمة لا تعني كما يتبادر لبعض الأذهان الاقتصار على بعض الأوامر الإلّهية من صلاة وصيام وحج وزكاة وتسبيح وقراءة قرآن إلى غير ذلك مما اصطلحوا على تسميته بالعبادات. فإن الإنسان إذا قام بهذه الأعمال مقتصراً عليها لا يكون قد عبد ربَّه حق العبادة، لأن العبادة كما قدَّمنا هي دوام الامتثال في كل أمر من الأمور ولزوم الطاعة على الاستمرار عن رضى وكامل محبّة وقبول.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن كلمة "العبادة" ينطوي تحتها سير الإنسان ضمن أوامر ربّه في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه وبيعه وشرائه ومعاملته لزوجته وتربية أولاده، لا بل في كل شأن من شؤونه، ورأس العبادة وأهم شيء فيها أن يسلك الإنسان طريق التفكير فيتعرَّف عن طريق النظر والاستدلال إلى خالقه ومربِّيه ومسيِّره الذي تفرَّد بتدبير شؤون السموات والأرض والذي إليه وحده المرجع في كل شيء. وذلك ما عبَّرت عنه كلمة «**لا إلّه إلا الله**» التي هي أول ركن من أركان الإسلام.

وهكذا فكلمة (**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**) تأمر الإنسان أن يخضع للأمر الإلّهي منذ أول خطوة من خطوات سيْره، وفي كل عمل من أعماله دون أدنى ميل أو انحراف.

وكيف ينحرف الإنسان عن تطبيق أوامره تعالى أو يحيد، وما الأوامر الإلّهية إلاَّ وصايا وتحذيرات تُبيِّن للإنسان ما يجب أن يفعله وما يجب أن لا يفعله ليكون سعيداً في هذه الحياة الدنيا وفي تلك الحياة الأبدية، سعادة ليس لها حدٌّ ولا انتهاء.

وإذا كان الواحد منا يُطيع أوامر طبيبه ولا يخرج عن تعاليمه وتطبيق وصاياه في استعمال دوائه الذي وصفه له أو القيام ببعض الإسعافات الضرورية أو الامتناع والحمية عن بعض الأطعمة والأشربة ولو كانت مرغوبة لديه، أقول: إذا

كان الواحد منا يأتمر بأمر هذا الطبيب العالم المخلص ولا يخالفه في شيء ويحجز نفسه عن شهواتها التي منعه عنها رغبة في الوصول إلى الصحة والشفاء العاجل، أيخالف الإنسان خالقه الذي خلقه وأوجده وهو سبحانه العليم بما ينفع هذا الإنسان وما يضرُّه وهو الرحيم به العطوف عليه فلا يأمره إلاَّ بما يجلب له الخير والهناء ولا ينهاه إلاَّ عمَّا يُسبِّب له التعاسة والشقاء.

أفتخالف أيها الإنسان خالقك الذي خلقك وأخرجك إلى هذه الدنيا لتنال السعادة الحقيقية وتحيا من بعدها حياة طيِّبة أبدية؟.

وإذا كنت حينما تشتري آلة من الآلات أو اختراعاً من المخترعات إنما تنظر أول ما تنظر إلى النشرة المرفقة به فتدرسها وتتعلَّم كيفية الاستعمال، ثم تحاول تطبيق ما ورد في النشرة من وصايا وتعليمات، وتحذر كل الحذر مخالفة ذلك تجنُّباً لما قد ينشأ عن هذه المخالفة من مخاطر وأضرار، وعلماً منك بأن المعمل أو المصنع الذي صنع هذه الآلة هو أدرى بكيفية الاستعمال، أقول: إذا كان الإنسان يفعل ذلك ويحرص عليه تجنُّباً للأذى وحبّاً بالسلامة والخير، أفلا يجدر بهذا الإنسان أن يتَّبع تعاليم خالقه الذي خلقه وأتقن صنعه وخلق الكون كله من أجله؟. أفلا يجب عليه أن يطيع ربَّه الذي فطره على هذا الكمال وأنزل له على لسان رسوله من التعاليم وشرع له من الدين ما يجعله سعيداً مدى الدهر وأبد الآباد؟. وهل يخرج العاقل عن عبادة ربّه وطاعته ويلحق بشهوة زيَّنها له الشيطان وأغواه بها هذا العدو الذي حذَّره منه الله تعالى؟.

هذا وقد ندَّد تعالى بمن يلحق هواه ولا يبتغي إلى الحق سبيلاً بقوله الكريم:

{أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [1]

وأشار تعالى يذكر رسوله الكريم في طاعته لربِّه وإخلاصه في عبادته بقوله تعالى:

{قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [2]

وقبل الانتقال من تأويل هذه الآية الكريمة لا بد لنا أن نقف قليلاً عند كلمة: **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** فنقول:

كنّا بيَّنا من قبل أن التقوى إنما هي أن تستر نفسك عن الأذى وتتقي الوقوع في المهالك بذلك النور الإلّهي الذي تكتسبه نفسك من الله عند دخولها على الله تعالى بصحبة رسوله الكريم ﷺ . فإن أنت عبدت ربّك أي سرت ضمن ما بيَّنه لك كنت أهلاً للوصول إلى التقوى. وإن كلمة **(لَعَلَّكُمْ)** إنما تعطينا فكرة جليَّة عن قابلية الناس جميعاً للوصول إلى التقوى. فالناس في هذه القابلية سواءٌ، فإن هم سلكوا الطريق المؤدي إلى التقوى كان ذلك سبباً في بلوغهم هذه المنزلة العالية، وإذا كان كل شيء في هذا الكون إنما يعمل ضمن قانون ويسير وفق سنَّة كونية ثابتة، وإذا كنا لا نستطيع أن نحصل على مادة من المواد الكيماوية ولا نصل إلى غايتنا ما لم نُراعِ النسب الضرورية ونعالج المواد الأساسية ببعضها ضمن شرائط معيَّنة، فكذلك النفس البشرية لها قوانينها وأنظمتها فهي لا تستطيع أن تقبل بوجهها على خالقها وتستنير بنوره، وإن شئت فقل: إنها لا تصل إلى التقوى

---

١ – سورة الفرقان: الآية (٤٣–٤٤).

٢ – سورة الزمر: الآية (١٤–١٥).

وليس يمكنها أن ترى الحقائق ما لم تطبِّق تلك القوانين التي رسمها لها خالقها والتي نزَّل كتابه الكريم على رسوله ليُعرِّف عباده بها.

فالمشيئة والطلب وإن شئت فقل الصدق في طلب معرفة الحقيقة، هذا الصدق الذي هو أول ما يجب أن يتوفَّر في نفس الإنسان لا نستطيع أن نتحقَّق به إلاَّ إذا فكَّرنا نحن بالموت وأيقنَّا أنه لا بدَّ من زوال هذه الدنيا وسرعة انقضائها، فإذا نحن عرفنا هذه الحقيقة وأيقنَّا بها فعند ذلك يتولَّد في نفوسنا صدق الطلب وتثبت فيها المشيئة والاختيار ويدفع الصدق جهاز التفكير فيتسارع منطلقاً في البحث وراء معرفة المربِّي المشرف على تربية هذا الإنسان، وإنه ما أن يصل إلى معرفة المربِّي حتى ينطلق باحثاً وراء معرفة الإله، أي: المسيِّر الذي بيده تصريف شؤون الكون كله. وما يزال كذلك حتى ينتهي إلى بلوغ هذه المرحلة الثانية، فإن هو عرف ربَّه وإلهه فهنالك يخشاه ويستقيم على أمره وإنه ليسير في طريق التقوى التي كنا بيَّنا خطواتها آنفاً حتى يبلغ أمنيته منها ويدخل في عداد المتقين.

ذلك كله إنما توحيه كلمة **(لَعَلَّكُمْ)** فهي تعرِّفنا بأن للنفس قوانينها وسننها وهي تُبيِّن لنا أن المرء حرٌّ في اختياره، مطلق في طلبه ومشيئته، ولو لم يكن الإنسان مخيّراً لما أورد تعالى هذه الكلمة **(لَعَلَّكُمْ)** ولما أمرنا بالعبادة، بل لما شرع لنا هذه الشرائع ولما أرسل الرسل والكتب والأحكام.

وهكذا فنفسك أيها الإنسان في سبيل وصولها إلى الحقائق خاضعة لسنن وقوانين ثابتة، وأنت مسؤول عن تقصيرك في القيام بما يترتب عليك من أعمال موصلة إلى التقوى ومنازل الكمال، وإذا أنت ألقيت لنفسك العنان فجعلت تمشي مكبّاً على وجهك واتَّخذت إلهك هواك ثم تمنَّيت على الله الأماني فقد خسرتَ

نفسك وضيَّعت عمرك الثمين وليس لك في الآخرة خلاق، وقد أشار ﷺ في حديثه الشريف إلى هذا حيث يقول:

«الكيّس من دان نفسه وعمل لِما بعد الموت، والعاجز من أَتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني» [1]

وبعد أن عرَّفنا الله تعالى بأن للنفس اختيارها بكلمة **(لَعَلَّكُمْ)** أي: إن سلكتم الطريق الذي أمرناكم بها من عبادة ربِّكم تنالون التقوى، كما أراد تعالى أن يُعرِّفنا بناحية من نواحي تربيته فقال تعالى:

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً}: كل ما تحب تجده مهيَّأً لك.

{وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}: السماء بواسطتها ينزل المطر، ينبت الزرع، وهي تبني لك كل هذا.

ولتأويل هذه الآية الكريمة نقول:

الفراش: مأخوذة من فَرَشَ، تقول: فرش فلان الثوب، أي: بسطه، وفرش الأمر، أي: بثَّه ونشره، وفرش الزرع، أي: امتدت أوراقه وانتشرت.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الفراش: كل ما يُبسط ويُهيأ ليكون موقعاً للراحة مهْداً للحياة الهادئة. يُقال: فراش الطائر عشّه، وفراش اللسان موقعه من الفم. وهكذا فالأرض في هذا الكون اللامتناهي إنما هي فراش لهذا الإنسان وهي له بمثابة العش للطائر، فكما أن العش محمول على أغصان مرتفعة وكما أنه مكين ثابت لا يضطرب، وكما أنه ليِّن لا يؤذي الطائر ولا ينغِّصه، فكذلك الأرض بمثابة العش للإنسان فهي محمولة في هذا الفضاء ثابتة من أن تميد بك، ممهَّدة مذلَّلة لك وما عليك أيها الإنسان حتى تعرف ربَّك وتقدِّره إلاَّ أن تنظر إلى هذا الكون

---

١ - مسند الإمام أحمد: ج/٤ ص١٢٤.

وتفكِّر كيف أن الأرض فراشك وموقعك منه. فأنت في مركز هذا الوجود وعلى سطح هذه الأرض، فمن الذي وضعك وألقاك فيها؟. ومن الذي ذلَّلها لك ومهَّدها؟. من الذي تحرسك عينه ولا تنام؟. ومن الذي يرعاك ويشرف عليك بالليل والنهار؟.

أما كلمة **(السَّمَاءَ)** فإنما هي مأخوذة من سما، بمعنى: علا وارتفع. تقول: سما فلان إلى كذا، أي: شَخَصَ. وسمت نفسي إلى معالي الأمور. والسماء كل ما علاك فأظلَّك، تقول: سماء المدينة وسماء الغرفة وسماء الكون وهكذا، فهذه النجوم المتشابكة في هذا الفضاء من فوق الأرض إنما هي أيضاً سماء، فهي سماء في علوِّها وارتفاعها فوقك وهي بناء في تشابك بعضها في بعض ووقوفها متماسكة في هذا الفضاء. ولو أنك تصوَّرت هذه الآلاف المؤلَّفة من النجوم التي تسير متجاذبة في مجاريها لا تخرج عنها قليلاً ولا كثيراً، ولو أنك فكَّرت في عظيم أجرامها وضخامة كتلها وعرفت أن كتلة بعضها تفوق الكرة الأرضية بآلاف آلاف المرات، ولو أنك أمعنت النظر قليلاً في تماسكها وقيامها وبنائها بناءً مُحكماً متماسكة أجرامه وبين كل جرم وجرم آلاف السنين الضوئية لهالَك الأمر فاستعظمت تلك القوة التي تسري فيها جميعها فتجعلها تتماسك وتتجاذب وتجري على هذا النظام فيما رُسم لها من مجارٍ وأفلاك.

أقول إذا فكَّرت هذا التفكير فلا شك أنك تدرك طرفاً من عظمة خالقك العظيم وقدرة ربّك العلي الكبير، وذلك ما نفهمه من الآية الكريمة في قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً).

ولا يظن ظانٌّ أن كلمة **(وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)** إنما يقتصر معناها على ما بيَّناه في شرحنا السابق من حيث وقوف هذه النجوم متماسكة متشابكة في السماء، بل إن

كل بناء جسدي لكافة المخلوقات الحيَّة شاملة الإنسان والحيوان والنبات وكل ما تسري به الحياة إنما هو من عمل السماء وبنائها، بل وبقاؤها جميعها مبني على إمداد السماء ورجْعها على الأرض بالأنوار والأمطار والخيرات.

{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} (١)

فهذه النجوم المتماسكة إنما هي ناحية من النواحي التي تصفها كلمة **(السَّمَاء)**، وكلمة السَّمَاء إنما تشمل أشياء كثيرة سنفصِّلها في مواضعها من هذه السورة ببعض التفصيل وكل ما تراه محيطاً بهذه الأرض من فوقها فهو سماء وبناء ويستلفت نظرك ويستحق أن تُعمل فيه فكرك لتتوصَّل إلى معرفة خالقك ومربِّيك.

ثم لفت تعالى نظرنا إلى نزول الأمطار من السماء فقال تعالى:

{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ}.

وتريد هذه الآية الكريمة الآن أن تعرِّفنا بفضل ربّنا علينا وتُذكِّرنا بناحية أخرى من نواحي تربيته إيّانا. فلنفكِّر الآن بهذا النظام الذي يتم بموجبه نزول الأمطار من السماء ولنتساءل:

من الذي أوجد على سطح هذه الأرض تلك الجيوب الواسعة وملأها بهذا الماء وجعل من البحر مستودعاً عظيماً تستمد منه الأمطار ماءها؟. من الذي جعل الشمس سراجاً وهَّاجاً تضرب بأشعتها الحارَّة سطح البحار فيتبخَّر ماؤها بلطف رائع وخفاء على شكل بخار ماء تجعله يعلو متصاعداً في طبقات الهواء؟. من الذي يؤلِّف بين هذه الذرات فيجعلها ركاماً تجري بنظام مغدق مونق في الفضاء؟. هل هذه الذرَّات، ذرَّات عاقلة مفكِّرة تنتظم بهذا النظام البديع الذي

---

١ - سورة الذاريات: الآية (٢٢).

يكاد يذهب بالأبصار إلى مبدعها، هل هي بذاتها تنظِّم هذا النظام المزهر المثمر؟. أم أنت الذي تنظِّمها يا إنسان؟. انظر مدقِّقاً مفكِّراً بها، هل أنت مبدعها؟. ابحث طالباً مبدعها الذي أبدعها وأبدعك وأبدع الكون كله لأجلك من هو؟. وأين هو، اطلبه تجده فإن وجدته أبدع لك ما لا عين رأت. ما هذه القوة الجاذبة التي تتمركز في وسط السماء فتجذب إليها جميع الذرات وتجعل من السحابة الواحدة وحدة متجاذبة أجزاؤها، متماسكة ذرَّاتها؟.

ما هذه الرياح التي تهبُّ هبوبها المنظَّم فتُشكِّل من بخار الماء الخفي عن الأعين غيوماً وسحاباً فتسوق السحب من مواطن تشكُّلها وولادتها إلى مواطن هطولها والمناطق التي يجب أن تنعقد فيها أمطارها؟. هل هي الرياح من ذاتها تفعل ما تفعل، أم أنَّ وراءها يداً عليمة منظِّمة مسيطرة قادرة؟.

من الذي يجعل هذا الجوّ السماوي حين هطول الأمطار بارداً شديد البرودة؟. من الذي يكهرب الجو تلك الكهربة؟. هل بذاتها من ذاتها؟.

من الذي يغيِّر الضغط الجوي ويجعل من ذلك سبباً عاملاً في تقارب ذرَّات السحاب وتكاثفها ثم فصلها وإنزالها نقاطاً فرادى، وللعجب العجاب أن نقاط الأمطار هذه لا تنضم لبعضها بعضاً، إذ لو انضمت هذه المياه لبعضها ونزلت على شكل أنهار من السماء لخرَّبت ما على سطح وجه البسيطة، من المسيطر على كل نقطة حتى تصل الأرض لوحدها فرادى وهطولها أمطاراً؟. من المهيمن على كلِّ ذرَّة ماء وندفة ثلج فيسيِّرها حتى تصل إلى الأرض دون تصادم ولا التحام، بل تصل فرادى كلٌّ منها لوحدها؟.

ذلك كله إنما تعمله يد ذلك الرب العطوف الرحيم بنا الذي خلقنا والذين من قبلنا.. وذلك طرف مما نفهمه من كلمة:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً).

فما أعظم التقوى ووصول النفس إلى هذا الرب العظيم المحبّ الرحيم!. وصولاً شهودياً لأسمائه الحسنى يقينياً لا ريب فيه!.

* * *

ولكن ما هي فائدة هذا الماء الذي يهطل من السماء؟.

لقد بيَّنت لنا ذلك الكلمة التالية في قوله تعالى:

(فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ).

هذا الماء المتساقط من السماء، هذا الماء الذي يحوي ما يحويه من الحيويات "فيتامينات" إنما تتلقفه الأرض ويمتصه التراب، فإذا ما صادف جذور النباتات سرى فيها السريان البطيء وكان سبباً في تشكُّل هذه الثمرات.

فمن الذي خلق وأوجد هذه الحيويات وأنزلها منطوية في ذرات المطر المتساقط من السماء؟. من الذي يوزِّع كل نوع من أنواع هذه الحيويات الموجودة في هذا الماء إلى مواطنها فيسوق لكل شجرة، لا بل لكل ثمرة نوع الحيويات المناسب ونسبته الخاصة؟. أليس من يفعل كل ذلك بصيراً مشاهداً عليماً!.

من الذي يُحلِّل للنبات ما يحلِّل من المواد المشحونة في التراب ويجعلها مع الماء الهاطل من السماء غذاء لهذا النبات وذخيرة مكتنزة في مواطنها الخاصة بها؟.

فمن النبات ما يكنز السكر ومنه ما يكنز النشاء ومنه ما يحتوي على الحديد والفوسفور، والمغنزيوم، والآزوت، والمركبات النحاسية أو الكلسية، والزيوت الدهنية، والمواد الكبريتية وغير ذلك من الأملاح المعدنية والمواد العطرية والأصبغة المختلفة، والأشكال المهندسة البديعة. أفكل هذه الجمادات الفعَّالة ذوات عاقلة مهندسة مبدعة، أم أن هناك يد عُليا تشده العقول بصنعها وتأخذ بالألباب؟.

من الذي يجعل من النبات والثمر الحلو والحامض والوسط بين الحامض والحلو والحد والمر؟. ما هذه اليد العظيمة التي تصنع هذه المواد الكيماوية وتضع منها في كل ثمرة معاييرها المناسبة ووحداتها اللازمة؟. من الذي يصبغ الثمرات بألوانها البالغة في الإعجاز والإنجاز والجمال والكمال، من الذي يغلِّفها بأبدع غلاف فيحفظها من الفساد والأذى؟. يد من تفعل هذه الفنون والمعجزات؟.

إنك إذا أردت أن تبحث في هذا الموضوع، موضوع النباتات لَمَا كفتك سنوات وأعوام، ولأعوزتك المؤلَّفات والمجلَّدات للبحث في ناحية واحدة من نواحي هذه النباتات، حتى أن الثمرة الواحدة إذا أردت أن تحلِّل قشرتها ولبّها وجذورها وجذور نبتتها وساقها وأوراقها وجدت في كل جزء من أجزائها نوعاً من أنواع الحيويات "فيتامينات" المختلفة عن غيرها. وإذا رجعت إلى خصائصها ومنابتها وأردت أن تجول جولتك في ناحية من نواحيها لهالك الأمر ولعرفت أن ذلك كله لا بد له من يد عليمة حكيمة، وقادرة رحيمة تخلق ما تخلق وتوجد ما توجد وتسوق ما تسوق فتُخرج بهذا الماء النازل من السماء رزقاً لك أيضاً، وهذا طرف مما يتوارد لنا من معان انطوت عليها كلمة:

(فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ).

ففكِّر في هذا الرزق وتعرَّف إلى ربِّك الذي يمدُّك به والذي أنت دوماً فقير إليه، محتاج لفضله وهو سبحانه الغني الحميد.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى طرفاً من تربيته إيَّانا فيما ينزِّل من السماء من الأمطار وما يُخرج لنا به من الثمرات، خاطبنا تعالى بقوله الكريم:

{فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً}: مماثلاً، لا تشارك بأمر الله أحداً، ارجع دوماً لدلالته، لا تطع سواه.

والأنداد: جمع ند، والند: هو المماثل لآخر في ناحية من النواحي أو صفة من الصفات. تقول: هذا التاجر ندٌّ لهذا التاجر، أي: مماثل له في مكانته التجارية وله من الشأن ما لصاحبه. وهذا القائد ندٌّ لذلك القائد، وتقول: صافح الأمير الفلاَّح وجعل يخاطبه مخاطبة الندِ للند، فكأنه في تواضعه وتلاطفه معه يخاطب أميراً مماثلاً له في الشأن.

وهكذا فالإنسان البعيد عن الله، الإنسان المعرض الذي لم ينظر في هذا الكون العظيم فيقدِّر خالقه حقَّ قدره، الإنسان الذي لم يؤمن حقَّ الإيمان ولم يرَ أن مقاليد السموات والأرض كلها بيد الله وحده، هذا الإنسان تراه يحسب أن الأمور إنما تقع على الأرض على حسب ما يقرِّره أفراد النوع البشري، فيرى لفلان يداً في إيقاع هذه القضية، ولفلان فعلاً في إيقاف تلك، وهو يظنُّ أن التزلُّف إلى فلان سبب في وصوله إلى ما يبتغيه، وأن فلاناً الحاكم قد يحكم له بما يريد إذا تودَّد إليه وأغراه بالمال، وأن فلاناً الطبيب رجل ماهر في الطب وقد أعطاه دواء فكان من جراء ذلك أن خلَّصه من مرضه وهو إلى جانب ذلك كله تراه جباناً يخشى لقاء العدو فيحسب أنه لا طاقة له بلقاء عدوّه الكثير في عَدده وعُدده.

وهكذا فالبعيد عن الله يرى أن الناس لهم فعل وقوة وتصرُّف في الوقائع، ولو أنه آمن بلا إله إلاَّ الله حقَّ الإيمان، ولو أنه فكَّر في آيات هذا الكون طالباً الوصول إلى معرفة الله لانتهى به الأمر إلى معرفة تخرجه من هذا الرقّ والعبودية للناس وتجعله عبداً خالصاً لله حرّاً من الخضوع لأي مخلوق مهما كان عظيماً على حسب الصورة، فهو يرى أن الفعل كله بيد الله وحده وما زيد وما عمرو، ولا فلان وفلان إلاَّ صور وآلات، والملهم الحقيقي هو الله والمحرِّك والمسكِّن هو الله، فهو تعالى يُلهم ما يشاء لمن يشاء ويسخِّر من يشاء لمن يشاء

ويجمع من يشاء بمن يشاء ويعزُّمن يشاء ويذلُّ من يشاء، ويؤت الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويسوق لكلٍّ ما يناسبه على حسب حاله وعلى حسب ما استقرَّ في نفسه وأنه تعالى بيده الخير كله، وإلى ذلك أشار الحديث الشريف في قوله ﷺ :

«لكلِّ شيءٍ حقيقة وما بَلَغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكنْ ليُخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكنْ ليُصيبه» [١]

وقوله ﷺ في حديث آخر حيث يوصي ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بعد إيمانه بالله، إذ يقول ﷺ :

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك»[٢].

هذا وبعد أن عرَّفنا تعالى بأنه خلقنا وخلق آباءنا الذين من قبلنا وأنه سبحانه هو المربِّي المشرف على تربيتنا فهو الذي جعل لنا الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لنا، طلب تعالى منَّا:

{فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}:

أي وأنتم تعلمون أن إنزال المطر وإخراج الثمرات بيد الله تعالى وحده وعائد إليه. هل من أحدٍ غيره؟. فالمتكفِّل برزقك والذي بيده معاشك، إليه مردّك في جميع أمورك فلا تظنَّن أن في هذا الكون يداً تعمل غير يده تعالى والكون كله

١- رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.

٢ -رواه الترمذي

خاضع له مسيَّر بأمره وما من شفيع إلاَّ من بعد إذنه، أقول: إذا أنت فكَّرت فيما أورده تعالى لك في صدر هذه الآية الكريمة وكنت صادقاً في طلب الحقيقة انتهيت إلى الإيمان بلا إلّه إلاَّ الله وعلمت أن الخلْق كلهم بيد الله، فلا يسوق الخير إلاَّ الله ولا يصرف السوء إلا الله، وما كان من نعمة فمن الله وأنه لا حول ولا قوة إلا به.

أمَّا الذين يعتمدون الإقرار النقلي دون التحقيق لبلوغ الشهود اليقيني العقلي فإيمانهم هذا لا يكفي، فلا بدَّ من الإيمان المبني على التفكير حتى تعقل النفس الوجود الإلّهي والعظمة الإلّهية عقلاً شهودياً، إذ أنَّ «**الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له**»[1]. إن لم تعقل لن تستفيد شيئاً.

وبعد أن عرَّفنا تعالى بذاته وأنه هو الخالق المربِّي والمسيِّر، أراد تعالى أن يُثبت لنا أن هذا البيان الذي جاءنا به سيدنا محمد ﷺ إنما هو كلام الله تعالى وبيانه أنزله على رسوله ليبلِّغنا إيَّاه ولذلك قال تعالى:

{وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا}:

والريب: هو كما رأينا في مطلع هذه السورة: هو "الخروج"، وهو هنا يعني الخروج عن دائرة التصديق برسالة النبي ﷺ إلى دائرة الشك وعدم التصديق.

والعبد: هو الشخص المؤتمر بأمر خالقه المستمر على طاعته فلا يخالفه في أمر من أوامره، والمعني به هنا رسول الله ﷺ ، فهو عبد الله الطائع له في جميع أوامره.

فإن كنت تشك في رسالته وقلت أنا آمنت بالله فقط:

---

١ -أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده (ق١٠٠/١-١٠٤/١ زوائده) عن داود بن المحبّر بضعاً وثلاثين حديثاً في فضل العقل ومنها هذا الحديث.

{فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}: إئتِ بآية مماثلة أو سورة، فهل جاء بها وحده من دون البشر!. لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله؟. كيف أن كل البشر لا يستطيعون!. إذن.. هو رسول الله.

وهذه الكلمة إنما هي شهادة من الله تعالى لرسوله بالعصمة والسير في جميع الأمور وفق المراد الإلَهي.

وهكذا فإذا تحرَّر الإنسان من عبودية شهواته وتسلُّطها، وإذا هو تخلَّص من حظوظ نفسه وانحرافاتها وكان ممَّن لا يهمّه إلاَّ رضاء الله وليس له غاية سواه، فقد أصبح عبداً لله حرّاً من الخضوع لأحد سواه وذلك هو أشرف مقام يتوصَّل إليه الإنسان.

أما الخاضع لشهواته، الأسير لرغباته وهواه، الراغب في إرضاء الناس، الخائف من فلان وفلان، هذا الشخص لم يبلغ بعد مرتبة الإنسان الحرّ وهو ما يزال منحطَّ الصفة لا يستحق أن يُطلق عليه اسم إنسان. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى طرف من ذلك في حديثه الشريف حيث يقول:

«تعس عبدُ الدينار وعبد الدرهمِ وعبدُ الخميصة "البطن"» [١]

ويكون ما نفهمه من كلمة:

(وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا):

أي: إن كنتم لا تؤمنون بأن الدلالة التي جاءكم بها رسولي إنما هي دلالتي، وكنتم تزعمون أنه أتى بها من عنده وأنها من وضعه..

إن كنتم تزعمون هذا **(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ):**

---

١ –أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

والسورة: قريبة في الاشتقاق من كلمة "سوَّر" وكلَّما تقارب المبنى تقارب المعنى، وسوَّر بمعنى: أحاط وحفظ، تقول: سوَّر الحديقة. ومنه كلمة "السور" وهو الحائط يُبنى حول المدينة فيكون في متانته وترابط أجزائه مانعاً من تسلُّط العدو ودخوله، حافظاً لأهلها من المكاره. والسور أيضاً ما طال من البناء إلى جهة السماء.

وهكذا فالسورة من القرآن إنما هي تلك الآيات المجموعة إلى بعضها بعضاً وذات الدلالة العالية، فهي في ترابط آياتها ببعضها بعضاً، وهي في إحكام نظمها وتسلسل المعاني الواردة فيها، وهي في دورانها حول هدف وغاية واحدة وكون ما فيها من الدلالة حصناً حصيناً يحفظ الإنسان الذي يلجأ إلى العمل بها من الوقوع في المصائب والمكاره وهي في ذلك كله أشبه بالسور يحيط بالمدينة فيحفظ أهلها من كل مكروه.

ومن كلمة "سورة" يتبيَّن لنا أن آيات القرآن في السورة الواحدة إنما هي مترابطة في بعضها بعضاً. فكل آية من آياته مرتبطة أوثق ارتباط بما قبلها، مرتبطة بما بعدها، قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله الكريم:

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [١]

فمن وجد هذا الترابط بين آيات القرآن في السورة الواحدة، ومن وجد إحكام الآيات وارتباطها ببعضها بعضاً، ثم وجد ذلك التفصيل، ومن أدرك تلك الدلالة العالية وما ينتج عنها من النفع والخير للمجتمع الإنساني، فقد فهم تأويل القرآن الفهم الصحيح.

---

١ – سورة هود: الآية (١).

أما الذي لا يدرك من ذلك شيئاً فهو بعيد عن الفهم الصحيح، وتأويله لا يُعتمد عليه بوجه من الوجوه ولا نكون مغالين إذا قلنا أن الذي يفسِّر القرآن ذلك التفسير المتقطِّع فلا يبيِّن المراد الإلّهي فيما ورد في الآيات المتشابهة إنما هو غير قريب من الله. وتوضيحاً لهذه النقطة نسوق المثال الآتي فنقول:

إذا كنتُ أسمع حديثاً من شخص من الأشخاص وكنت قريباً من المتكلِّم ذلك القرب المعنوي فإني أفهم ذلك الحديث كله وأرى الترابط بين فقرات حديثه فقرة بفقرة دون أدنى انفصال حتى أن القصص التي يتضمنها حديثه إنما وردت من تأييد الفكرة العامة أو لتكون مثالاً تفصيلياً على ما ورد فيه والحديث كله إنما هو وحدة متَّصلة يُهدف من ورائه إلى غاية معيَّنة هادفة.

أما إذا كنت بعيداً عن المتكلِّم غير قريب منه ذلك القرب المعنوي فقد أجد حديثه متقطِّع الأجزاء، أفهم كلمة ولا أفهم التالية، وقد أُدرك قصة ولا أعرف مدى ارتباطها بحديثه ولا أجد حديثه مترابطاً، كما لا أدرك الغاية التي حملته بسوق ذلك الحديث كله.

فالطفل الصغير إذا هو سمع محاضرة لأحد كبار العلماء لا يفهم منها إلاَّ بعض كلمات متقطعة وقد يحفظ بعض القصص ولا يعرف مدى ارتباط القصة بالحديث.

وهكذا فكل سورة من سور القرآن إنما هي حديث متصل يحدِّثك به خالقك ويبدأه بمقدمة، ثم يفصِّل لك الحديث ويورد لك بعض القصص أحياناً تأييداً لما ورد من معان ودلالة، ثم يختم لك الحديث الذي بدأه بخاتمة مناسبة للسورة.

والسورة كلها إنما أُنزلت لتصل بك إلى غاية معيَّنة وتنقلك إلى مرتبة الإنسان الإنساني. فمن كان قريباً من خالقه مقبلاً عليه بنفسه أدرك المعنى الكلِّي للسورة

وفهم المراد منها، ثم وجد ذلك الارتباط بين آياتها. ومن لم يكن له ذلك القرب والإقبال لم يدرك من هذا شيئاً، قال تعالى مشيراً إلى هذه الناحية بقوله الكريم:

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [١]

وتطبيقاً على هذه النقاط التي أشرنا إليها من حيث كون السورة تدور كلها حول هدف واحد وغاية معيَّنة، ومن حيث ترابط مقاطعها وآياتها ببعضها بعضاً دون أدنى انفصام، ثم من حيث كونها حصناً حصيناً وسوراً مانعاً تحفظ الذي يطبِّق آياتها من الوقوع في المهالك، وتسمو به إلى أعلى منازل الإيمان والكمال نستطيع أن نستشهد بالسورة التالية وهي سورة "ص" مثالاً على ما ذكرناه وكل سور القرآن على هذا المنوال فنقول:

أما الهدف الذي تدور حوله هذه السورة الكريمة فإنما هو تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتقوية عزيمته وصبره تجاه ما يلقاه من معارضة المشركين ومعانداتهم.

والغاية إنما هي الوصول إلى هداية الإنسان الجاهل المعرض بمقابلة معارضته بالصبر الجميل من الرسول المرشد، فلعلَّ هذا الإنسان يصحو من بعد غفوة ويستيقظ من بعد سُبات فيرى عناية ربّه به وعطفه عليه فيهتدي بهداه ويسلك السبيل القويم الذي دعاه تعالى إليه.

ولذلك وتحقيقاً لهذا الهدف وتلك الغاية بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة مخاطباً رسوله الكريم بأعلى ما تمثلت به نفسه من صفات فقال تعالى:

---

١ - سورة فصلت: الآية (٤٤).

{ص...}: أي يا صادق، يا صادقاً معنا في حبِّنا، وصادقاً في عطفك على خلقنا.

ثم أورد تعالى طائفة من الآيات التي تُبيِّن شقاق المشركين لرسول الله ﷺ ، وشقاق الأقوام السابقة ومعارضتهم للرسل وما حلَّ بأولئك من الهلاك، ثم ساق تعالى لرسوله أمثلة وقصصاً تثبِّت قلبه ﷺ وتجعله يزداد صبراً تجاه هذه المعارضات فبيَّن له في قصة سيدنا داوود ﷺ أن الإنسان إذا حبس نفسه في الوجهة إلى خالقه لا يصل إلى المنازل العالية من القرب الإلٓهي ما لم يقرن ذلك بخدمة الخلْق التي هي السبب والوسيلة في القرب إلى الله.

وبيَّن له في قصة سيدنا سليمان ﷺ أن خدمة الخلْق يجب أن تكون بصورة لا يتجاوز معها الإنسان الحدّ الذي عيَّنه له ربُّه فيطغى على حقوق الآخرين، فلكلِّ مخلوق حقّه وسواء في ذلك الحيوان والإنسان.

ثم ساق تعالى قصة سيدنا أيوب ﷺ وصبره على معاندة قومه والنتائج والثمرات الطيِّبة التي جناها من وراء صبره، ثم أتبع تعالى تلك القصص مبيِّناً ما أعدَّه لعباده المتقين في الدار الآخرة من النعيم المقيم، وما للطاغين من النغص والمداواة بسبب حيادهم عن الصراط السوي الذي أرشدهم إليه رب العالمين.

وأخيراً ختم تعالى السورة بذكر قصة سيدنا آدم عليه السلام وموقف الملائكة منه وموقف إبليس ليبيِّن لنا أن الذي يستكبر عن طاعة الله ورسله إنما يضر نفسه ويخسر ما أعدّه له ربُّه من الخيرات.

وهكذا فإذا أنت نظرت في هذه السورة تبدَّى لك من خلالها ترابط قصصها وآياتها حول الهدف وظهرت لك رحمة الله تعالى وعنايته بك أيها الإنسان، فهو يثبِّت قلب رسوله ويصبِّره تجاه ما يلقى من معارضات ويسوق له من العبر والقصص عمَّن سبق من الرسل وما الغاية من كلِّ ذلك إلاَّ هدايتك والأخذ بيدك.

فإن أنت فكَّرت قليلاً في هذه السورة، وإذا أنت قدَّرت العناية الإلٓهية ثم أصغيت إلى ما جاءك به الرسول من الهدى عن لسان ربِّك، دخلت في ذلك الحصن الحصين وكانت هذه السورة سوراً مانعاً يحفظك من الوقوع في المهالك وكانت أيضاً سبباً في بلوغك منازل الكمال الإنساني بمعيّة رسله الكرام الهداة المهديين؛ الذي خُلقت لأن تتوصَّل إليه فتكون حقيقاً بما أعدَّه لك ربُّك في الآخرة من الجنَّات وما هيّأه لك من النعيم المقيم.

ذلك كله ما نفهمه من كلمة "سورة" فهي سور يحفظك من المكاره وهي سورة تسمو بك فتجعلك تتسوَّر أي: تعلو منازل الكمال، وقد خاطب تعالى المعارضين بقوله الكريم:

(وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ):

أي: فأتوا بسورة من مثل سور هذا القرآن التي تحفظ السائر ضمن دلالتها من الهلاك، كما تسمو به وتجعله يتسوَّر، أي: يعلو إلى أرفع مدارج الكمال الإنساني.

(وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ):

أي: الذين يشهدون معكم هذه الشهادة فيدَّعون أن هذا القرآن من وضع الرسول وليس من عند الله، ادعوهم لمشاركتكم ومعونتكم للإتيان بسورة من مثل هذه السور.. نعم ائتوا بسورة من مثله من وضعكم واختراعكم لا من قانون وكتاب إلٓهيسابق، وذلك ما أشارت إليه كلمة:

(مِنْ دُونِ اللَّهِ):

أي: ليكن ما تأتون به من عندكم ومن غير بيان الله ودلالته.

(إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ):

أي: إن كنتم صادقين في ادِّعائكم وافترائكم أن محمداً ﷺ جاء بهذا من عنده وأنه هو الذي وضعه ورتَّبه هذا الترتيب.

وهكذا فإذا كان البشر جميعاً متعاونين لا يستطيعون أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذه السور القرآنية الكريمة فهذا دليل واضح على أن هذا القرآن إنما هو كلام الله تعالى أنزله على رسوله ليبلِّغه لعباده وليس كلام بشر.

وهذا دليل على أن الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ إنما هو عبد الله ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وإذا كان علماء القانون الآن يجتمعون ويتضامنون لوضع قانون واحد يضمن السعادة في ناحية من نواحي الحياة فلا تمضي مدة وجيزة على وضع هذا القانون حتى تظهر فيه العيوب والنقائص ويحتاج إلى ذيول وحواش وإضافات وتحفُّظات، ثم لا يمضي عليه حين من الدهر حتى لا يعود صالحاً للتطبيق. فما بالك بهذا القانون والذي جاء به رسول الله ﷺ ضامناً لجميع نواحي الحياة، جامعاً البشر جميعاً تحت لواء إنساني واحد، متسامياً بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسان الكامل، ضامناً له السعادة المادية والنفسية المعنوية متكفِّلاً له بسعادة الدنيا والآخرة حيث تعود النفس إلى فطرتها ووجدانها الصحيح فترى سمو ما قامت به وتكون فخورة بين يدي ربّها بما قدَّمته من صالح العمل.

أليس ذلك دليلاً واضحاً على أنه كلام الله وأن هذا الرجل الذي جاء به إنما هو رسول الله؟.

إنه لا شك في ذلك ولا ريب، وما على الإنسان الذي يريد السعادة لنفسه إلاَّ اتِّباعه والإذعان إليه وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا}: هذا تحدي لكلِّ البشر.

{فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}: مَنْ قلبه كالحجر.

{أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}: الكافر مَن لا يُوقن بآيات الله، إذ نكر فضل الله، نِعَمَ الله: الله أقرب إليك من حبل الوريد، أقرب إليك من نفسك. مَن المدبِّر لهذا الكون!. من المسيِّر!. ألا تفكِّر!.

والفرق بين كلمة **(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا)** وكلمة **(وَلَنْ تَفْعَلُوا)** واضح ظاهر. فكلمة **(فإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا)** إنما تفيد العجز الآنيّ، أما كلمة **(وَلَنْ تَفْعَلُوا)** فإنما تفيد بنسبة العجز على الاستمرار. تقول: لم يستطع فلان حمل هذا الحجر الآن، وهو بسبب الشلل الذي أصاب يده لن يستطيع أن يحمله مهما تطاولت به الأيام.

والله تعالى إنما يبيِّن للبشر بهذه الآية الكريمة عجزهم الآني واستمرار هذا العجز مهما أتت عليهم العصور وتقدَّمت بهم الأعوام والأحقاب.

وقد أورد تعالى هذا المعنى في هذه الآية الكريمة إنارة لتفكير هذا الإنسان الضال رحمةً منه تعالى به وعطفاً عليه فلعلَّه يفكِّر، ولعلَّ نفسه تحدِّثه بمحاكاةِ هذا القرآن، أو الإتيان بمثله.

فإذا هو فكَّر في هذا النظام الإنساني ونظر فيما جاء به من الدلالة العالية ووجد أنه لا يستطيع أن يأتي ولا يمكن لأحد أن يأتي بمثله لعلَّه إن رأى عجزه وعجز البشرية جمعاً وتحقَّق به أن يعود إلى صوابه؛ ويعلم أن الذي جاء بهذا الكتاب إنما هو رسول الله ﷺ وأنَّ هذا الكلام كلام الخالق، وهو والحالة هذه جدير بالاتِّباع وأنَّ الذي يحيد عنه مصيره إلى النار. ذلك ما توحيه إلينا كلمة:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ).

وتفيد كلمة **(فَاتَّقُوا النَّارَ)** لزوم طاعة الله تعالى والاستقامة على أمره. فإن معنى كلمة **(فَاتَّقُوا)** أي: استروا أنفسكم واحجبوها.

وحجب النفس وسترها من النار لا يكون إلاَّ بمباعدتها عمَّا يستوجب النار ويضطر الإنسان إلى الوقوع فيها. وهذا طبعاً إنما يكون بطاعة الله والاستقامة على أمره.

فقد يقول المعلِّم لطالب وهو يعظه: إذا كنت تعلم أنه لا يستطيع أحد أن يساعدك ساعة الامتحان فاتَّقِ الآن الرسوب. واتقاء الرسوب إنما يكون بالاجتهاد وعدم التقصير وتطبيق وصايا المعلِّم وإرشاداته.

أما كلمة **(الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)** فإنما تعني أنَّ النار إنما تشتعل بالناس المعرضين عن الله وعن طاعة أوامره، تشتعل بهذا الإنسان الذي جاء إلى هذه الدنيا وما عرف قيمة هذه الحياة ولم يَدْرِ أنه إنَّما جاء ليعمل الأعمال التي تؤهِّله غداً لأن يقف فخوراً بين يدي ربّه فيكون عمله وسيلة يتقرَّب بها إلى خالقه فيتمتَّع بشهود جماله ذلك الجمال الذي كل ما في الكون من جمال إنما هو ذرَّة منه ونقطة من بحره اللامتناهي.

فهؤلاء المعرضون من بني الإنسان، هؤلاء الذين أضاعوا عمرهم الثمين بجمع حطام الدنيا الزائلة والتهالك على شهواتها الدنيئة إذا رأوا يوم القيامة عظيم خسارتهم وتفريطهم في جنب الله وإذا ظهرت لهم رحمة الله وحنانه عليهم وكبير عنايته بهم، وانكشفت لهم دخائل نفوسهم وما انطوت عليه تلك الأنفس من اللؤم والقسوة **{... فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ...}**(١) وما قابلوا به خالقهم من سوء الظن به وعدم التقدير لعظمته وجلاله وما تلبَّسوا به من كفران نعمه تعالى وفضله، إذا هم واجهوا أعمالهم الدنيئة المنحطَّة التي لا تليق بأمثالهم من بني الإنسان، هؤلاء الناس هم الذين تشتعل بهم النار فهم وقودها. وما مثلهم إلاَّ

١ - سورة الزمر (٢٢).

كمثل قطعة من التراب غُمست في الزيت وتشرَّبت به فأصبح مخالطاً لذرَّاتها فإذا ما أدنيتها من النار التهبت بما فيها، وكذلك المجرم يوم القيامة تشتعل النار فيه بما خالط نفسه من العلل والأمراض النفسية.

والوقود: هو كل ما يُوقد وتُشعل به النار. فالفحم والحطب والبترول كل ذلك يسمَّى وقوداً.

هؤلاء المعرضون من بني الإنسان إنما هم وقود النار، فإذا اشتعلت بهم نيران الحسرة وأحرقتهم وتلهَّبت في نفوسهم نيران الخزي من أعمالهم والخجل من الله فهنالك يتهافتون على نار الله الموقدة، يغيبون عن حريق نفوسهم بحريقها ويحتجبون عن عذابهم النفسي الذي لا يُطاق بعذاب النار وشديد لذعها.

وفي الحديث الشريف: «**إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر عليَّ مما ألقى وإنَّه ليعلم ما فيها من شدة العذاب**» [1]

أما كلمة (**وَالْحِجَارَةُ**) الواردة في الآية الكريمة فإنما تشير إلى صفة هؤلاء الناس الذين سيصبحون وقوداً لهذه النار. فالحجارة وهي جمع حجر مأخوذة من: حَجَرَ بمعنى منع، تقول: حجر القاضي على فلان، أي: منعه من التصرُّف بماله بسبب إسرافه، ومنه الحجرة: وهي الغرفة تحجر عن الإنسان الحرّ والبرد والرياح والأمطار.

وهكذا فكلمة (**الحجر**) إنما هي اسم لكل ما تماسكت ذرَّاته وتراصَّت أجزاؤه، بصورة لا تلين ولا يمكن معها نفوذ شيء آخر منه وتسرُّبه إليه فهو ينكسر ولا يلين ويقاوم كل ما يواجهه ولو أدَّى ذلك إلى تفريق أجزائه وتبديد ذرَّاته.

---

١ –الجامع الصغير /٢٠٧٤/ (ك) عن جابر (ح).

تقول: تحجَّر دماغ فلان فأصبح لا يعي قولاً ولا يتقبَّل فكرة أو دلالة. وفلان قلبه قاسٍ كالحجر فلا تتسرَّب إليه الرأفة ولا تنفذ الرحمة مهما رأى من المشاهدة التي تستثير العطف وتستدعي الشفقة والرحمة. وقد تخاطب الأم ولدها وقد صمَّ عن سماع كلامها وتصلَّب في رأيه فتقول: أنت والحجر سواء في تصلُّبك وقلّة مرونتك وقسوة قلبك. وقد خاطب تعالى المعرضين القساة القلوب من بني إسرائيل بقوله تعالى:

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...} (١)

وهكذا فكلمة **(وَالْحِجَارَةُ)** الواردة في قوله تعالى:

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) إنما هي استعارة على حدِّ أقوال أهل البلاغة وهي تعني أولئك الناس الذين قست قلوبهم وتحجَّرت وأضحت لا تخضع للمنطق فهي في صلابتها وعدم نفوذ الحق إليها بسبب إعراضها عن الله، وهي في كونها قاسية لا تلين للحق أشبه بالحجارة، وإنَّ أبعد القلوب عن الله القلب القاسي.

ومن هذه الكلمة تتبيَّن لنا عدالة الله تعالى في عباده، فالله تعالى إنما يعامل كل إنسان على حسب ما يناسب حاله وبما يتوافق مع وضعه، والإنسان القاسي القلب ليس له إلاَّ النار. وبما أن هذه القسوة إنما منشؤها الكفر وهو الإعراض عن الله تعالى والانصراف إلى الدنيا الدنية ولذلك قال تعالى:

(أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ).

أما الذين أذعنت قلوبهم إلى الحق وخشعت لذكر الله سالكة طريق الإيمان فقد بيَّن الله تعالى لهم أنهم في نجوة من النار فهم بعيدون عنها، محفوظون من الوقوع فيها وقد بشَّرهم الله تعالى بجنات تجري من تحتها الأنهار بقوله الكريم:

---

١ – سورة البقرة: الآية (٧٤).

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ): هذا هو النعيم الذي لا نهاية له.

ويتبيَّن لنا من هذه الآية الكريمة أنَّ الجنَّة يشترط لدخولها شيئان متلازمان هما:

الإيمان والعمل الصالح.

فإن أنت أتيت هذين الشرطين معاً: الإيمان أولاً والعمل الصالح ثانياً، فاعلم أن مصيرك إلى الجنَّة حتماً ولا يخالطك في ذلك شكٌ مطلقاً. فإنَّ كلمة **(وَبَشِّرِ)** إنما هي من الله تعالى عهد يتعهد به لهذا الإنسان المؤمن المحسن، ومن أوفى بعهده من الله؟.

أما ما يتقوَّلُهُ أناسٌ ممَّن لم يُدركوا شيئاً من الكمال الإلّهي ولم يتحقَّقوا من عدالة الله تعالى في خلْقه زاعمين أنَّ الإنسان مهما بلغ من الرقي في منازل الإيمان الصحيح، ومهما قدَّم من صالح الأعمال فليس ذلك بضامن له دخول الجنة ولا بمؤمِّنٍ إيَّاه من مكر الله.

أقول: تلك المزاعم وكلها إنما هي مزاعم باطلة تخالف هذه الآية الكريمة وما تليها من آيات القرآن الكريم مخالفة صريحة، وكل ما يعتمدون عليه في تأييد أقوالهم من آيات كريمة وأحاديث شريفة لا يغني عنهم في هذا الموضوع شيئاً لأن مزاعمهم إنما تستند في الحقيقة إلى فهم معكوس فهموه من أحاديث رسول الله ﷺ ، وتأويل باطل أوَّلوا به كلام الله، وما يكون لرسول الله ﷺ أن يخالف في أحاديثه الشريفة أو يعارض كلام الله وما يكون للقرآن الكريم أن يناقض بعضه

بعضاً فيقرِّر ويعرِّف الخلْق بعدالة الله تعالى تارة ثم لا يلبث أن ينقضَ ما قرَّرَهُ ويُبدي عكسه تارةً أخرى.

* * *

ونسوق لك بعض ما يعتمدون عليه من الآيات الكريمة التي يتأوَّلونها تأويلاً خاطئاً كقوله تعالى:

{لاَ يُسئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ...} [١]

فهم يوردون في تأويل هذه الآية الكريمة المثال الآتي فيقولون:

لو أن امرأ أطاع الله تعالى طوال حياته ولم يعص خالقه مطلقاً فمن الممكن أن يجعله الله تعالى من أهل النار غداً وليست أعماله الصالحة كلها بمغنية عنه من عذاب الله شيئاً.

ولو أن امرأ اقترف آثاماً عظيمة وعصى ربَّه عصياناً كبيراً فمن المرجو له أن يأمر الله تعالى به إلى الجنَّة وكأنه لم يقترف خطيئة أو إثماً.

ثم يؤيِّدون حديثهم مستشهدين بالآية الكريمة قائلين:

إنَّ الله تعالى مطلق **{لاَ يُسئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ..}** يقولون ذلك وكأنَّهم لم يسمعوا من آيات الله الدالة على عدالته في خلْقه شيئاً.

ولو أنهم رجعوا إلى قوله تعالى:

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [٢]

---

١ – سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

٢ – سورة الجاثية: الآية (٢١-٢٢).

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [١]

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٢]

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [٣]

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [٤]

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [٥]

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [٦]

{وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[٧] .

---

١ – سورة ص: الآية (٢٨).

٢ – سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

٣ – سورة الزلزلة: الآية (٦–٨).

٤ – سورة آل عمران: الآية (٣٠).

٥ – سورة يونس: الآية (٥٤).

٦ – سورة النمل: الآية (٨٩–٩٠).

٧ – سورة العصر

{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} (١)

وقوله تعالى مبيّناً دعاء سيدنا إبراهيم ﷺ :

{وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (٢)

وقوله تعالى مبيِّناً نفسية رسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ : **{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** (٣)

وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِى الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}** (٤)

{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (٥)

---

١ – سورة الإسراء: الآية (١٣–١٤).

٢ – سورة الشعراء: الآية (٨٧–٨٩).

٣ – سورة الأنعام: الآية (١٥).

٤ – سورة الروم: الآية (١٢–١٦).

٥ – سورة السجدة: الآية (١٨–٢١).

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُون} [1]

{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [2]

{إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ، فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [3]

وهكذا فالقرآن طافح بأمثال هذه الآيات التي تُبيِّن عدالة الله تعالى وأن الجزاء مبني على العمل. ولو أنهم رجعوا إلى هذه الآيات الكريمة لما أوَّلوا آية **{لاَ يُسئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ...}** ذلك التأويل الخاطئ، بل لعرفوا التأويل الذي يتطابق مع هذه الآيات الكريمة. فالله تعالى لا يُسأل عمّا يفعل لأن فعله تعالى كله ضمن الحق والعدل، فلكل نفس ما كسبت وكل امرئ يُجزى بعمله صغيراً كان أو كبيراً. فإذا رأى كل امرئ ما عمل، وإذا رأى الخلْق العدل الإلّهي قائماً أسكتهم العدل الإلّهي ولم يسأل أحد ربّه شيئاً، وكيف يسأل أو يعترض وهو يرى مثاقيل الذرَّات توزن بقدر ويُعطى كل امرئ ما عمل، فلا تظلم نفسٌ شيئاً؟.

ونسوق لك على وجه المثال حديثاً من الأحاديث الشريفة التي يتأولونها تأويلاً خاطئاً وهو قوله ﷺ :

«.. إنَّ الرجل منكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإنَّ الرجل

---

١ - سورة الروم: الآية (١٠).

٢ - سورة سبأ: الآية (٣٧).

٣ - سورة يس: الآية (٥٣-٥٤).

ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنَّة فيدخل الجنَّة» [١]

فإذا نحن رجعنا الطرف إلى تلك الطائفة من الآيات الكريمة التي أوردناها آنفاً وقارنَّا بها هذا الحديث الشريف أمثاله فسرعان ما يبدو لنا المعنى الصحيح الذي أراده رسول الله، لأنه ﷺ أوصانا إذا بلغنا حديث عنه أو قول منسوب إليه وارتبنا في هذا الحديث أن نرجع به كما كنا بيَّناه من قبل إلى كلام الله فإن وافق كلام الله تعالى حكمنا بصحته وإن لم يوافقه رددناه لأن القرآن الكريم كما بيَّن لنا ربنا فيه، ما ترك شيئاً مما تتوقف عليه سعادة الإنسان في دنياه وأخراه إلا وبيَّنه وفصَّله أحسن تفصيل، قال تعالى:

{... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ...} [٢]

وإذا كان القرآن الكريم قد فصَّل لنا في هذا الموضوع الذي نحن بصدده وهو أن دخول الجنة مبني على ما يقدِّمه الإنسان المؤمن من صالح الأعمال وعرفنا بما تعهَّد به تعالى للمحسنين من النعيم المقيم فلا بد أن هذا الحديث الشريف إنما يريد أن يلفت نظرنا إلى ناحية من النواحي التي غابت عنها أفهام الناس الذين لم يدركوا معنى العمل الصالح، فحسبوا أن العمل الصالح ما كان في صورته صالحاً وغفلوا عن النيَّة العالية التي يجب أن ترافق العمل وتنبعث عن الإيمان ولذلك أراد رسول الله ﷺ أن يبيِّن لهم أن العمل الصالح هو الذي انطوى على نية عالية منبعثة عن إيمان صحيح تجعل الإنسان فخوراً بعمله وأهلاً لأن يقف به غداً بين يدي خالقه يوم تتكشف الحقائق وتظهر النيَّات.

---

١ –الجامع الصغير (ق٤) عن ابن مسعود {صحيح}.

٢ – سورة الأنعام: الآية (٣٨).

وهكذا فهذا الحديث الشريف إنما يريد أن يكشف لنا في الفقرة الأولى منه حالاً من أحوال أهل النفاق فقال ﷺ : «.. **إنَّ الرجل منكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار..**».

ويريد رسول الله ﷺ بذلك أن الذي يعمل بعمل أهل الجنة ولا يكون عمله مبنياً على نية عالية منبعثة عن إيمان صحيح فليس يغني عنه عمله من الله شيئاً. فالله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ومهما استطاع الإنسان أن يلبس على الناس ويخدع أولي القلوب الساذجة، فالله تعالى لا تنطلي عليه الخديعة ولا يخفى عليه شيء، ولا تخفى على الله خافية. فالذي يعمل بعمل أهل الجنّة لغايات خاصة متظاهراً بالإيمان مخفياً دخولة نفسه، هذا الإنسان لا بد له من يوم يكشف الله تعالى فيه حقيقته ويريه كذبه ويطَّلع عليه الناس. فالله تعالى لا يخدع والله تعالى لا يدع المرء يخرج من هذه الحياة حتى يكشف حقيقته للخلْق، فإذا وقف الخلْق غداً للجزاء بدت الأعمال سافرة حقائقها ورأى كل امرئ ما قدَّم وهنالك تعنوا الوجوه كلها للعدل الإلّهي فيخيب من حمل ظلماً.

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} (١)

وهكذا فرسول الله ﷺ إنما يحذِّر بقوله هؤلاء ويبيِّن لهم أن الله تعالى لا بد وأن يكشف حقائقهم ويُشهد الخلْق على أعمالهم، فإن يعمل أحدهم على حسب الصورة من أعمال أهل الجنة مضمراً الكفر والنفاق لم يغن عنه عمله إذ ستنكشف له حقيقته في الدنيا قبل الآخرة.

---

١ – سورة طه: الآية (١١٢).

أما الشطر الثاني من هذا الحديث الشريف وهو قوله ﷺ : «.. **وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنَّة فيدخل الجنَّة**».

فيريد به رسول الله ﷺ أن يبيِّن لنا أحوال طائفة أخرى من الناس الذين لم يصلوا بعد إلى الإيمان الذي يحجزهم عن محارم الله، لكنهم ما يزالون في طريق البحث عن الإيمان الصحيح، فهؤلاء لا بد أن يصل بهم صدقهم إلى الإيمان المانع من الوقوع في محارم الله. وفي الحديث الشريف:

«**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البرَّ يهدي إلى الجنَّة وإنَّ الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً**..» [1]

* * *

١ – رواه البخاري ومسلم (خ١٠/٤٢٣) م (٢٦٠٧).

ما هي حقيقة الجنـة؟.

والآن وبعد أن بيَّنا ما تقتضيه العدالة الإلّهية من معاملة كل امرئ بما يتناسب مع عمله وأن المحسن مصيره حتماً إلى ما بشَّره الله تعالى به من جنَّات تجري من تحتها الأنهار، لا بد لنا من أن نقف برهة نبيِّن فيها ما تعنيه كلمة "جنَّة" وما هي حقيقة الجنَّة والمراد بكلمة **(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)**.

نريد أن نبيِّن ذلك بصورة يتجلَّى فيها الإكرام الإلّهي والخلود في النعيم الأبدي فنقول:

جاء في بعض الأحاديث القدسية التي تحدَّث بها رسول الله ﷺ عن لسان الحضرة الإلّهية ما يلي:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلْق وعرَّفتهم بي، فبي عرفوني»[١].

والكنز: هو الشيء الثمين المخبَّأ، فالله تعالى هو الكنز وقد خلق الخلْق ليعرِّفهم بذاته العليَّة ويُشهدهم عظيم جماله وعالي كماله ليحصل لهم النعيم الأبدي المقيم بشهود هذا الكمال والجمال.

وهكذا فالنظر إلى حضرة الله تعالى هو أعظم ما يُكرم به الله تعالى عباده المؤمنين في الجنَّة، بل هو حقيقة الجنَّة. قال تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [٢]

---

١ - قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون) الذاريات (٥٦). وقد وافق على صحة الحديث الشيخ علي ملا القاري مستنداً إلى تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى: **(وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون)** أي: ليعرفوني، وقد اعتمده الصوفية وابن عربي وبنوا عليه أصولاً.

٢ - سورة القيامة: الآية (٢٢-٢٣).

ودليلاً على أن النظر إلى حضرة الله تعالى هو حقيقة الجنَّة نقول:

إن الإنسان إنما يتنعَّم في هذه الدنيا إذا شاهد المخلوقات الجميلة، ويستغرق في السرور بمشاهدتها كلما كانت جميلة رائعة فكيف يكون سروره إذا هو نظر إلى جمال خالقه الذي خلق الكون وخلق ما فيه من المخلوقات الجميلة؟. وهل النظر يا تُرى إلى الخالق أجمل، أم النظر إلى المخلوقات التي تستمد جمالها منه تعالى، فهي أثر من آثاره وجمالها نقطة من بحور جماله؟.

تحليل معنى كلمة (الجنَّة):

ولكن لماذا يسمَّى النعيم النفسي الذي يشاهده الإنسان عند مشاهدة جمال خالقه جنَّة؟.

أقول: إن كلمة "جنَّة" مأخوذة من جنَّ بمعنى ستر وأخفى. تقول: جنَّ الليل، ومنه المجنّ وهو الترس يستر به المحارب جسمه من ضربة عدوه، ومنه الجنين وهو الطفل ما دام مستوراً في بطن أمه.

وبناء على ما قدَّمناه نقول: إن كلمة "جنَّة" إنما تعني النعيم الخفي المستور الذي يجده الإنسان في قرارة نفسه ولا يطَّلع عليه أحد سواه، فإذا نحن جلسنا في حديقةٍ كل شيء فيها رائع وجميل، وإذا نحن تذوَّقنا في نفوسنا هذا الجمال، فهذا النعيم الذي نجده في نفوسنا إثر مشاهدتنا، ذلك النعيم الخفي المستور نسمِّيه "جنَّة".

وهكذا فقد نجلس في حديقة "جنينه" واحدة وأمامنا شيء واحد ولكن نعيم كل امرئ وجنَّته على حسب حاله ومشاهدته.

وزيادة في إيضاح هذه النقطة نستطيع أن نسوق المثال الآتي فنقول:

هب أن أناساً دُعوا لدى أمير من الأمراء إلى مأدبة عليها صنوف الفاكهة وأنواع منوَّعة من الأطعمة اللذيذة، فهل تظن أن جميع المدعوين يتذوَّقون ذوقاً

واحداً ويجدون لذة واحدة؟. لا شك أن لذة كل امرئ منهم تتناسب مع صحته وحالته النفسية. كما أن حُظوة كل امرئ منهم لدى صاحب المأدبة وسروره بمجالسته يتناسب مع قربه المعنوي منه ومكانته لديه.

إن هذه الأمثلة تنطبق كل الانطباق على حال المؤمنين في الآخرة، فهم ينظرون إلى جمال الحضرة الإلّهية، لكن نعيم كل واحد منهم وجنَّته إنما تتناسب مع أعماله التي قدَّمها في الدنيا فكلما كانت أعمال الإنسان عالية أكثر كان إقباله على ربِّه أعظم وكان نعيمه في مشاهدته أكبر وجنَّته أعلى وأجمل.

على أن المؤمن في الدار الآخرة لا يقف عند منزلة واحدة لا يجاوزها، بل إنما هو دوماً في ارتقاء، فمن حال إلى حال أعلى ومن مشاهدة إلى مشاهدة أسمى، وإن شئت فقل من جنَّة إلى جنَّة أرقى. فكلما نظر إلى جمال خالقه نظرة حصل في نفسه نعيم عظيم جداً، ثم ينظر إلى خالقه نظرة ثانية فيتنعَّم بها أكثر من الأولى، ثم ينظر ثالثة ورابعة وهكذا إلى ما لا نهاية وكل نظرة أعظم جمالاً، وسروراً أعلى من النظرة السابقة.

وبما أنَّه ليس لحضرة الله تعالى حدٌّ، وبما أن جماله ليس له نهاية، فهكذا نعيم المؤمنين في الآخرة ليس له نهاية والجنَّة ليس لها نهاية.

أما كلمة **(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)** فليس معناها قاصراً على أنهار من الماء، بل إنها تعني الخيرات الدائمية المتواردة على الإنسان بشكل متواصل كالنهر الجاري الذي لا ينقطع. فالفواكه والأثمار وصنوف الطعام والشراب، والحور العين وأعني بهن زوجات المؤمنين اللاتي تحار بهنَّ الأعين لجمالهن. أقول صنوف هذا النعيم كلها إنما تجري على الإنسان كالنهر المتواصل دون أدنى انقطاع، لكن هذه الخيرات كلها أقل درجة طبعاً من ذلك النعيم بمشاهدة حضرة الله. وهذا ما نفهمه من كلمة **(مِنْ تَحْتِهَا)**.

بقي علينا أن نبيِّن الكيفية التي يتمكَّن معها الإنسان يومئذ من الارتقاء من حال إلى حال أعلى ومن جنَّة إلى جنَّة أعلى وأرقى فنقول:

رأينا أن نعيم كل امرئ في الجنَّة إنما يتناسب مع أعماله التي قدَّمها في الدنيا، فكلما كانت أعمال الإنسان أعلى كان إقباله على ربِّه أعظم، والعمل وحده هو السبب الذي يجعل الناس يتفاوتون ويتفوَّق بعضهم على بعض في النعيم.

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يرقى ذلك الرقي المتواصل الذي لا يتناهى متنقلاً من جنة إلى جنَّة أعلى وأسمى؟.

أقول: إن الإنسان في هذه الدنيا له "فكر وعقل" [١] ، فبالفكر يتعرَّف إلى الوقائع ويتذكَّر ما قام به من أعمال وما جرى له من حوادث.

أما العقل فيشهد به حقائق الأعمال وقِيَمَها الحقيقية التي تؤهِّله لأن يُقبل بها على الله. فإذا كان يوم القيامة تعطل الفكر، إذ لم يبقَ له ضرورة وانكشفت الحقائق للعقل واضحة جليَّة، وهناك تمرُّ على الإنسان سلسلة أعماله التي قام بها في دنياه عملاً بعد عمل. وكلما رأى عملاً من أعماله أقبل به على خالقه فارتقى من حال إلى حال وهكذا حتى تمرُّ به جميع أعماله فتعود السلسلة من جديد.

ونظراً لعدم وجود الفكر: عندما تمرُّ به الأعمال من جديد فيعقلها ويرقى بها وهو لا يذكر أنه رآها من قبل، وذلك إلى ما لا نهاية فهو متواصل الإقبال، متزايد في الصحة النفسية والتنعُّم بمشاهدة ذي الجلال والجمال، متدرِّج في النعيم بما يُقدَّم له من فواكه وثمرات وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

١- انظر كتاب "مصادر مياه الينابيع في العالم" للعلاَّمة محمد أمين شيخو بحث "العقل والفكر".

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْـهَا): في الجنة.
(مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ): منذ مدّة قريبة في الدنيا.
(وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً): في اللذائذ، لكنه أعلى ممَّا سبق.

فلهم في كل لحظة نعيم، ونعيم كل لحظة أرقى من سابقتها، ثم بيَّن تعالى سرور أهل الجنَّة بأزواجهم فقال تعالى:

(وَلَـهُمْ فِيـهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ): من كل شائبة.

(وَهُمْ فِيـهَا خَالِدُونَ): أنت لم تأتِ للدنيا للأكل والشرب كالحيوان، بل لترقى وتعمل.

وتريد كلمة **(مُطَهَّرَةٌ)** أن تبيّن لنا صفة أزواج أهل الجنَّة. وكلمة **(مُطَهَّرَةٌ)** مأخوذة من طهَّر. تقول: طهَّر فلان الإناء أو الثوب فهو طاهر، أي: أزال عنه ما به من جرثوم. وطهَّر الله نفس فلان، أي: أزال ما بها من خبث.

وهكذا فالمراد من كلمة **(وَلَـهُمْ فِيـهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)** أي: مطهَّرة من كل خبث ودرن، فليس فيها شيء مما يحول بينها وبين الإقبال على الله. وبما أن الإقبال على الله يصبغ النفس بصبغة الكمال الإلّهي لذلك ينعم أهل الجنة بالنظر إلى أزواجهم نعيماً حقيقياً. وحيث أن نفوسهم دوماً مترقية بالإقبال فكذلك جمالهم دوماً في ازدياد.

أما كلمة **(وَهُمْ فِيـهَا خَالِدُونَ)** فإنما تشير هنا إلى سكون النفس واطمئنانها بما تجده من الحياة الطيِّبة في الجنَّة. وزيادة في تفصيل معنى هذه الكلمة نقول:

إن كلمة **(خَالِدُونَ)** مأخوذة من خَلَدَ بمعنى: سكن إلى الشيء واطمأن به. تقول: خَلَدَ المسافرُ إلى ظل الشجرة من حرِّ الصحراء، أي: سكن واطمأن بما يجده في فيئها من ظل ظليل وارتياح.

وهكذا ففي الدار الآخرة إنما يخلد المؤمن في الجنَّة، أي: تسكن نفسه مطمئنة بما تجده في ذلك التجلي الإلّهي الذي يغمرها من حياة طيِّبة وأنس ونعيم فهو لا يبغي عنه حولاً ولا يرضى عنه بديلاً.

ولعلَّك تقول: إذا كان الخلود هو اطمئنان النفس وسكونها إلى الشيء فكيف يخلد أهل النار في النار فنقول:

قد يُصاب الإنسان في هذه الدنيا بألم من الآلام أو علَّة من العلل ولا يجد دواء لعلّته إلاَّ الكي بالنار ولذلك تراه يسكن بين يدي من يكويه بالنار ويؤثر حريقها وشديد لذعها على علَّته وآلامه. وكذلك حال أهل النار في النار فهم يخلدون في النار ويؤثرون عذاب الحريق تخلُّصاً من آلام الخجل والعار الذي يلازم نفوسهم.

وقد بيَّن لنا ذلك رسول الله ﷺ في حديث شريف كنا أوردناه من قبل وهو قوله ﷺ :

«إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر عليَّ مما ألقى وإنَّه ليعلم ما فيها من شدة العذاب».

وبعد أن بيَّن تعالى نعيم أهل الجنَّة وخلودهم فيها أراد أن يبيِّن لنا موقف المؤمن الذي استنارت نفسه بنور خالقها من الأمثال التي يضربها له ربّه، وموقف الكافر المُعرض منها واستخفافه بكلام الله.

كما أراد الله تعالى أن يبيِّن لنا أنه منح الإنسان الاختيار، أما التنفيذ والإطلاق للفعل فعائد إلى الله. فمن العبد الاختيار ومن الله تعالى القوة وخلْق الأعمال. وإلى هاتين الناحيتين أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ}.

والمثل هو أن يضع المربِّي أمام الإنسان شيئاً أو أن يذكر له قصة أو حادثاً فيه بيان وعبرة، فإذا أمعن الإنسان التفكير في هذا المثل ودقَّق فيه ورأى ما فيه من عبرة توصَّل إلى ما انطوى عليه هذا المثل من موعظة.

وقد بدأ تعالى هذه الآية الكريمة بكلمة:

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا): صغيرة أو كبيرة ليبيِّن لك أنه تعالى رحيم بك عطوف عليك. وهو لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها لأنه بهذا المثل إنما يريد سعادتك ونقلك من حال إلى حال.

وقد ذكر تعالى كلمة **(بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)** ليبيِّن لك أن البعوضة وهي تلك الحشرة التي هي أصغر من الذبابة جسماً إنما فيها من الآيات الدالة على الخالق وعلمه وحكمته وعظيم صنعه وقدرته ما يستدعي انتباه المنتبه ويجتذب نظر الناظر.

وتقريباً لهذا المعنى الوارد في الآية الكريمة وزيادة في الإيضاح نضرب المثل الآتي فنقول:

قد يصف الطبيب لرجل دواء على شكل حبوب صغيرة لا يتجاوز حجم الواحدة منها حبة البرغل وتراه لا يستحي أن يصف لمريضه هذا العلاج. نعم إنه لا يستحي بذلك لِما يراه فيه من الفائدة والخير. والناس تجاه وصفة هذا الطبيب أحد رجلين:

رجل عالم يعرف تركيب هذا الدواء وما فيه من المعالجة الناجعة لعلّة هذا المريض، لذلك تراه يقدِّر الطبيب ويعلم أن هذه الوصفة كلها نفع وخير.

ورجل جاهل ينظر إلى صورة العلاج وحجمه فيستخف به ويقول ما فائدة هذه الحبّة الصغيرة وما تأثيرها في علاج هذا المرض الوبيل، فتراه لا يعبأ بها ولا يلقي لها بالاً وهو بسبب ذلك الاستخفاف يتباعد عن هذا الطبيب ولا يستفيد منه في شيء فتتفاقم به أمراضه وتتراكب عليه علله، فمن حال إلى حال أسوأ ومن رديء إلى أردأ.

إن هذا المثل الذي ضربناه يوضِّح لك هذه الآية التي نحن بصددها أحسن توضيح. فالله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ):

كل إنسان بحسب إيمانه يفهم، الحق لا يُرى إلاَّ من طريق التربية. فسيدنا إبراهيم وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام وكافة الرسل عن طريق التربية اهتدوا.

فأما الذين آمنوا بلا إلّه إلاَّ الله ورأوا أن الكون كله إنما تشرف عليه تلك الإرادة العليا وتصرِّفه تلك اليد العظيمة القديرة. هؤلاء الذين عرفوا جلال الله وخضعت نفوسهم لما شاهدته من عظمة الله تراهم إذا ضرب الله تعالى مثلاً بعوضة فما فوقها رأوا في هذا المثل من الخير وعلموا أنه الحق من ربِّهم.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً):

من الشهوات الكامنة في نفسه، إذ بإنكاره لهذا المثل تخرج منه شهوة واحدة وبذلك وبالعلاج بعدها إن رجع وأناب انمحت من نفسه مئات من الشهوات، فبخروج شهوة واحدة يبعده تعالى عن كثير من الشهوات.

وأما الذين كفروا وانصرفت نفوسهم إلى الدنيا وزينتها معرضة عن الله تراهم بسبب عمي بصائرهم الناشئ عن فسقهم وعدم استنارتهم بنور الله لا يرون ما

في ذلك المثل من الخير كما لا يقدِّر المريض الجاهل ما وصفه له الطبيب من علاج فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً.

وهكذا فالمؤمن بلا إلّه إلا الله يغدو بصيراً مشاهداً يشاهد بنور الله فيستعظم الأمثال التي يضربها الله تعالى ويقدِّر كلامه. والكافر الفاسق أعمى محجوب إذا سمع من آيات الله شيئاً اتَّخذها هزواً، مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع.

{وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} (١)

وتوسُّعاً بالإيضاح ولعلَّك تقول:

ما المراد من كلمة **(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً)** الواردة في الآية الكريمة التي نحن بصددها؟. وما دام الله تعالى رحيماً بعباده ولا يرضى لعباده الكفر فكيف يضل بهذا المثل كثيراً؟. فنقول:

الضلال المبين والانحراف الشنيع لفرقتي الجبرية والمعتزلة

هذه النقطة الهامة كانت موضع أخذ ورد في قرون مضت، وقد ضلَّ بسبب عدم فهمها أناس كثيرون، وتزندق آخرون.

فأما "الجبرية" فقد ادَّعوا:

أن الله تعالى قدَّر على الإنسان الوقوع في الأعمال الخيّرة والشريرة وأن العبد مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار والثواب والعقاب جبر. وما مثل الإنسان في كونه مجبوراً على الكفر والمعصية إلا كمثل الريح تهب على العشب

---

١ – سورة فاطر: الآية (١٩–٢٢).

"الحشيش" فتقلِّبه يميناً وشمالاً، أو كالورقة تذهب بها الرياح حيث تشاء. قالوا ذلك ليتوصلوا من هذا الطريق إلى تبرير أعمالهم المنحطة والانغماس في شهواتهم الدنيئة وادَّعوا أن لا ذنب لهم ما دام الله تعالى هو خالق الأعمال واستندوا إلى آيات كثيرة ضلُّوا عن فهمها الصحيح فاستشهدوا بها خطأً وفسَّروها تفسيراً باطلاً.

وأما الآخرون وهم "المعتزلة" فقالوا:

إن الله لا يحب الشر والفساد، وقد أرادوا أن ينزِّهوا الله تعالى عن الظلم فزعموا أن الإنسان هو خالق أعماله، والرب منزَّه عن أن يضاف إليه شر أو ظلم وفعل وذلك هو كفر ومعصية. فالعبد عندهم مستطيع باستطاعة نفسه، وأفعاله مخلوقة من جهته لا يحتاج إلى الاستطاعة من الله وقد وضع الله تعالى فيه القوة وهو مطلق في استعمالها وهو والحالة هذه مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً.

وأنت ترى من خلال هذين الرأيين ضلال كل من الفريقين:

فالجبرية وقعوا في الضلال، إذ زعموا أن العبد مُجبر على الوقوع في الشر، وأنه لا حيلة له والأقدار جارية عليه فهو مكره على تنفيذ هذه الأقدار وليس له في رد ذلك قدرة ولا استطاعة ولا اختيار.

ورداً على الجبرية نقول:

لقد نفى تعالى ذلك نفياً قاطعاً بقوله الكريم:

{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...} (١)

فلم يُكره أحداً على الطاعة كما لم يُكره أحداً على المعصية، وقولهم هذا محض افتراء لا أساس له من الصحة.

---

١ - سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

وإذا كان الإنسان كما يقول هؤلاء مجبراً على المعصية، ومستحقاً بالتالي على العذاب والعقاب، فلا ريب أن ذلك من الله تعالى محض الظلم والجور، والله تعالى منزَّه عن الظلم والجور، والاعتقاد بمثل تلك الاعتقادات الفاسدة كفر وضلال لأن الذي يسيء الظن بالله وينسب الظلم إلى الله كافر وهو لا يختلف عن إبليس في شيء، إذ قال:

{... رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ...} [1]

فقد اعترف إبليس بربِّه ولكنه نسب الظلم إلى الله وظنَّ أن الله تعالى هو الذي أغواه، كما لا يختلف معتقد هذه الاعتقادات الباطلة عن المشركين في شيء.

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ..}.

فردَّ عليهم تعالى بقوله الكريم:

{... كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} [2]

* * *

الرد على المعتزلة

وكذلك "فالمعتزلة" ليسوا على شيء من الصواب فيما زعموا، إذ قالوا: أن العبد بما وضع الله تعالى فيه من القوة قادر وخالق لأفعاله ولا يحتاج إلى الاستطاعة والقوة من الله.

---

١ – سورة الحجر: الآية (٣٩).

٢ – سورة الأنعام: الآية (١٤٨).

ورداً على هؤلاء نقول:

إذا كان الله تعالى قد وضع في العبد القوة وجعله قادراً على خلْق أعماله فمعنى ذلك أن الله تعالى ترك القوي يعتدي على الضعيف، ثم إن الله تعالى كيف جعل في الناس قوياً وضعيفاً وبهذا جعل الناس يتسلَّطون على بعضهم بعضاً، أليس في هذا الاعتقاد أيضاً ما فيه من نسبة الظلم إلى الله، وكذلك فقد جعل هؤلاء المعتزلة للإنسان حولاً وقوة ولم يجعلوا مع الله إلهاً آخر فقط، بل جعلوا كل مخلوق قادراً وخالقاً. ولو أنهم أدركوا معنى لا إلّه إلا الله وأنه ليس لأحد في هذا الكون فعل وقوة إلا بالله لما وقعوا في هذا الشرك والضلال البعيد، ومع أنه لا حول ولا قوة إلا بالله وهم يزعمون أنهم أهل العدل والتوحيد.

والآن وبعد أن بيَّنا طرفاً من اعتقادات أهل الضلال والانحراف الذين زاغت قلوبهم عن الحق بسبب عدم معرفتها بالله وانحرافها عن الطريق التي أرشدنا الله تعالى إليها في الوصول إلى الإيمان نستطيع أن نورد اعتقادات أهل السنة والجماعة وأن نفصِّل في تلك النواحي التي أشاروا إليها تفصيلاً يجعل الإنسان يفهم ما ورد في كتاب الله تعالى بما يتوافق مع العدل الإلّهي والتوحيد الصحيح قولهم:

أن العبد مخيَّر يستطيع أن يختار ما يشاء ولهذا المعنى يستحق العقوبة أو الثواب، فمتى وُجِدَ من العبد العزم والقصد والاكتساب يحصل له من الله تعالى القوة والاستطاعة على الأعمال.

وهكذا فأنت ترى من خلال هذا الرأي الصحيح أن العبد مطلق في اختياره غير مجبر على الوقوع في فعل من الأفعال. أما الاستطاعة والقدرة فإنما هي بيد الله تعالى وحده وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولعمري ذلك هو التوحيد الصحيح الذي تفيده حقيقة **{لا إلّه إلا الله}**.

وقد فصَّل أهل السنة في هذه الناحية فقالوا أن للعبد جزءاً اختيارياً، والحقيقة أن للعبد الحريّة كلها والإطلاق في الاختيار ولكن على المستحق، ونفصِّل لك نحن هذا المعنى فنقول:

إذا وقع اختيار العبد المؤمن على القيام بعمل من أعمال البر والإحسان فلا ريب أن اختياره هذا يُنفِّذه الله تعالى له، ولكن العدالة الإلّهية تقضي بأن يكون التنفيذ على شخص استحق هذا البر والإحسان. ولذلك يسوق الله تعالى المحسن للمحسن والطيّب للطيِّب وينال كل امرئ بمقدار ما يستحق من العطاء.

وإذا وقع اختيار المعرض على القيام بعمل من أعمال الأذى والعدوان فلا ريب أن هذه الشهوة الخبيثة التي استقرَّت في نفسه بسبب إعراضه عن الله ودفعته إلى هذا الاختيار لا يكون تنفيذها إلاَّ على شخص استحق بسابق ما اكتسبت يده أن يقع عليه هذا الأذى والعدوان، فيُساق الظالم لنفسه للظالم لنفسه أيضاً:

{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضَاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [1] والخبيث للخبيث ولا ينكح الزاني إلاَّ زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك:

{الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُها إلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [2]

ويولّي الله الظالمين لأنفسهم بعضهم بعضاً وكلٌّ ينال أيضاً بمقدار ما يستحق وينفّذ لكلِّ امرئٍ ما اختار على حسب ما تقرُّه تلك الإرادة الإلّهية العليا المسيطرة في حكمها فوق الخلائق جميعاً فلا تنفِّذ إلا على حسب ما تقتضيه

---

١ – سورة الأنعام: الآية (١٢٩).

٢ – سورة النور: الآية (٣):

العدالة فتسوق المحسن للمحسن وتولِّي الظالم على الظالم والله يحكم لا معقِّب لحكمه وهو سريع الحساب.

قلت: ويؤيد ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ في حديث شريف، إذ يقول:

«.. واعلم أنَّ الأمةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ لكَ، وإنْ اجتمعوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ عليكَ» [١]

فَسِرْ بالخير ليُكتب لك ولا تَسرْ بالشرِّ لئلا يُكتب القصاص عليك.

ولا يظنَّن ظانٌّ أن هذه الكتابة . كما تزعم فرقة الجبرية الكافرة . كتابة قديمة أزلية فتعالى الله أن يكتب على الإنسان شيئاً لم يحرِّك به جارحة ولم يكن له فيه اختيار ولا إرادة، إذ لو كان الأمر كما يظنُّون، وأن الله تعالى كتب على أناس ضرّاً وأذى، وكتب لآخرين نفعاً وخيراً لكان ذلك من الله تعالى ظلماً وجوراً ولتنافى ذلك مع العدالة الإلَهية تنافياً ظاهراً. فهذا الإلَه العليُّ القدير الذي كرَّم الإنسان وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيِّبات وفضَّله على كثير ممَّن خلق تفضيلاً، هذا الإلَه الذي نظَّم هذا الكون على أبدع نظام وجعل ما فيه مسخَّراً للإنسان، ثم أرسل له الرسل الكرام وأنزل معهم الكتاب وساق فيه من العبر والمواعظ والأمثال، ما يكون لهذا الإلَه أن يفعل ذلك كله ويكون قد كتب على طائفة من بني الإنسان الشقاء وكتب لآخرين السعادة والهناء؟. وهذا ما لا يرضاه أب لأبنائه، بل يبغي السعادة لهم جميعاً، ولله المثل الأعلى.

وكيف يكتب أم كيف يفضِّل ويميِّز أناساً عن أناس والخلْق كلّهم عيال الله وهم جميعاً عباده؟. لا شك أن من أوتي ذرَّة من منطق صحيح وتفكير سليم لا

---

١ –رواه الترمذي.

يرضى بهذه المعتقدات الفاسدة، بل إنما يردُّها لأول وهلة. وهكذا فالحديث الشريف إنما يعني بتلك الكتابة ما كتبه الله على الإنسان من عمله مما اكتسبته نفسه. فكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

وبناء على هذا فالحديث الشريف يبيِّن لنا في شطره الأول أن هؤلاء الذين طهرت نفوسهم وأصبحت صالحة لفعل المعروف والإحسان، هؤلاء الذين كتب الله تعالى في نفوسهم فعل الخير بسبب إقبالهم على خالقهم وصدقهم في مطلبهم لو اجتمعوا جميعاً على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك بسبب ما كسبته نفسك وما استحققته أنت بعملك الطيِّب.

وكذلك الأمر بالنسبة لأهل الأذى والشر ليس لهم سلطان عليك، ليسوا بمستطيعين أن يضرُّوك ولو اجتمعوا على ذلك إلاَّ إذا كنت قد قمت بعمل استحققت عليه ذلك الأذى وكُتب ذلك عليك من عملك.

ولعمري ذلك محض التوحيد وتلك هي العدالة الإلۤهية يتجلَّيان في قوله ﷺ وهو خير من وصل إلى التوحيد الصحيح فشهد أن لا إلۤه إلا الله ورأى العدل الإلۤهي جارياً على الخلْق جميعاً فليس لأحد فعل أو تصرُّف إلا على حسب ما تقرُّه العدالة الإلۤهية ويأذن به الله.

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (١)

أقول: ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم عن لسان سيدنا هود ﷺ وهو يخاطب قومه بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

١ – سورة يونس: الآية (١٠٧).

{إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ}: دبّروا ما شئتم لا أعبأ بكم جميعاً ولا تستطيعون، فلا سلطان لكم علي أبداً. السبب:

{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ...}: الكلّ بيده. **{... مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}**: ما من شيء إلا سيره بالله. **{... إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**: حيث أنه ﷺ مؤمن بأنه طاهر ومستقيم على أمر الله بالتمام، عرف أن الله تعالى لا يسوق له شيئاً من الأذى على يد أحد، لذلك كان جريئاً وانتصر.

والآن وبعد أن بيَّنا هذه النقطة الهامة من حيث نسبة الاختيار المطلق للعبد على مستحقِّيه والحول والقوة لله.

نعود إلى كلمة **(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً)** لنبيِّن لك المعنى الصحيح الذي يتوافق مع العدالة والرحمة الإلٰهية فنقول:

إن كلمة **(يُضِلُّ)** مأخوذة من: ضلَّ بمعنى: ضلَّ وتاه وضاع. تقول: ضلَّ المسافر في الفلاة، أي: تاه عن الطريق ولم يهتدِ إليه. وتأتي كلمة "ضلَّ" بمعنى غاب وهلك، تقول: ضل الشيء، أي: تلف ولم يبقَ له أثر. ومن ذلك ما ذكره تعالى من إنكار الكافر للبعث فقال تعالى في سورة السجدة (١٠):

{وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...} أي: هل نُخلق جديداً من بعد أن تبلى أجسادنا وتختلط ذرَّاتها بالتراب فلا يبقَ لها أثر؟.

وقد تُزاد الهمزة في أول الفعل للتعدية، تقول: أضلَّ فلان الشيء، أي: غيَّبه ودفنه فأصبح لا يُرى ولا يُهتدى إليه، كما بآية:

{يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانَاً خَلِيلاً، لقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي..} (١)

وبناءً على ما قدَّمناه من الشرح اللغوي نقول:

بما أن الإنسان بإعراضه عن خالقه تمتلئ نفسه بالخبث والشهوات المنحطة، لذلك تقضي الرحمة الإلَهية بمعالجة هذا المريض ويكون هذا المثل الذي يضربه الله تعالى وسيلة وواسطة لهذه المعالجة. فهذا المعرض بسماعه المثل يستخف قائلاً:

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً)؟.

ويسوق له قول الإثم هذا بالاستخفاف والاستهزاء بقوله:

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً): العلاج المناسب من الله تعالى على هذا القول، فينزل الله به مرضاً أو شدة من الشدائد التي فيها ضغط أليم على النفس، ومن الملاحظ أن كل إنسان إذا نزلت به مصيبة أو حاقت به شدة عظيمة أو مرض مؤلم تنكسر نفسه وتراه بهذه المصيبة قد انشغلت نفسه عن كل شيء حتى أنه ليغيب بألمه عن كل شهوة. ذلك ما توحيه لنا كلمة:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً):

أي: إنه تعالى بهذا المثل وما يعقبه من المعالجة على الاستخفاف وقول الإثم يخفي ويستر عنه كثيراً من الشهوات الكامنة في نفسه، وإن شئت فقل: يضل هذا الكافر عن كثير مما في نفسه من شهوات خبيثة فلا يعود يفكِّر بها ولا يراها.

---

١ – سورة الفرقان: الآية (٢٨–٢٩).

هذا هو معنى الإضلال من الله في حق الكافر، إنما تتمثَّل لك فيه الرحمة والرأفة الإلّهية كما يتمثَّل لك الفضل والإحسان الإلّهي.

فالكافر إذن يضلّه الله ضلالة واحدة ليُخرج من نفسه الخبث وينظِّفها من كثير من الخبائث فلا يُريه ما وراءه: «**حُبُّك الشيء يُعمي ويُصمُّ**»[1] **(وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً)**:

المؤمن الذي آمن يهديه لكثير من الخيرات. المؤمن عرف أن السعادة من طريق المربِّي فاهتدى وكسب كثيراً.

المؤمن الذي آمن بالله ينكشف له بذلك النور الإلّهي الذي أنار نفسه المقبلة على الله ما في هذا المثل من الخير، وبهذه الرؤية يزداد تقديراً لخالقه وحبّاً به، وهذا التقدير والحب يدفعه إلى العمل الصالح الذي يزيد إقباله واستنارته وبذلك يزداد رؤية وهدى ويرتقي من درجة إلى درجة أعلى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

وهكذا فهذا المثل الذي يضربه تعالى إنما هو بآن واحد مفيد للطرفين:

فهو تعالى يضل به عن نفس هذا الكافر كثيراً من الشهوات الخبيثة حينما يعالجه عن عمل خبيث سيءٍ فإن تاب ثم أناب إلى الحق واستسلم إليه "والإسلام يجبُّ ما قبله"، نعم إنَّه انشغل عن الشهوات الأخرى بالعقاب الشديد عن ذنب واحد اقترفه ثم رجع للحق بنفسه فمحى ما فيها من شهوات منحطة وستر هذا الإنسان منها فشفاه ومحاها ولن يراها وحسب التفصيل الذي فصَّلناه آنفاً، كما يهدي به المؤمن كثيراً ويرقّيه من حال إلى حال أعلى، والحمد لله على كل حال.

أما كلمة **(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)** فهي تبيّن لنا أن الله تعالى لا يحجب عن رؤية ما في المثل من الخير إلا الفاسقين، لأنه تعالى لو أراهم ما في المثل

---

١ –أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٩٤.

لما استخفوا ولما قالوا كلمة الإثم، ولما ساق الله تعالى لهم ذلك العلاج وبذلك يبقى الخبث كميناً في نفوسهم وتظل أنفسهم بذلك عرضة لازدياد المرض وتفاقم العلل.

فمن خرج عن الحق امتلأت نفسه بالرذيلة يُضله عن واحدة "أي عمَّا وراءها" حتى يقع ليؤدِّبه فلعلَّه يتوب وتطهر نفسه من مئات الأدران.

* * *

من هم الفاسقون؟.

{الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}: بالأزل قالوا: يا رب نحن إن أرسلتنا للدنيا لن نتركك. لمَّا جاء للدنيا أعرض فعمي.

وكلمة **(الْفَاسِقِينَ)** مأخوذة من فسق بمعنى: خرج عن طريق الحق وجاوزه. وأول عمل الفاسقين هو نقضهم عهد الله من بعد ميثاقه.

ونقض العهد: هو عدم الوفاء به والنكول عنه.

والميثاق: مأخوذة من وثَّق، بمعنى: ربط ومتَّن. تقول: وثَّق فلان السند، أي: أشهد عليه ومتَّنه، ووثَّق الرباط، أي: شدَّه ومكَّنه، وتبياناً وتوضيحاً لمعنى هذه الكلمة نقول:

ذكرنا من قبل أن أعظم ما يجده الإنسان من النعيم في الدار الآخرة هو النظر إلى وجه الله الكريم، وأن الله تعالى إنما خلق الخلْق ليتفضَّل عليهم ويكرمهم بهذا النعيم الذي ليس يوازيه أو يعادله نعيم. وبما أن هذا النعيم لا يكون ولا يتم ولا يتزايد ويدوم إلاَّ إذا كان للإنسان عمل صالح يجعله واثقاً من رضاء خالقه عنه حتى يستطيع الإقبال عليه، لذلك اقتضى الأمر بإخراج الناس إلى الدنيا وجعلها داراً للعمل والتسابق والمسارعة في الخيرات، لكن العمل لا قيمة له إن لم يكن صادراً عن اختيار الإنسان وعن طيب نفسٍ منه. ولهذا كله منح الله

تعالى عباده الاختيار، أي: إنه تعالى جعل الإنسان مطلقاً حرّاً في اختياره يختار ما يريد لنفسه لا يقيده في ذلك قيد ولا يمنع النفس من اختيارها مانع، وبهذا أصبحت قيمة العمل مرهونة بنيَّة الإنسان العالية، فكلَّما سمت نيَّة الإنسان وكانت عالية كلما ازدادت قيمة العمل. وبما أن الله تعالى كل فعله كمال وكله خير وفضل وإحسان لذلك بيَّن لهذا الإنسان أن هذا الاختيار لا يكون صالحاً وهذه النية في الأعمال لا تكون طيبة إلاَّ إذا كان الإنسان مستضيئاً بنور خالقه.

فهذه النيَّة والاختيار إنما يوجههما في طريق الخير والسعادة تلك الرؤية المبنية على الاستضاءة بنور الخالق. ولذلك عهد الله إلى الإنسان أن يظلَّ إذا هو جاء لهذه الدنيا مستضيئاً بنور خالقه لا ينقطع عنه ولا يتحوَّل، فإن وفَّى بعهده ولم ينقطع عن نوره ظلَّ يمشي سوياً على صراط مستقيم، وإن انقطع عمي وضلَّ وتولَّد الخبث في نفسه وساقه ذلك إلى اختيار السوء وكان من الهالكين، عرف الإنسان ذلك كله في الأزل وعاهد ربه أن يظلَّ إذا جاء إلى الدنيا مُقبلاً على خالقه مستضيئاً بنوره لا ينقطع عنه ليظفر بالسعادة، لقد عاهد الإنسان ربَّه وأعطاه ميثاقاً ووعداً بذلك.

أما سائر الأنفس مما سوى الإنسان فقد خشيت على نفسها إذا هي أُعطيت حرية الاختيار أن تنقطع عن خالقها ولا تفي بعهدها فتختار ما يكون سبباً في شقاوتها الأبدية، لذلك أحجمت عن الدخول في ذلك الميدان الذي دخله الإنسان، ذلك الميدان الذي إن أوفى الإنسان فيه بعهده نال فوق ما يناله كل مخلوق، وإن هو نكث ونقض العهد انحط فكان في الدنيا شر البرية وفي الآخرة أشقاهم مكانة وأتعسهم حالاً وكان في أسفل سافلين.

وقد أشار تعالى إلى ذلك الموقف الذي وقفه الإنسان في الأزل مبيِّناً تحمُّله لذلك العبء العظيم الذي أحجمت عنه سائر الأنفس فقال تعالى:

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً، إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [1]

أي: هل كان الإنسان بحمله الأمانة ظلوماً جهولاً؟. كلا، أبداً لم يكن، إذ أنه اختار طلب الله واختار الرفعة والكمال المطلق والجنَّات العُلى.

وليس المراد من كلمة **(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)** نسبة الظلم والجهل إلى الإنسان بحمله الأمانة وعهده لخالقه، إنما المراد بيان ظلمه لنفسه وجهله إذا هو لم يفِ عهده ولم يؤدِّ الأمانة بعد أن تعهَّد بحملها لأنه بذلك إنما يحرم نفسه مما أعدَّ الله لها من الخير وما خلقه الله تعالى من أجله.

* * *

ماذا ينجم عن نقض الإنسان عهده مع خالقه وانقطاعه عن الصلة به؟.

لقد بيَّن لنا تعالى ذلك فقال:

{وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ}.

وتفيد كلمة **(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)** أن الفاسق رجل ضال مضل، فهو إلى جانب نقضه عهده مع خالقه يسعى في أن يقطع غيره أيضاً عن الإقبال على الله والصلة به وأن يقطع الناس عن سيدنا محمد ﷺ وسيلةَ وسببَ الاتصال به تعالى والإقبال العالي عليه وأن يقطعهم عن آل محمد ﷺ . إذ بصحبة رسول الله النفسية تدخل على الله فتستنير بنور الله، إن لم تصاحب رسول الله بنفسك فلن تدخلنَّ على الله.

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (٧٠–٧٢).

أما كلمة (وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ) فإنما تشير إلى ما يقوم به الفاسق من الأعمال التي فيها أذى وإضرار بالناس. وبشيء من التفصيل نقول:

الفساد: هو التلويح بالدنيا وزينتها والخروج على الناس بزخرفها وإشعار الآخرين بأن ما هم فيه إن هو إلا نقص وفقر وحرمان وفي ذلك ما فيه من تنغيص عيش الناس وتكدير حياتهم أو إغرائهم بالوقوع في المحرَّمات وجرِّهم إلى الأعمال التي حذَّر الله تعالى منها ونهى عنها إلى غير ذلك مما كنا وضحناه ببعض الأمثلة عند تأويلنا بعض الآيات الكريمة الواردة في مطلع هذه السورة الكريمة والتي تبيِّن ما يقوم به المنافقون من الفساد في الأرض. فالفاسق بانقطاعه عن رسول الله ﷺ ينقطع عن الله فيفسد ويذهب للَّهو والبسط. الدنيا دار عمل لا دار كيفٍ وبسط. الدنيا دار جدٍّ واجتهاد وعلم وعمل معروف وإحسان.

آمِنْ صاحبْ رسول الله ﷺ ، أهل الكمال: ادخل بمعيَّتهم على الله تحصل لك التقوى، تستنير بنور الله ترى الخير خيراً والشر شرّاً.

ولكن ماذا يجني هؤلاء الفاسقون من وراء أعمالهم كلها؟.

لقد بيَّن لنا تعالى أن الفاسق لا يجني إلا الخسران، قال تعالى:

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}: خسر ما أعدَّه الله له في الآخرة. أعدَّ الله تعالى لك في الآخرة جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، إن لم تفكِّر فستضيّعها.

فالإنسان إنما أخرجه الله تعالى إلى هذه الدنيا ليكسب عمره الثمين في الأعمال التي يتقرَّب بها إلى خالقه زُلفى. أما هؤلاء فقد ضيَّعوا عمرهم الثمين سدى وصرفوا حياتهم بالفساد والأذى وبذلك خسروا خسارة أبدية لا تعوَّض.

لقد خسروا ما أعدَّ الله تعالى لهم في الآخرة من الخير العميم والجنَّة وما فيها من نعيم مقيم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ وغوى وخسر خسراناً مبيناً.

أما وقد بيَّن لنا تعالى أحوال الفاسقين وفسادهم في الأرض وخسرانهم المبين، لذلك انتقل بهذا الإنسان إلى بعض الآيات التي تعرِّفه بفضله تعالى عليه في إخراجه إلى الدنيا وما تفضَّل به تعالى من خلْق الكون كله من أجله فقال تعالى:

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

وتفيد كلمة **(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ):** التقريع لهذا الإنسان المعرض عن الله وتحريضه على التفكير والتعرُّف إلى فضل الله. أين كنت قبل مجيئك للدنيا؟. كيف تكفر بلا إلَه إلا الله؟.

أما كلمة **(وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً):** فهي تشير إلى حال الإنسان قبل خروجه إلى هذه الدنيا لمَّا كان نفساً مجرَّدة عن هذا الجسد المادي. وتفصيلاً لذلك وتعريفاً للإنسان بذاته نقول:

يتركَّب الإنسان من عناصر ثلاثة:

١. نفس.

٢. وروح.

٣. وجسد.

فالنفس: هي ذات الإنسان الشاعرة، وهي التي تُسر وتحزن، وتفرح وتغضب وتتنعَّم وتتألم، وهي التي تشكر وتكفر، وتُقبل وتدبر، وتقر وتنكر، وهي التي تؤمن وتوقن وتقبل على خالقها إن هي آمنت به إيماناً صحيحاً وتستغرق في التنعُّم بإقبالها عليه فلا تبغي عنه حولاً.

إنها أعظم عنصر في هذا الإنسان، وما الروح والجسد إلا معينان لها يساعدانها للتوصُّل إلى مآربها ومطالبها ومقر النفس في صدر الإنسان وأشعتها

سارية في الأعصاب المنتشرة في سائر أنحاء الجسد، وبواسطة الحواس تستطيع أن تتعرَّف إلى هذا العالم المحيط بها، وبواسطة التفكير تستطيع أن تقارن وتحاكم، ثم تتوصَّل إلى إدراك الحقائق.

أما الجسد: فهو هذه الأعضاء المادية المؤلَّفة من العظام والعضلات والجلد والأعصاب والدم وما فيه من سوائل وكريات.

والروح: هي تلك القوة المحركة التي تؤمِّن للجسد الحياة والنماء، وما دامت الروح سارية فيه سرت النفس بجوارها مرافقة لها، فإذا ما بدأت الروح تنسحب وتُفارق هذا الجسد لحقت بها النفس ثم تخرج الروح عند الموت وتخلد النفس وتتحلَّق بذرَّة من ذرَّات جسدها، فإما أن تكون مسرورة بما كسبت من علم بالله وإيمان به ومعرفة وعمل صالح يؤهِّلها للإقبال عليه، والسريان بالنعيم الإلّهي والتحليق. ويُلقى بثوبها الجسدي بالتراب، أما هي فتعلو وتسمو في الجنَّات كالنائم الغارق في لذيذ المنام الغافل عن جسمه بالكلية لما يشاهد من جميل الأحلام لكنها بالنوم أحلام وبعد الموت حقائق سرمدية لا تبغي النفس عنها حِوَلاً ولا ترضى للحياة الدنيا رجوعاً لما تجده عند ربِّها من عظيم الإكرام.

وإما أن تكون متألمِّة مما تحمل من أوزار وخطيئة وآثام فتظل عمياء محبوسة في شقائها الناشئ عن عملها السيء، مرهونة في قبرها وبالأرض بعملها الخاطئ.

قال تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ...}**[1]

---

١ – سورة المدثر: الآية (٣٨–٤٠).

وقد وجدت الأنفس في عالم الأزل يوم عرض الأمانة على صعيد واحد، ثم طويت هذه الأنفس البشرية كلها في صلب سيدنا آدم ﷺ ومنه صار التناسل وبهذه الواسطة كان خروج هذه الأنفس إلى عالم الصور والأجساد جيلاً بعد جيل، وأناساً بعد أناس.

لقد أخرج الله تعالى الأنفس إلى هذه الدنيا لتتبارى في العمل الصالح وتتسابق في فعل الخيرات. وكانت الأنفس قبل ذلك ساكنة لا عمل لها لأن العمل لا يكون إلا بعد اقترانها بهذا الجسد فهو مطيَّتها وبما فيه من جوارح وأعضاء تسعى وراء غاياتها، وبمعارضتها لرغائبها ولشهواتها المحرَّمة التي حَرَمتها وتحْرِمُها من الوجهة إلى الله تعالى ودوام الاستنارة بنوره الغالي الثمين وما يشمل من طيِّبات الجنَّات وما ينشأ عن البعد عن الله من عللٍ نفسية معنوية تهدُّ الإنسان هدّاً وتُشقيه ومن حوْلَه شقاء حتى تصل بالنفس إلى أن تتأجج وتلتهب التهاباً لا يسكِّن لظى سعيره غداً إلاَّ نيران الطهارة، نيران الله الموقدة التي تبتغيها وترضاها لتكون بديلاً عن سعير لهيبها المريع التي تشويها شيّاً فتبتغي وتشتهي صحبة نار الله التي تنزع هذا الشوى:

{كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى، تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى} (١)

فبمعارضة النفس لرغائبها وشهواتها المحرَّمة المُهلكة تستطيع أن ترتقي وتتقرَّب إلى خالقها.

وبناء على هذا نستطيع أن نفهم ما تعنيه كلمة **(وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ)**:

فالموت هو بطلان الحركة وعدم العمل.

---

١ – سورة المعارج: الآية (١٥-١٨).

لقد كانت النفس خامدة لا حركة لها، فمن الذي قرن هذه النفس إلى جسدها وأخرجها إلى هذه الدنيا؟. من الذي خلق لها هذا الجسد على هذا الكمال؟. من الذي ضمَّ إليه الروح فجعل فيه الحياة؟. من الذي جعل هذا الإنسان على هذا النظام وفتح أمامه مجال العمل وأهَّله لاكتساب الخيرات؟. أهو فعل ذلك كله بذاته، أم أنَّ هناك يداً عليَّة عليمة قديرة فعلت وتفعل ذلك!.

كل هذه المعاني نستطيع أن نفهمها من كلمة:

(وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ): أَطْعَم أباك المأكولات حتى صرت نطفة، ألا تفكِّر كيف تخلَّقت هذه النطفة!. ما هذه المأكولات التي وجدت، من أنبتها حتى تكوَّنت منها؟.

ولكن لا تحسبنَّ أنك ستخلد في هذه الحياة الدنيا إلى الأبد، فما دامت لأحد من قبلك حتى تدوم لك وما جعل الله لبشرٍ من قبلك الخُلْد، إن هي إلاَّ أيام معدودات تقضيها وشيكاً وتمرُّ بك سريعاً، ثم يأتيك هاذم اللذات ومفرِّق الجماعات، لقد جئت إلى هذه الدنيا بمهمّة وأنت الآن بمدرسة فسابق وسارع في الخيرات ولا تضيعنَّ عمرك الغالي بتافهات الأعمال، بل اكْتَسِبْه بما يجعلك غداً من السعداء، فما اقتران النفس بجسدها إلاَّ لتقوم بواجبها وتصل إلى سعادتها الأبدية فإذا ما انقضى الأجل فستنفصل الروح وتخرج النفس من الجسد وسينقطع عملها وترقد رقدة طويلة الأمد تنتهي بها يوم البعث والنشور يوم يقرن الله هذه النفس إلى جسدها ثانية ويعيد إليها الروح، وهنالك تقف بين يدي ربِّها لتؤدي حساباً دقيقاً عمَّا قدَّمت من أعمال وتوفَّى كل نفس بما كسبت وهناك الحسرة والسوء على الكافرين.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [1]

ذلك كله إنما تذكّرنا به كلمة **(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)**: ألا تفكّر بهذا!.

(ثُمَّ يُحْيِيكُمْ): غداً. **(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**: للمحاكمة والسؤال والحساب، كما أنها تذكِّرنا أيضاً بأن الذي أوجدنا ولم نكُ شيئاً مذكوراً، ثم أحيانا من بعد موتنا وأخرجنا إلى هذه الدنيا، وأن الذي أمدَّنا بالحياة وَمَنِ افتقارنا دوماً إليه هو الذي يحدِّثنا وهو القادر على أن يحيينا ويصدرنا كما بدأنا أول مرة، وهو أهون عليه.

وبعد أن ذكر لنا تعالى فضله علينا في إيجادنا وإخراجنا إلى هذه الحياة الدنيا، وبعد أن ذكَّرنا بالموت وبمرجعنا إليه أراد تعالى أن يبيِّن لنا طرفاً من فضله علينا وعنايته بنا لعلَّنا نفكِّر ولو قليلاً فنأوي إلى كنف هذا الرب المنعم ونلجأ إليه. ولذلك قال تعالى:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

وتريد كلمة **(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً)** أن تلفت نظرنا إلى الأرض وما عليها، وهي إنما تتناول نواحي عديدة جديرة بإعمال نظرنا وتفكيرنا. مَن الذي خَلَقَ لك كل هذه الأشياء على الأرض؟. كل ما فيها خُلِق لك. كم أنت مُكرم عند الله وأنت لا تدري، لكن إن لم تسلك طريق الحق هويْتَ غداً هوياً عظيماً.

فمن الذي خلق لنا في هذه الأرض الجبال وأودع في باطنها مستودعات المياه التي تمدُّ الأنهار بالمياه طوال العام؟.

---

١ – سورة الأنعام: الآية (٢٧).

وإذا علمت أن بعض هذه الأنهار يصب ثمانين ألفاً من الأمتار المكعبة في الثانية الواحدة، فكم متراً مكعباً يا ترى يصب في الدقيقة؟. وكم يصب في الساعة واليوم والسنة؟.

من الذي أوجد هذا المستودع العظيم ومن الذي يمده دوماً بهذا الماء الغزير فلا ينضب ولا يغيض؟. من الذي نشر لنا الينابيع والأنهار على سطح هذه الكرة الواسعة في أنحائها المختلفة؟. وإذا علمت أن ما من قرية أو مدينة أو جزيرة إلا وينبعث فيها أو يمرُّ منها ينبوع أو عدد من الينابيع تمد تلك المناطق بالمقادير المناسبة من الماء، فمن الذي خلق هذا ونظَّمه هذا التنظيم وأين هي مستودعاته الكبرى؟. أم من هو المدبِّر لهذا والساهر عليه؟. من الذي أوجد لنا البحار المحيطة تمدُّ بمياهها أمطار السماء لتغذي ينابيع الماء في مختلف الأقطار؟. من الذي جعل ماء البحر ملحاً أجاجاً وألقى فيه هذه الأنواع المختلفة من الأسماك وجعل مياهه تموج بعضها في بعض موجاً دائمياً لا ينقطع تنقيةً لمائه وتطهيراً؟.

من الذي أودع لنا في باطن الأرض ما أودع من معادن مختلفة الخصائص فلكلٍّ منها صفات ولكلٍّ استعمال؟.

من الذي ذرأ لنا في الأرض ما ذرأ من نباتات مختلفة الألوان، متباينة الطعوم والأشكال متعددة المنافع لكلٍّ ضرورة ولكلٍّ منها فائدة؟.

من الذي بثَّ لنا في الأرض من كل دابة وخلق ما خلق من مخلوقات حية يعجز الإنسان عن إحصاء أنواعها ولا يستطيع أن يحيط بفوائدها ومهما جدَّ فإنه يقصِّر عن إدراك أنظمتها في حياتها ومعرفة وظائفها جميعها؟. هل لأحدٍ يدٌ في هذا كلّه غير يد الإلّه العظيم؟.

من الذي جعل في الأرض هذه الجاذبية القوية؟. من الذي خلق ذلك كله وأوجده على هذا الكمال؟. أليس ذلك هو الله؟. أليست هذه الأشياء كلها إنما خُلقت لتتأمَّن بها حياة هذا الإنسان؟. ألا يقتضي على الإنسان أن يفكِّر بهذا كله ويتعمَّق في التفكير ويشكر خالقه على ما غمره به من إنعام وما تفضَّل به عليه!.

إن ذلك كله إلاَّ ذرَّة من ذرَّات فضله علينا وعنايته بنا، وكلما ذهبت تفكِّر في كلمة **(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً)** زدت تعظيماً وتقديراً، وكلما انفتح أمامك أفق من آفاق المعرفة تبدَّت "ظهرت" لك آفاق وآفاق ووجدت نفسك التي هي ذرَّة من ذرَّات هذا الكون مكرمة عند خالقها إكراماً كبيراً وعرفت أنَّ لها عنده شأناً عظيماً، فما يليق بالإنسان تجاه هذا الفضل والإنعام إلا الحب والتعظيم والشكر والتقدير ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد.

أما كلمة **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)**: أي: أنضجها.

(فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ): فصار لكل سماء عملها، طبقة فوق طبقة تعطيك الخيرات وتمدُّك. فإنما تزيدك أيضاً تعريفاً بفضل خالقك عليك وعنايته بك..

فهو يبيِّن لك أن الذي خلق لك ما في الأرض جميعاً إنما خلق لك أيضاً سبع سموات.. متعاونات على تأمين حاجاتك وإيجاد الوسائل والشرائط الضرورية لحياتك.

فهذه الأرض وحدها لا تستطيع أن تُنتج ما تُنتجه لك من فواكه وأثمار، وهي لا تستطيع أن تولِّد لك الليل والنهار ولا الفصول الأربعة من صيف وخريف وشتاء وربيع وهي وحدها لا تستطيع أن تجعل جوها حاراً ولا رطباً ولا أن تمدَّك بما تمدَّك به من ينابيع وأنهار وهواء نقي صالح للاستنشاق. ابحث عمَّن يفعل

كل ذلك في خلواتك مع نفسك وأقنعها لتتَّجه إليه تعالى من ثنايا آياته لكي تصل إليه تعالى وتنال قربه فتغدو محسناً وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

الأرض وحدها كتلة جامدة لا حركة لها ولا دوران ولا سحاب في جوّها ولا رياح ولا نور ولا أشعة ولا ضياء.. الأرض وحدها كتلة سوداء مظلمة ليس فيها إنسان ولا حيوان ولا يمكن أن يعيش على سطحها مخلوق من المخلوقات، الأرض وحدها ميتة.

نعم إن الأرض فيها قابلية للحياة وإمكانيات للدوران وتولُّد الفصول وتشكُّل الليل والنهار، وفيها مستودعات عظيمة منشورات هنا وهناك مهيَّأة لخزن مياه الأمطار ولكل مستودع منها فتحة مناسبة تجعله كافياً لأن يمدَّ بما أمدَّ الأرض طوال العام [١] ، لكن ذلك كله لا يستطيع أن يقوم بوظائفه ويؤمِّن ما يؤمِّن لولا السماء.

قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}** [٢]

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} [٣]

{وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}[٤]

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ، وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [٥]

---

١ – انظر كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم للعلامة محمد أمين شيخو.

٢ – سورة الأنبياء: الآية (٣٢).

٣ – سورة الطارق: الآية (١١-١٢).

٤ – سورة الذاريات: الآية (٢٠-٢٢).

٥ – سورة يوسف: الآية (١٠٥-١٠٦).

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [١]

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [٢]

وقد أشار تعالى إلى الأرض وما فيها، والسماء وما شأنها في "سورة الطور" فقال تعالى: **{وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ}** [٣]

فلولا السماء لما لزمت الأرض مدارها الذي تجري فيه الآن بنظام، بل لجرت شاردة في الفضاء ولأدركها الخراب والاضمحلال، لكن هذه السماء المحيطة بهذه النجوم من كافة جهاتها إنما هي بمثابة قشرة الرمان الجامعة تجمع الحبّات إلى بعضها بعضاً وتسلكها في هذا النظام العام فلا يحصل لها في جريها خروج عن مدارها ولا يعتريها أدنى انحراف.

ولولا السماء لما لزمت الشمس مكانها من الأرض ولما أمدَّتها بهذا الإشعاع والضياء وبالتالي لما تولَّدت الفصول ولا الليل ولا النهار ولولا السماء لما استوقفت الطبقات الهوائية العليا تلك الأبخرة المتصاعدة من البحار، ولما تشكَّلت الغيوم ولما هطلت الثلوج والأمطار، بل لشردت تلك الأبخرة في الأجواء، متفرّقة

---

١ – سورة آل عمران: الآية (١٩٠-١٩١).

٢ – سورة البقرة: الآية (١٦٤).

٣ – سورة الطور: الآية (١-٥).

الذرَّات، مبعثرة هنا وهناك. ولولا السماء لما دار القمر حول الأرض دورته، بل لفارقها ولما قام بوظائفه التي يقوم بها الآن.

ولولا السماء لما تراكم الهواء في هذا الجو الأرضي، بل لتناثرت ذرَّاته متباعدة ولما نشأ ضغط ولا أمكن التنفس ولا عاش الإنسان والحيوان والنباتات.

وهكذا ففي السماء آيات بيِّنات وهي تساعد بتضامنها مع الأرض على إمكان الحياة. فمن الذي خلق الأرض وأحاطها من جميع جهاتها بالسماء؟.

من الذي جعل الأرض بيتاً معموراً وجعل لها السماء سقفاً محفوظاً ورفعها بغير عمد ترونها؟.

من الذي جعل السماء طبقات، طبقة تحجز الغيوم وتحول بينها وبين التبعثر والفناء، وطبقة تحيط بالهواء من جميع الجهات فتجعله ملازماً حدَّ الأرض لا يفارقها أينما ارتحلت وحلَّت، وطبقة تجعل القمر ملازماً مداره حول الأرض لا يجاوزه ولا يتعداه، وطبقة تعكس أشعة الشمس نحو الأرض فتنير الأرض وتدفئ سطحها وتبخر مياه بحارها وتنزل بها مياه الأمطار فتنبت الزرع وتملأ مستودعات العيون والأنهار، وطبقة تجعل الكواكب المستمدة معظم نورها من الشمس في جرمها القريب من الأرض فهي لها مصابيح تُزيِّنها وتحفظها، وطبقة تجعل النجوم المنثورة في مواقعها السحيقة تتعاون متجاذبة مع بعضها بعضاً كالإناء المتماسك لتساعد على بقاء الأرض وبقاء ما يحيط بها قائماً بوظائفه، فلا يستطيع شيء أن ينحرف انحرافاً ما ولا أن يقصِّر في تأدية وظيفته قليلاً ولا كثيراً، وطبقة محيطة بالنجوم كلها جامعة هذا الكون المشمول من جميع نواحيه بها فهي لجميع ما فيه كالعلبة المحيطة، وإن شئت فقل كما قلنا آنفاً كقشرة الثمرة الخارجية الشاملة الحافظة.

فمن الذي رتَّب هذا الترتيب وخلق هذا الخلْق المنظَّم البديع؟.

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} [١]

من الذي خلق سبع سموات طباقاً وأوحى في كل سماء أمرها ووظيفتها؟. من الذي خلق الأرض هذا الخلْق العظيم وأحاطها بسمائها؟. ألا يدلُّ ذلك الترتيب على يد منظِّمة وإرادة عليمة حكيمة، وقدرة عظيمة متحكِّمة حاكمة لا نهاية لعظمتها؟. أليس ذلك هو الله الذي خلقك وأوجدك وخلق الأرض وما فيها والسموات السبع وما فيهن من أجلك ولدوام حياتك وتربيتك؟.

ذلك كله إنما تشير إليه آية:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ): كله بعلمه ترتَّب.

وتفيد كلمة **(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** أن كل ما في الكون سائر بإرادته تعالى، قائم بالله ممارس وظيفته ضمن علمه، فلا يعزب عنه تعالى مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض. فكل شيء يعمل وكل شيء يؤدي وظيفته والله تعالى هو المشرف والمهيمن وهو الممد والمسيِّر وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

أفيكون هذا شأنه تعالى مع كل مخلوق ويكون بعيداً عنك لا يراك؟. وكيف خلقك ورتَّبك ونظَّمك هذا التنظيم البديع في رحم أمّك أوَ لا يراك؟. أوَ لا يراك من أمدَّك بالبصر؟. أفيُعنى بك هذه العناية ويتركك وشأنك تهيم على وجهك ولا يرى كل حركة من حركاتك؟. أليس هو القريب منك؟. أليس هو الممد لك؟.

---

١ - سورة الملك: الآية (٣-٤).

أليس هو الشهيد عليك؟. أليس إمداده تعالى سارياً في كل ذرَّة من ذرَّات هذا الكون وسارياً بلطف فيك؟.

ذلك كله نستطيع أن نفهمه من هذه الآية الكريمة التي أوردها الله تعالى لنا يدعونا فيها إلى التفكير في آياته تعالى لعلَّنا نتوصَّل من ذلك إلى إدراك شيء من قدرته تعالى وطرفٍ من عنايته بنا.

ونستطيع أن نفهم من كلمة **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)** أن السموات السبع كانت في أول أمرها شيئاً واحداً، فلما تجلَّى الله تعالى عليها ذلك التجلِّي الخاص أصبحت سبع سموات، ومما يوضِّح ذلك أيضاً ما ورد في سورة فصِّلت في قوله تعالى:

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...} (١)

وهكذا فبهذا التجلِّي الإلَهي سرت الحياة في السماء فصارت سبعاً وقامت كل سماء منها بوظيفتها المخصَّصة بها وقام كل مخلوق فيها بعمله فالتهبت الشمس وجعلت تُرسل أشعتها وتمد الأرض بنورها وحرارتها، ودار القمر دورته حول الأرض يضيئها ليلاً ويبعث بتأثيراته إليها، وسرت جاذبيات النجوم في بعضها بعضاً متعاونة على تأمين هذا النظام العام.

وهكذا فانقلاب السماء إلى سبع سموات وقيامها جميعها وقيام ما فيها بما هو مخصَّص به من وظائف وأعمال إنما هو بسريان هذا التجلِّي الإلَهي فيها وذلك ما نفهمه من كلمة:

---

١ – سورة فصلت: الآية (١١–١٢).

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ).

ونستطيع أن نقرّب لك المعنى هنا من بعض نواحيه فنقول:

هب أن معملاً معدّاً لإنتاج مادة من المواد لكنه خامد ساكن لا حركة فيه ولا دوران فما أن وصل صاحبه التيار الكهربائي وسرى هذا التيار حتى انطلقت جميع آلاته تعمل وتتحرَّك وجعل هذا المعمل يُنتج ما يُنتج وكل ذلك إنما كان بسريان هذه القوة الكهربائية وإيصالها.

إن هذا المثال وإن كان يقرِّب لنا هذا المعنى بعض التقريب لكنه أيضاً لا يستطيع أن يفي بالمطلوب لأن الكون كما ذكرنا ليس متوقفاً في سيره فحسب على تجلِّي الله تعالى عليه، بل إن وجوده وقيامه وحركته إنما يتوقف على إمداد الله تعالى وتجلِّيه المتواصل، فبه تعالى الوجود وبه القيام وبه السير وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكَّل عليه.

ولعلَّك تقول ما المراد بكلمة **{فِي يَوْمَيْنِ}** الواردة في الآية التي مرَّت بنا وهي قوله تعالى: **{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}** فنقول:

ليس المراد من كلمة **{فِي يَوْمَيْنِ}** بيان فترة زمنية استغرقها خلْق السموات. وإنك إذا رجعت إلى الآيات التي سبقت هذه الآية لتبيَّن لك المراد من ذكر الأيام مقروناً بخلْق السموات والأرض، قال تعالى:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (١)

فالله تعالى حينما يقرِّع الكافرين ويسألهم **{أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}** لا يريد بذلك أن يعرِّفهم أن خلْق الأرض استغرق يومين لأن ذلك لا يقيم عليهم حجة ولا يستدعي تفكيراً، إذ باستطاعتهم أن يقولوا كيف يسألنا الله عن شيء لم نره فنحن لم نشاهد خلْق هذين اليومين ولا علم لنا بهما.

وبما أن الله تعالى لا يسأل عباده إلاَّ عن شيء ظاهر مُشَاهَد ولا يطلب منهم التفكير إلاَّ في آيات بيِّنة يستطيعون التوصُّل منها إلى تعظيم هذه الآيات وتقدير خالقها الذي أوجدها ولله الحجة البالغة، لذلك نقول:

ليس المراد بكلمة **{فِي يَوْمَيْنِ}** الواردة في الآية الكريمة بيان فترة زمنية استغرقها الخلْق، إنما المراد لفت نظر الإنسان إلى هذا النظام الكوني القائم الذي بموجبه تدور الأرض دورتها حول نفسها ويتشكَّل منها الليل والنهار، كما أن المراد بكلمة **{وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}** لفت نظر الإنسان إلى حركة الأرض الانتقالية التي تتشكَّل منها الفصول الأربعة وبواسطتها تحصل التبدُّلات الجوية في الصيف والخريف والشتاء والربيع فتهطل الأمطار وتهبُّ الرياح ويتناوب على الأرض الحر والبرد وذلك كله مما يساعد على خروج النبات وانعقاد الأثمار وتأمين الأقوات اللازمة لما على سطح الأرض من مخلوقات.

كلمة "اليوم" مشتقة من يؤم، أي: من أمَّ يؤم، وتبتدئ من اللحظة كما في آية:

{... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} (١)

---

١ – سورة فصلت: الآية (٩-١٢).

وقد تطول فتمتد إلى خمسين ألف سنة كما في الآية:

{... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [٢]

وقد تكون ألف سنة كما في الآية:

{... وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [٣]

فاليوم المعدود من قِبلنا هو اثنتا عشرة ساعة وسطياً وقد يزيد عنها في فصل الصيف كما ينقص عنها في فصل الشتاء.

وحتماً اليوم لا يشمل الليلة كما أخطأها بعض المشايخ، لإيضاحها من قِبَلِ ربِّ العالمين بآية:

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً...} [٤]

كذا في سورة الليل (١-٢): **{وَاللَيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}** مع حلول الظلام وبانحسار الظلام ينتهي الليل ويبدأ اليوم.

وهناك يوم القيامة، فاليوم لا يُحصر بفترة زمنية محددة ولكن يُفهم من مسرى الآية، فآية **{وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}** والأقوات لا تنضج ما لم تمرَّ بها الفصول الأربعة وإليها يؤم نضوجها نستدل منها الأيام المخصَّصة بالأقوات والمأكولات والثمرات التي تحتاج إلى مطر الشتاء وإزهار الربيع وإنضاج الصيف ثم تنظيف الخريف للإعداد لخلْق أقوات جديدة للبشرية جمعاء ولكافة الأحياء سواء، فالأيام الأربعة هي بذاتها الفصول الأربعة، والتي يؤم إليها إنضاج الحبوب والثمار.

---

١ - سورة الرحمن: الآية (٢٩).

٢ - سورة المعارج: الآية (٤).

٣ - سورة الحج: الآية (٤٧).

٤ - سورة الحاقة: الآية (٧).

هذا ولا تتم هذه الأيام الأربعة أي: الفصول إلاَّ بزيادة الليل ونقصانه يقابلها ذلك بالنهار المتعاكس زمنياً معها فيتبيَّن من ذلك أن اليومين اللذيْن تؤمُّ إليهما الفصول في حدوثها وإيتاء أُكُلها وتحقيق كمال وجودها وإتمام نعم الله على مخلوقاته هما الليل والنهار، فالليل يؤم إليه السكون والهدوء والراحة والنوم للمخلوقات والنباتات، والنهار يؤم إليه معاشك وجلب رزقك والعمل. "وهذا يتنافى مع من ظنَّ أن الليالي العشر هي ليالٍ بأيامها لأنه بذلك جعل اليوم يومين وهذا خطأ ظاهر ".

إن هذا النظام المحكم الذي تدور فيه الأرض في الفضاء حول نفسها مواجهة الشمس مشكِّلة الليل والنهار، والذي تنتقل بحسبه في الفضاء تنقُّلاً منظَّماً مشكِّلة به الفصول الأربعة لا يقرُّ الفكر البشري ولا يرتضي أن يكون مجرَّد صدفة أو رمية من غير رامٍ، بل إن من أوتي ذرَّة من تفكير صحيح إذا هو نظر في دوران الأرض وحركتها ودقَّق في ذلك النظام المبني على علم وحكمة وخبرة ومقدرة ورأفة ورحمة لا بد أن يحكم بوجود هذا الخالق العليم الحكيم والرب الرؤوف الرحيم والإلّه العلي القدير.

وذلك ما أرادت آيات:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} وما بعدها أن تعرِّفنا به وتلفت نظرنا إليه.

والآن وبعد أن أوردنا هذا المعنى بشيء من التفصيل نستطيع أن نوجز في شرح الآيات السابقة التي أوردناها مبيِّنين ما تشير إليه كلمة "الأيام" في كل منها فنقول:

في الآية الأولى وهي قوله تعالى:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}:

تشير كلمة **{فِي يَوْمَيْنِ}** إلى الليل والنهار، فإن اليوم هو الفترة الزمنية التي تنتقل معها الأرض من حال إلى حال، فالليل يوم وكذلك النهار يوم.

وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى:

{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}.

تشير كلمة **{فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}** إلى الفصول الأربعة، فكل فصل إنما هو فترة زمنية تنتقل فيه الأرض من حالة إلى حالة أخرى وهو يوم من الأيام تؤم إليه الأرض لفترة زمنية ندعوها فصلاً.

أما الآية الأخيرة وهي قوله تعالى:

{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...}:

فهي مرتبطة في الآية الأولى وهي قوله تعالى:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}.

وقد أوردها الله تعالى لنا أنه لولا السموات السبع لما دارت الأرض دورتها ولما تشكَّل الليل والنهار، فبتعاون السموات مع بعضها تدور الأرض دورتها ويحدث الليل والنهار.

ونعود الآن إلى تأويلنا في سورة البقرة فنقول:

أما وقد أورد الله تعالى لنا في هذه السورة ما يعرِّفنا بأقسام الناس من مؤمن وكافر ومنافق، والطريق التي يستطيع الإنسان بسلوكها أن ينتقل من حالة الكفر والنفاق إلى الإيمان، أراد تعالى في الآيات التالية أن يعرِّف الإنسان بأهليته الكاملة وما فطره الله تعالى عليه من فطرة عالية يستطيع معها أن يبلغ أعلى منازل الكمال ويسود في معرفة الله تعالى جميع المخلوقات.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في حديث قدسي شريف بيَّن لنا فيه ﷺ هذه الأهلية الكاملة التي منحها الله تعالى الإنسان بقول الله تعالى على لسانه:

«ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».

المعلم الأول سيدنا آدم عليه السلام

أبو البشرية ومعلمها

بعد أن نظَّم تعالى الدنيا على هذا الكمال أراد خلْق آدم عليه السلام ليُسعده هو وذرِّيته..

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..}

وقد بيَّن لنا تعالى ذلك كله في قصة سيدنا آدم عليه السلام، وكم ساق لنا في قصص الأنبياء من عبر وأمثال أدركها من أدركها من أهل التقوى والإيمان ورأوا ما تشير إليه تلك القصص الكريمة من سموّ هؤلاء الرجال وما قاموا به من جليل الأعمال وما امتازوا به من كريم الأخلاق وعالي الصفات.

والحقيقة أنه لا يقدِّر أهل الإيمان إلاَّ أهل الإيمان ولا يعرف الفضل إلاَّ ذووه ولا يدرك عظمة ما في القرآن من عبر وأمثال إلا كل قريب من الله متحلّ بحلية الكمال.

قال تعالى: **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ...}** (١)

{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ} (٢)

وإليك الآن ما بيَّنه الله تعالى في هذه السورة الكريمة عن سيدنا آدم عليه السلام في قوله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

---

١ - سورة يوسف: الآية (١١١).

٢ - سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

والملائكة: جمع مَلَك، وهم نوع من المخلوقات لمَّا عرض الله تعالى على الأنفس في عالم الأزل أن يمنحها حرية الاختيار أحجموا كما أحجم غيرهم عن الدخول في ذلك الميدان الذي دخله الإنسان ورضوا أن لا يكون لهم إطلاق وحرية في الاختيار. لقد ملَّك هؤلاء اختيارهم لله ولذلك سُمُّوا ملائكة. وبما أنهم ليس لهم أجسام كما للإنسان ولذلك فهم مجرَّدون عن هذه الشهوات المادية التي يميل الإنسان إليها، وليس لهم تلك الحاجات الجسدية، فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتوالدون ولا يميلون لشيء من هذه الأشياء.

ولمَّا قال ربُّك للملائكة **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)** طمعوا أن ينالوا ذلك المقام لأن الخليفة معناه ذلك المخلوق العالي الذي يكون أهلاً للنيابة عن الله تعالى في تبليغ عباده أوامره وتعريفهم به تعالى والدخول بهم عليه، فبما اكتسبه ﷺ من خالقه من رأفة ورحمة وعلم وحكمة وعدل وحب للحق وسموٍّ في الخُلُق وغير ذلك من صفات الكمال صار أهلاً لأن يقوم بذلك المقام فيكون خليفة الله في أرضه ويُقيم العدل ويحكم بين الناس بالحق وينشر الخير والصلاح في الأرض.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله تعالى مخاطباً سيدنا داوود ﷺ :

{يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ..} (١)

والخليفة كما يتولَّى منصب الحكم يتولى منصب الدلالة والإرشاد، قال تعالى في سورة الأنعام (٨٩): **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ...}**، إذ بما اكتسبه من دلالات ربه وأسمائه الحسنى وبما انطبع في قلبه من حب لخالقه وشغف به أضحى خليقاً بأن يكون وسيطاً بين الخلْق وبين الله يبلِّغهم أوامره

---

١ – سورة ص: الآية (٢٦).

تعالى ويعرِّفهم بكمالاته وأسمائه الحسنى ويرشدهم إلى طريق معرفته، فإذا ما ارتبطت نفوسهم به وأقبلت بمعيَّته دخل بتلك الأنفس على الله تعالى وكان لها سراجاً منيراً ترى به طرفاً من تلك الأسماء الإلَهية وتشاهد الكمال الإلَهي فتحبّه وتعشقه وهنالك تقتبس به من الله نوراً ترى به الخير خيراً والشر شرّاً.

فالخليفة والحالة هذه هو من الخلْق بمنزلة الأب العطوف على بنيه أو الأخ الراشد من إخوته وذويه، أشفقهم وأعطفهم عليهم وأرأفهم وأرحمهم بهم وأنفعهم لهم وهو بهذا أحب الخلْق إلى الله وأحظاهم عنده وأرفعهم شأناً إليه وأقربهم زلفى لديه.

ذلك هو مقام الخلافة الذي أهَّل الله تعالى له الإنسان وطمعت به الملائكة الكرام.

وكان خلْق الجن قد سبق خلْق الإنسان وإلى ذلك تشير الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} (١)

وحيث أن إبليس وذريته أفسدوا في الأرض بإعراضهم عن الله، ولذلك خاطب الملائكة ربَّهم بنفوسهم قائلين:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ):

أي أيصدر من هذا المخلوق ما صدر من الجن ويفعل ما فعله إبليس وذريته من قبل؟.

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ):

---

١ – سورة الحجر: الآية (٢٦-٢٧).

أي نجعل نفوس عبادك تسبح في فضلك بما نلقيه فيها من التعريف بإحسانك وما تُحمد عليه من عظيم عنايتك. فالمَلَك يُلقي الإلهام بنفسك:

يا عبد الله ارجع إلى الله، فكِّر ابحث عن سعادتك، يا نفس اسمعي كلام الله، انظري في الكون استدلي على الله.

(وَنُقَدِّسُ لَكَ):

أي: وبهذا نجعل نفوسهم طاهرة بإقبالها عليك، أي: نطهِّر نفوسهم لك، نسبِّحهم بما تُحمد عليه ونطهِّر قلوبهم لتكون صالحة للإقبال عليك.

فإن جعلتنا خلفاء ظهر منا الخير لعبادك وكنا وسطاء في إيصال نفوسهم إليك والدخول بها عليك.

وهنالك خاطبهم ربُّهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).

أي: إني أعلم من قابلية هذا الإنسان وأهليته ما لا تعلمون. آدم أعلى منكم وأرقى منكم وكذلك المؤمن الكامل أرقى من الملائكة الكرام. فالإنسان لديه أهلية لأن يكون أعلى من كل شيء، لكن الكافر أحطُّ من كل شيء، هذا والحيوان جاء وأدَّى الوظيفة فهو يُجازى في الدنيا على شذوذه عنها، وغداً لا نار له، جزاؤه هنا فقط، لكن الكافر غداً للنار: فالكلب خير من كثير من الخلْق ممَّن كفروا.

وخلق الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام وأخرجه إلى هذا الوجود، وقد عظَّم ﷺ فضل خالقه عليه وقدَّر إحسانه إليه وبهذا التقدير والتعظيم اتَّجهت نفسه إلى الله تعالى مقبلة عليه. وبما أن النفس البشرية مثلها كمثل المرآة الصافية حيثما وجَّهتها انطبعت فيها آثار ما اتَّجهت إليه، لذلك انطبعت في نفس سيدنا آدم عليه السلام

انطباعات من الأسماء الإلّهية وبهذا صار له علم بها كلها وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا}: الرحيم، العليم، القدير، الحليم.. أسماء الله الحسنى:

تلك هي الأسماء التي علَّمها الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام إنما هي أسماء الحضرة الإلّهية التي تجعل ممَّن سيكون خليفة الله في الأرض حقيقاً بذلك المقام جديراً بهذا المنصب، فإنَّ من صار له علم باسم الله تعالى الرحمن بما انطبع في نفسه من الرحمة الإلّهية يضحي جديراً بأن يكون خليفة الله في خلْقه، قال تعالى مشيراً إلى هذه الناحية مخاطباً رسوله سيدنا محمداً ﷺ :

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (١)

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (٢)

فبما انطبع في نفس رسول الله ﷺ من الرحمة التي اكتسبها بإقباله على خالقه صار ليّناً مع الخلْق، لطيفاً في معاملتهم، حريصاً على هدايتهم ودلالتهم، رؤوفاً رحيماً بهم وذلك ما يتطلَّبه مقام الخلافة من صفات تحقَّقت في نفس سيدنا محمد ﷺ وفي نفس سيدنا آدم عليه السلام من قبل، لا بل في نفس كل رسول ونبي ومرشد كلٌّ على حسب إقباله على خالقه وقربه منه، ومن لم يحصل له الإقبال

---

١ - سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

٢ - سورة التوبة: الآية (١٢٨).

على الله ولم تنطبع في نفسه تلك الأسماء الإلّهية فلم يكتسب من خالقه الرحمة والرأفة والعدل والحلم والحكمة وغير ذلك من الصفات الكاملة فليس أهلاً لأن يقوم في ذلك المقام.

وقد أشار تعالى إلى تحقُّق هذه الصفة في نفوس أصحاب رسوله الكرام في قوله تعالى:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...} (١)

ونعود إلى الكلام عن سيدنا آدم عليه السلام فنقول:

لقد صار لسيدنا آدم عليه السلام علم بأسماء الله تعالى الرحمن والعادل والرؤوف والحليم والغفور.. إلى غير ذلك من الأسماء الإلّهية بما انطبع في نفسه الصافية منها، فكان رحيماً وكان عادلاً وكان حليماً وكان وكان.. وبذلك استحق لأن يكون أهلاً لذلك المقام.

أما ما يذهب إليه أناس من أن الله تعالى علَّم سيدنا آدم عليه السلام القصعة والقصيعة وأسماء الحيوانات والنباتات وغير ذلك من الموجودات، فذلك بعيد كل البعد عن ذلك المعنى العالي التي تشير إليه الآية الكريمة، كما أنَّ مسرى الآيات ينفي ذلك نفياً قطعياً، فإن المقام الذي يقوم فيه سيكون خليفة الله في أرضه وهادياً ومرشداً لعباده لا يتطلَّب منه أن يعلِّمه الله اسم القصعة والقصيعة إنما يتطلَّب منه أن يكون مصطبغاً قلبه بالرأفة والرحمة وغير ذلك من الصفات الكاملة.

ثم إن الله تعالى أمر سيدنا آدم عليه السلام أن يعرض على الملائكة الأسماء الإلّهية التي اصطبغت نفسه بصبغتها وانطبعت بانطباعات منها.

---

١ - سورة الفتح: الآية (٢٩).

وعرض سيدنا آدم ﷺ على الملائكة تلك الأسماء وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ}.

فسألهم سيدنا آدم ﷺ عن معاني أسماء الله الحسنى: القدير، الحليم، العليم، الرحيم..

وقد طلب تعالى من الملائكة أن ينبؤوه بما تدلُّ عليه تلك الأسماء:

{فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ}: أي: أخبروني بمدلولات ومعاني الأسماء التي عرضها عليكم آدم، فما المعنى المنطوي مثلاً تحت اسم المهيمن والجبَّار والقهَّار.. إلى غير ذلك من الأسماء، اسماً بعد اسم.

{إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}: في أنكم أهل للخلافة.

فما كان منهم إلاَّ أن:

{قَالُوا سُبْحَانَكَ}: ما أعظم كمالك وما أعظمك!.

{لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}: أي: لا علم لنا أكثر ممَّا علَّمتنا، فقد أجبنا بحسب ما علمناه بإقبالنا عليك وبحسب صدقنا معك.

{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ}: بنا وبدرجة علمنا بأسمائك.

{الْحَكِيمُ}: عملك كله ضمن حكمة. فأنت الحكيم بفعلك واختيارك. فما قلنا ما قلناه اعتراضاً إنما طمعاً في ذلك المقام، طمعاً بغية التقرُّب إليك وأنت أدرى وأعلم بمن هو بهذا المقام أجدر وَأَلْيَق.

هنالك أمر الله تعالى سيدنا آدم ﷺ أن يُعرِّف الملائكة بتلك الأسماء الإلَهية التي عرضها عليهم.

{قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}:

تكلَّمْ عن أسمائي الحسنى التي شرحوها وتكلَّموا عنها: أي: عرِّفهم بالأسماء التي عرضتها عليهم.

{فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}:

فلمَّا عرَّفهم آدم عليه السلام بالأسماء الإلٓهية المعروضة عليهم مفصِّلاً مبيِّناً عِلْمَه بتلك الأسماء الإلٓهية وتفوُّقه على الملائكة في ذلك العلم والبيان فبيَّن ما ينطوي فيها من كمالات الله تعالى بحسب إقباله العظيم على ربِّه كلاماً سبق به الملائكة أجمعين فظهر تفوّقه عليهم، هنالك خاطبهم ربُّهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}: آدم أعلى منكم.

{وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ}: الآن من الإقرار بالحق لآدم.

{وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}: من طلبكم الخلافة لأنفسكم.

والغيب: كل ما غاب علمه عن المخلوق. فكل ما وقع وما سيقع، وكل ما أوجده الله تعالى وما سيوجده في السموات والأرض مما لا علم للمخلوق به ولا إطلاع له عليه إنما هو غيب. والله تعالى يعلم غيب السموات والأرض لأنه تعالى هو الخالق الموجد وكل ما فيهما قائم به تعالى مستمد الحياة منه، متوقِّف بقاؤه ووجوده وحدوثه على دوام إمداد الله وتجلِّيه.

وهو تعالى عليم بكل نفس وبما انطوت عليه، فقد علم تعالى ما انطوت عليه نفوس الملائكة من العلم والوظيفة التي تتناسب مع علمهم، كما علم تعالى أهلية هذا الإنسان العظيم ﷺ وقابلياته.

أما المخلوق فلا علم له إلاَّ بما يُطلعه الله تعالى عليه، فقد يغيب عنه مثلاً ما في نفسه وقد تخفى عليه درجة علمه ومعرفته كما وقع للملائكة لمَّا طلبوا الخلافة، إذ ظنُّوا أن لديهم الأهلية لذلك المقام وغاب عنهم ما عليه سيدنا آدم

ﷺ من سبق وتفوُّق في ذلك المضمار، وهنالك أراهم الله تعالى الحقيقة وبيَّن لهم درجة علمهم وأوقفهم على جلية الأمر.

ويتبيَّن لنا من كلمة **(وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** الواردة في قوله تعالى:

(وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) أن قول الملائكة عندما قالوا:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) إنما كان قولاً نفسياً. فقد قالوا ذلك في سرِّهم وكتموه في أنفسهم فاطَّلع الله تعالى عليه وخاطبهم به وأراهم من علم سيدنا آدم ﷺ ما أراهم حتى جعل نفوسهم تقرُّ بحكمته تعالى وتخضع لاختياره وعلمه، مستسلمة له مذعنة إليه.

وكما أن كلمة **(وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ)** تبيِّن لنا علمه تعالى بما أبداه الملائكة الآن من الإقرار بالحق لآدم ﷺ، وأظهروه من التسليم لله والإقرار بحكمته في اختياره، فكذلك كلمة **(وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** من طلبكم الخلافة لأنفسكم، وتبيِّن لنا علمه تعالى بما كتموه وأسرُّوه في أنفسهم.

وقد ذكر لنا تعالى هاتين الكلمتين ليبيِّن لنا أن علمه بالسر الذي يخفيه المخلوق في نفسه لا يختلف عند الله تعالى عن الجهر الذي يبديه بلسانه، فالجهر والسر عند الله تعالى سيَّان. قال تعالى:

{وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} (١)

{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (٢)

---

١ – سورة طه: الآية (٧).

٢ – سورة الملك: الآية (١٣–١٤).

والآن وبعد أن بيَّنا المراد من كلمة **(الأَسْمَاء)** الواردة في الآيات السابقة لابدَّ لنا من الإجابة على سؤال نستطيع أن نلخِّصه بما يلي:

فإذا أوَّلنا قوله تعالى: **(قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْـهُمْ بِأَسْمَائِـهِمْ)**:

أي: أنبئهم بأسمائي التي عرضتها عليهم، مع أن الكلمة قد وردت في الآية الكريمة **(بِأَسْمَائِـهِمْ)** ولم ترد بأسمائي فنقول:

رأينا أن الهدف التي ترمي إليه القصة والغاية التي وردت من أجلها إنما هي بيان سمو سيدنا آدم عليه السلام وتفوّقه على الملائكة الكرام في العلم بأسماء الله، ذلك التفوُّق الذي جعله خليقاً بمقام الخلافة. وقد كنا بيَّنا أن ذلك الهدف يقضي بأن يكون المراد من كلمة **(الأَسْمَاء)** الواردة في هذه القصة إنما هو الأسماء الإلٓهية، وإن مسرى القصة ينفي ما سوى ذلك من المعاني التي تتناولها كلمة **(الأَسْمَاء)** نفياً قطعياً، ولهذا فتكرار كلمة **(الأَسْمَاء)** في هذه القصة إنما يعني الأسماء الإلٓهية دون سواها، إذ هي موضوع الخطاب ومحور القصة.

وكلمة **(بِأَسْمَائِـهِمْ)** لا تعني والحالة هذه أسماء الملائكة، إنما تعني الأسماء الإلٓهية المعروضة عليهم لأن معرفة سيدنا آدم عليه السلام بأسماء الملائكة لا يزيده عند الله رفعة ولا يجعله أسمى من الملائكة منزلة.

* * *

ولعلَّك تقول:

لماذا لا نؤوِّل كلمة **(فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِـهِمْ)** أي: بما عرفوه هم من أسماء ربهم فنقول:

لو أوَّلنا معنى الآية بهذا التأويل لما كان لسيدنا آدم عليه السلام تلك المكانة التي سما بها متفوِّقاً على الملائكة جميعاً لأنه إنما أنبأهم بشيء عرفوه من قبل وأدركوه، وبهذا لا يكون خليقاً بأن يستحق الخلافة ويكون أسمى منهم مقاماً لأنه

لم يزد على شرح الملائكة للأسماء المعروضة عليهم شيء، وما هو بذلك البيان إلاَّ كواحد منهم، ولكنه إنما أنبأهم بتلك الأسماء الإلٓهية المعروضة عليهم مبيِّناً فيها بياناً عالياً تفوَّق به عليهم جميعاً.

بقي علينا أن نبيِّن الفرق في المعنى بين كلمة **(بِأَسْمَائِهِمْ)** حسبما وردت في الآيات الكريمة، وبين كلمة "بأسمائي" التي جعلناها موضوعاً لسؤالنا الذي نحن بصدده فنقول:

لو أن الخطاب في الآية الكريمة قد جاء "أنبئهم بأسمائي" بدلاً من **(أنبئهم بأسمائهم)** لاختلف المعنى اختلافاً كلِّياً، لأن كلمة "أنبئهم بأسمائي" معناها أنبئهم بكل اسم من أسمائي على وجه الإحاطة.

وبما أنه ليس يستطيع مخلوق أن يحيط باسم الرحمن فيعلم مبلغ رحمة الله تعالى فيُنبِّئ الخلْق بها، وليس يستطيع أن يحيط أحد باسم العليم فيعلم علم الله تعالى وينبئ الخلْق به وكذا سائر الأسماء الإلٓهية، ولذلك لم ترد الآية "أنبئهم بأسمائي" إنما وردت **(أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ)** أي: بأسمائهم التي عرضتها عليهم والتي شرحوها هم مبيِّناً مبلغ علمك منها، وما ينطوي فيها من الكمال بحسب إقبالك العظيم.

والحقيقة أنه لا يعلم أسماء الله إلاَّ الله تعالى ولا يحيط أحد بها علماً، إذ لا حدَّ لها ولا انتهاء، وكل ما في الأمر أن الأسماء الإلٓهية إنما يشاهد الإنسان منها بقدر قربه من الله تعالى ويتوسَّع في تعريف غيره برحمة الله ورأفته وعلمه وسائر أسمائه وذلك إلى حدٍّ ما والله واسع عليم.

فكلَّما وصلت إلى درجة من العلم بأسماء الله فهي أوسع وأوسع، وكلما بلغت مرتبة في ذلك المضمار فربّك سبحانه أعلى وأرفع وفوق كل ذي علمٍ عليم.

أما وقد ظهر للملائكة الكرام سبْق سيدنا آدم عليه السلام في العلم بأسماء الله سبْقاً فاقهم فيه جميعاً، هنالك أمرهم الله تعالى أن يُقبلوا عليه بصحبة آدم عليه السلام فيتَّخذوه سراجاً منيراً لنفوسهم، وإماماً لهم في إقبالهم عليه تعالى لذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام، قال تعالى:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ}:

اطلبوا منه "بواسطته" العلم والمعرفة، اربطوا نفوسكم معه لتدخلوا عليَّ فتشاهدوا مشاهدات أعلى وأجلَّ من مشاهداتكم.

{فَسَجَدُوا}: كلهم. **{إِلاَّ إِبْلِيسَ}**: لجهله، إذ لم يكن يعرف شيئاً عن الله.

أبلس عليه الأمر فما عرف عن الله إلاَّ أنه خالق **{أَبَى}** عن السجود، قال أنا أكبر من آدم وأعظم منه **{وَاسْتَكْبَرَ}**: عن آدم.

{وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}: ما فكَّر بآيات الله، لو فكَّر وعظَّم لخضع لآدم ونال من الكمالات والسعادة ما نال.

ولعلَّك تقول: ما هو هذا السجود الذي أمر الله تعالى به ملائكته؟. وهل يكون السجود لأحد غير الله تعالى فنقول:

السجود: هو الطلب المقرون بالخضوع النفسي والتقدير. فالسجود لله تعالى هو طلب المعونة منه والإمداد، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كما بقوله:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ..} (١)

---

١ - سورة الحج: الآية (١٨).

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [1]

{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [2]

فما سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، وما سجود من في السموات ومن في الأرض لله إلا خضوعهم له تعالى مفتقرين إليه طالبين منه دوام الإمداد بالحياة، إذ لو أن هذا الإمداد الإلّهي انقطع عنهم طرفة عين لزالوا وانعدموا ولم يبقَ لهم وجود ولا أثر، فكل ما في الكون ساجد لله مستديم الاستمداد منه والإقبال بنفسه عليه.

وهنالك سجود آخر وهو السجود لمن تُعظِّم شأنهم وعلمهم لتستزيد منه، وبهذا التعظيم وطلب المزيد منه ترتبط نفسك بنفسهم، فإن كانوا مؤمنين بالله دخلت من بابهم عليه ﷺ وحصل لك الشهود لكمال الله.

فما سجود أخوة سيدنا يوسف وأمه وأبيه له إلاَّ تعظيمهم علمه وتقديره من بعد أن رأوا من سبقه إيَّاهم في العلم والإيمان، وبهذا التعظيم والتقدير ارتبطت أنفسهم به مقبلة معه على الله وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَيَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً...} [3]

ويؤيد هذا المعنى أيضاً ما ورد عن سجود السحرة لسيدنا موسى عليه السلام بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

١ – سورة الرعد: الآية (١٥).

٢ – سورة الرحمن: الآية (٦).

٣ – سورة يوسف: الآية (١٠٠).

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [١]

فهؤلاء السحرة لما رأوا من سيدنا موسى ما أبطل سحرهم على الرغم من كثرة عددهم وقوَّة كيدهم عظَّموا علم سيدنا موسى وقدَّروه وأقبلت نفوسهم عليه خاضعة لعلمه، وهنالك وبهذا الإقبال النفسي عليه تبدَّت لهم من وراء تلك النفس الصافية الطاهرة الحقائق بادية ظاهرة، فما أن أُلقوا ساجدين حتى:

{قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [٢]

ولما هدَّدهم فرعون بالتعذيب والتنكيل والتصليب خاطبوه بما شهدت نفوسهم من الحق غير عابئين:

{قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[٣]

فيا ترى من أين جاء السحرة بهذا البيان الذي بيَّنوه وقد جيء بهم من المدائن المختلفة محضَرين وما سمعوا من سيدنا موسى عليه السلام بياناً ولا دلالة؟.

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١١٧-١٢٠).

٢ – سورة الأعراف: الآية (١٢١-١٢٢).

٣ – سورة طه: الآية (٧٢-٧٦).

إنه التعظيم والتقدير لعلمه ﷺ جعل نفوسهم ترتبط بنفسه مقبلة على الله وهناك شاهدوا ما شاهدوا من حقائق فقالوا ما قالوا من كلمات اليقين والإيمان شأنهم في ذلك شأن ملكة سبأ لما عظَّمت مُلْك سيدنا سليمان ﷺ ، إذ:

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ...}.

وهنالك استصغرت ملكها ووقفت موقف المقدِّر من ملك سيدنا سليمان ﷺ وما هو عليه من شأن عظيم، وما أن نظرت فيه هذه النظرة حتى دخلت نفسها على الله من باب تلك النفس الزكية الطاهرة فكان لسانها مترجماً عمَّا في نفسها، إذ:

{... قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[١]

إن هذه النقطة الهامة التي نحن بصددها وأعني بها تقدير النفس وإعجابها بنفس متفوِّقة عليها في ناحية من النواحي لها أثرها في سلوك الإنسان وعليها يتوقَّف سيره واتجاهه في هذه الحياة، لأن النفس المقدِّرة المعجبة إنما ترتبط دوماً برباط وثيق وتصاحب صحبة معنوية تلك النفس التي قدَّرتها وأُعجبت بها وذلك هو قانون من قوانين النفس وسنَّة من سننها التي رسمها لها خالقها وموجدها ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسنَّة الله تحويلاً.

على أن هذا التقدير والإعجاب بالآخرين يختلف من شخص إلى شخص ومن نفس إلى نفس. فكل امرئ إنما يقدِّر غيره على حسب ما تميل إليه نفسه وما يهوى. فبعض الأنفس تقدِّر غيرها لعلمه ومعرفته أو ملكه وسلطانه، أو كماله وخُلُقِهِ أو أي شيء من الأشياء الأخرى. فلكل امرئ ميول ونواح يهتم بها

---

١ – سورة النمل: الآية (٤٤).

دون غيرها ولذلك تراه لا يقدِّر إلاَّ من سبقه في تلك الميول وتفوَّق عليه في تلك النواحي.

فهؤلاء إخوة سيدنا يوسف ﷺ وكذلك أمه وأبوه إنما قدَّروا فيه ﷺ كماله، لأن نفوسهم كانت تهوى الفضيلة والكمال أكثر من كل شيء في هذه الحياة.

وأما سحرة فرعون الذين كانوا علماء بالسحر فقد قدَّروا علم سيدنا موسى عليه السلام لما رأوا منه ما أبطل سحرهم جميعاً، فما أن ألقى عصاه ولقفت ما يأفكون حتى أُلقوا ساجدين.

وما سجدت بلقيس ملكة سبأ مقدِّرة سيدنا سليمان ﷺ إلاَّ لكونها ذات ملك عظيم، فما أن رأت ملكه وتفوُّقه عليها في هذه الناحية حتى عظَّمته وقدَّرته وارتبطت نفسها به خاضعة لله تعالى.

أما آثار هذا التقدير والسجود النفسي فهي كما رأينا انعكاس ما في هذه الأنفس السابقة وانطباعه في الأنفس المقدِّرة. فلقد انعكس ما في نفس سيدنا يوسف ﷺ من السبق في العلم بالله ومحبته في نفوس أبيه وأمه وإخوته فكان لهم إماماً في هذا المضمار.

وانعكس في نفوس السحرة ما في نفس سيدنا موسى عليه السلام من إيمان ومعرفة فقالوا ما قالوا مما كنَّا أشرنا إليه وبيَّناه، وكذلك الأمر بالنسبة لملكة سبأ مع سيدنا سليمان ﷺ .

وهكذا إذا أنت قدَّرت أي شخص من الأشخاص فلا بد لك من أن تدخل مدخله وترد مورده وتنعكس أحواله في نفسك. فإن كان من أهل الفسق والإلحاد تبدَّى ما فيه ظاهراً في نفسك بيِّناً، وإن كان من أهل الكمال والإيمان صرت تشعر بهذا الكمال ودخلت بمعيته في مداخل الإيمان ولهذا كان ﷺ يقول داعياً:

«اللهمَّ لا تجعل لي خيراً على يد فاسق أو منافق».

لقد كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء لأنه عرف قوانين النفس وسننها فكان يخشى من وصول هذا الخير إليه على يد بعيد عن الله خوفاً من أن يميل قلبه إليه فتنعكس أحواله في نفسه.

فانظر إلى رسول الله ﷺ وهو سيد الخلْق يخشى هذه الخشية ويدعو بهذا الدعاء. لقد كان ﷺ إنما يخشى ذلك حرصاً على صفاء نفسه، أما نحن فما حالنا إذا ملنا بنفوسنا مستعظمين أهل الكفر والفسق والإلحاد؟. وماذا يكون عليه حالنا إذا ملنا بقلوبنا إلى رسول الله ﷺ فقدَّرناه وعظمناه؟.

وممَّا يؤيد لنا هذا المعنى أيضاً ما ورد عنه ﷺ حيث يقول:

«الرجلُ على دينِ خليله، فلْينظر أحدكم مَنْ يخالل» [١]

على أن تقدير رسول الله ﷺ وتقدير المرشدين من أهل الكمال لا يمكن ولا يكون لك إلاَّ إذا كنت من أهل الكمال، إذ أنه لا يعرف الفضل إلا ذووه، فإذا أردت أن تحصل لك صحبة رسول الله ﷺ النفسية وأن تكون برفقته المعنوية، فعليك أن تفكِّر في هذا الكون حتى تصل إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله حق الإيمان. فإذا أنت آمنت بها حجزتك عن معاصي الله واستقمت على أمر الله وهناك تتولَّد الثقة بنفسك من رضاء الله عنك فتُقبل بنفسك عليه تعالى، وبهذا الإقبال تشتق نفسك الكمال من الله بالصلاة فتقدِّر وتعظِّم من فاقك في الكمال وتدخل بمعيته على سيد الكاملين ﷺ ، وبتقديرك لرسول الله وارتباطك به ﷺ تدخل نفسك بمعيته على الله وترتقي في منازل محبة الله.

{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي} [١]

---

١ –أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

وهكذا فما سجد الملائكة الكرام لمَّا أمرهم الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام إلاَّ لما فيهم من كمال. فلما رأوا من علمه وكماله ما سبقهم به متفوِّقاً سجدوا له جميعاً.

أما إبليس فما عرف شيئاً من الكمال الإلَهي ولم يحصل على شيء من العلم بأسماء الله تعالى.

إبليس الذي لم يُقبل على الله في يوم من الأيام ولم تصطبغ نفسه بشيء من صبغة الكمال، هذا الجاهل الأحمق الذي ما قدَّر خالقه لمَّا أمره الله تعالى بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام **(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)**.

وقد أشار القرآن الكريم في مواضع أخرى إلى إباء إبليس واستكباره كما في قوله تعالى:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} [٢]

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...} [٣]

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمة أن إباء إبليس واستكباره عن السجود إنما هو شيء ناشئ من كفره بخالقه، ولذلك عمي عن الحق وأبلس عليه الأمر وخفي عنه ما عليه سيدنا آدم عليه السلام من الكمال.

كما ترى أن إبليس لم يكن رئيس الملائكة كما يزعم فريق من الناس، بل كان من الجن، ولم يكن له عرف بعظمة خالقه ولذلك فسق عن أمر ربه.

---

١ – سورة الفجر: الآية (٢٧–٣٠).

٢ – سورة الإسراء: الآية (٦١).

٣ – سورة الكهف: الآية (٥٠).

ثم إن الكفر وخلوّ النفس من الكمال يجعل نظر النفس بمعزل عن رؤية الحقائق قاصراً على رؤية الصور متعلّقاً بالأوهام، فقد احتج إبليس بأن النار خير من الطين ولم يدرِ أن العلم بالله هو الذي يرفع شأن صاحبه ويجعله يسمو على المخلوقات. وقد أشار تعالى إلى احتجاب الكافرين عن رؤية الحقائق ومعرفة رسل الله بما بيَّنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{... وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} (١)

ومن ذلك أيضاً ما خاطبت به أهل مدين رسولها سيدنا شعيباً ﷺ :

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ} (٢)

وكذلك قوم عاد وثمود، وذلك هو أيضاً قول كل كافر لا يؤمن بالله وحال كل بعيد عن الله.

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ معرفة رسل الله عليهم الصلاة والسلام وتقديرهم، وكذلك الصادقين من أهل الإرشاد لا تكون إلاَّ بعد الوصول إلى الإيمان بالله، ذلك الإيمان المقرون بالعقل. فإذا عظَّم الإنسان الله تعالى ورأى منه الفضل والإحسان فهنالك يقبل عليه ويشتق منه الكمال، وعندئذ يعظِّم أهل الكمال، فهو سبحانه وتعالى الأول والآخر، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ومن يؤمن بالله فقد رشد وهدي إلى صراط مستقيم.

ثم إن الله تعالى أمر سيدنا آدم عليه السلام أن يسكن وزوجه الجنَّة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١٩٨).

٢ – سورة الشعراء: الآية (١٨٥–١٨٦).

{وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}:

كانت نفس سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام لابسةً جسديهما الشريفين فكان نعيمهما من الدنيا ذوقياً وما كان الثمر ليدخل جوفيهما، الدخول للجوف يحتاج لهضم وعمل.

وليس المراد من الجنَّة ما يتبادر لبعض الأذهان من أنَّ سيدنا آدم ﵇ كان في بادئ الأمر في مكان مرتفع في السموات، ثم أهبطه الله تعالى إلى الأرض التي نحن عليها.

فإن مسرى الآيات ينفي ذلك وليس هذا الظن بمطابق للحقيقة في شيء، فالله تعالى ذكر لنا في أول هذه القصة أنه أخبر الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة، وقال تعالى:

{... إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ} [١]

والطين في الأرض لا في السموات. كما أن الآيات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم مبيّناً فيها أصل الإنسان وبدء خلقه تنفي ذلك أيضاً وتبيِّن أن الإنسان أول ما وُجِدَ على الأرض التي نحن عليها الآن، قال تعالى:

{إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٢]

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً} [٣]

{... هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...} [٤]

---

١ – سورة ص: الآية (٧١).

٢ – سورة آل عمران: الآية (٥٩).

٣ – سورة نوح: الآية (١٧–١٨).

٤ – سورة هود: الآية (٦١).

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} (١)

فالله تعالى خلق سيدنا آدم وزوجه من الأرض وأسكنهما فيها وكان لهما في الأرض جنَّة. والجنَّة كما كنا بيَّنا من قبل ذلك النعيم النفسي المستور الذي يجده الإنسان في قرارة نفسه ولا يطَّلع عليه أحد من الناس.

فكان لسيدنا آدم عليه السلام وزوجه إقبال على الله ووجهة إليه وشهود لذلك الكمال الإلّهي الذي لا يعادله نعيم ولا سرور وذلك ما نستطيع أن نفهمه من كلمة "جنَّة"، لأن النفس البشرية المؤمنة لا تجد لها سروراً ولا نعيماً ولا تطمئن بشيء كسرورها ونعيمها واطمئنانها بالنظر إلى جمال خالقها وشهود كماله الأسنى "الأعلى".

وقد استغرق سيدنا آدم عليه السلام وزوجه في ذلك النعيم النفسي وسكن فيه وهو يومئذ في حال مخالف للحال المادي الذي نحن الآن نعيش فيه.

وإذا كان للإنسان نفس وروح وجسد وكانت نفس الإنسان الآن في عالم الدنيا محاطة بجسدها محبوسة فيه فهي تُبصر عن طريق العينين وتسمع عن طريق الأذنين وتذوق بواسطة اللسان. وإذا كان حالنا الجسدي الآن غالباً على الحال النفسي فلا يعيش هذا الإنسان ما لم ينل الجسد حظه من مطعم ومشرب وملبس، إذ لا بد من أن يبذل الجسد مجهوداً للحصول على ما يحتاجه، ثم هو إلى جانب ذلك بحاجة إلى الراحة والنوم.

فقد كان سيدنا آدم عليه السلام وكذلك زوجه لما خلقه الله تعالى وأوجده في حال مخالف لما نحن عليه الآن، لأن نفسه كانت محيطة بجسدها كما يحيط لهب الشمعة بالفتيل من كل جانب ولا حاجة له والحالة هذه لأذن تسمع أو عين

---

١ - سورة طه: الآية (٥٥).

تُبصر أو لسان يذوق به، بل كانت نفسه كلها لساناً وسمعاً وبصراً وما كان جسده يومئذ بحاجة إلى شيء من الأشياء، فلا جوع ولا ظمأ ولا حر ولا برد ولا تعب ولا نصب. فالنفس لابسة جسدها محيطة به وحالها غالب عليه.. إقبال دائم على الله مستمر لا ينقطع، ولعمري ذلك حال أهل الجنة في الجنَّة غداً، قال تعالى مشيراً إلى ذلك الحال الذي كان عليه سيدنا آدم عليه السلام في بدء الحياة:

{فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى} [١]

أما ذلك الأكل الذي يأكله وهو في هذا الحال النفسي وإن شئت فقل وهو في الجنَّة فقد كان أكلاً ذوقياً وهو أيضاً أكل الإنسان في الدار الآخرة في الجنَّة. فالنفس المحيطة بالجسد تمتد أشعتها يومئذ إلى الفواكه والأثمار فتتذوَّقها ذوقاً مستمراً متواصلاً كما تمتد أشعة الشمس إلى أعماق المياه فتخالطها وتسري بها دون أن يدنو جرم الشمس منها.

وهذا الذوق المتواصل وهذا الأكل قد يدوم أشهراً وحيناً طويلاً ولا يشعر معه الإنسان بثقل أو شبع، وكلما زادت النفس من خالقها قرباً زادت ذوقاً بما تأكله من أشياء وتضاعفت لذتها، إذ على حسب صحة النفس وسرورها يكون ذوقها وتمتعها.

ذلك هو حال أهل الجنَّة وهو حال سيدنا آدم عليه السلام وزوجه لمَّا أسكنهما الله تعالى الأرض. لقد كانا في جنَّة النعيم بشهود الجمال الإلَهي العظيم وإلى جانب ذلك كانت نفساهما تأكل من الأرض رغداً، أي تتذوَّق تذوُّقاً مستمراً شاملاً فلا تجد ثقلاً ولا ضيقاً.

---

١ – سورة طه: الآية (١١٧-١١٩).

ولقد نهى الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام وزوجه عن أن يقربا الشجرة، أي: أن لا يضعا مادة الثمر في فمهما لأن دخول المادة إلى الفم ومن بعد ذلك إلى الجوف يحتاج إلى مضغ وهضم ومن ثم يتحوَّل الإنسان من حال إلى حال فيصبح الحكم للجسد وتنقلب النفس إلى الداخل فتصبح محاطة بعد أن كانت محيطة ويتطلَّب ذلك من الإنسان جهداً وعملاً وسعياً وراء تأمين حاجات الجسد وضروراته المادية، وذلك ما عنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

(وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ):

لنفسكما فتتعبان بالعمل.

أي: لا تدنيا ثمرها من فيكما وجسديكما، بل تذوَّقا وكُلا منها أكلاً ذوقياً. أما إذا وضعتما الثمر في فمكما فتكونا من الظالمين لنفسيكما، إذ عرَّضتماهما للتعب والنصب والسعي وراء تأمين حاجات الجسد.

نعم، كانت نفسا سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام لابسةً جسديهما الشريفين فكان نعيمهما من الدنيا ذوقيّاً وما كان الثمر ليدخل جوفيهما، إذ الدخول للجوف يتطلَّب الهضم والتعب.

وقد حذَّرهما الله تعالى من الشيطان وعداوته وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً وهي قوله تعالى:

{فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[١]

وسكن سيدنا آدم عليه السلام كما بيَّنا من قبل وسكنت زوجه ذلك النعيم، نعيم الإقبال على الله والتمتُّع بشهود ذلك الجمال الإلَهي العظيم لا يبغيان عنه حولا. وهل يعدل النظر إلى وجه الله نعيم؟. أم هل يرضى عنه المؤمن ببديل؟.

---

١ – سورة طه: الآية (١١٧).

وهنا ومن هذه النقطة أراد الشيطان أن يتَّخذ لنفسه مدخلاً يدخل منه ليحوِّل ذلك النبي الكريم عن خالقه ويزلّه عن ذلك الحال الذي هو فيه:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى} [1]

أي: هل أدلُّك على الشجرة التي إن أكلت منها كانت سبباً في خلودك في هذا النعيم وملكت هذا الحال، فلم تنقطع نفسك عن ذلك الإقبال على الله والوجهة الدائمة إليه.

فأقسم الشيطان بالله العظيم لسيدنا آدم وزوجه أنه لهما لمن الناصحين، ولا يقدِّر العظيم إلا العظيم لذا غلب على سيدنا آدم ﷺ حبّه لله فأنساه ذلك الحب وصية الله، قال تعالى:

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} [2]

أي نسي وصيتنا نسياناً ولم نجد له عزماً وتصميماً على مخالفتنا، أي على المعصية.

وكذلك الحال بالنسبة لزوجه فأكلا من الشجرة، أي: طعما ثمرها ووضعاه في فيهما حبّاً بالله وبذلك انقلبت نفساهما من حال إلى حال.

لقد لحقت النفس المادة الداخلة وأصبحت محاطة بالجسد بعد أن كانت محيطة به، فإذا هما في هذا الحال الذي نحن فيه الآن يؤلمهما الجوع ويشتد عليهما الظمأ.

---

١ - سورة طه: الآية (١٢٠).

٢ - سورة طه: الآية (١١٥).

{.. فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ، قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (١)

وقد أشارت الآية الكريمة التابعة للآيات التي نحن بصددها في سورة البقرة إلى هذا الحال الجسدي الذي أصبح فيه سيدنا آدم وزوجه، ذلك لأن الشيطان ببعده عن الله صار حسوداً منحطاً، دفعه الحسد فحوَّلهما:

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}.

قال يا آدم: ربّك ما نهاك عن الشجرة فإن أكلت خلدت في النعيم، وحيث إنه لم يكن لسيدنا آدم عليه السلام فكر فنسي أمر الله وأكل فدخلت نفسه للداخل وانسدَّ عليه الإقبال على الله.

والمراد بكلمة **(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا)** أي جعلهما ينزلان وينتقلان من تلك الحالة النفسية الذوقية إلى الحالة الجسدية وبذلك أخرجهما مما كانا فيه من أكل ذوقي ونعيم معنوي فأصبحت لهما حاجات جسدية ومطالب مادية ما كانا يهتمان بها من قبل.

{وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}.

وأما كلمة **(وَقُلْنَا اهْبِطُوا)**: من الحال النفسي، أي: انزلوا إلى هذه الحياة الدنيا حياة السعي وراء الرزق والعمل لتأمين ما تقتضيه هذه الحياة من حاجات ومطالب، ذلك هو الحال الجديد الذي صار إليه سيدنا آدم عليه السلام وزوجه وصار

---

١ – سورة الأعراف: الآية (٢٢–٢٣).

إليه بنوه من بعده وهو كما نعلم مختلف كل الاختلاف عن الحال الأول الذي كانا فيه.

أما كلمة (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**): الكافر يُعادي المؤمن، فتفيد أن الحكمة من هذه القصة كلها إنما هي إظهار عداوة إبليس وذريته المعرضين عن الله لهذا النوع البشري. فالذين يتبعون كلام الله من بني الإنسان سيرون من بعد ما فعله إبليس وما قام به من تغرير سيدنا آدم عليه السلام وحلف له كذباً بالله لِيحوِّله عن الله فلا يغترُّون به ولا يستطيع أن يفتنهم. والكافرون من أولاد إبليس وهم بعض الجن سيكونون معه ضداً وأعداء لبني آدم ليردُّوهم عن الحق وليلبسوا عليهم دينهم.

وهكذا فكلمة (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) بعضكم تعني الشيطان عدواً للإنسان وإنما تريد أن تعرِّفنا أن الله تعالى إنما جعل خروج النوع البشري لهذه الحياة الدنيا بهذا القالب وهذه الصورة ليضع بين يدي هذا الإنسان المهيَّأ للكمال مثلاً وعملاً . عداوة الشيطان وكيده . فيكون هذا الإنسان على علم به حَذِراً من إغرائه، وذلك كله مما يبيِّن لنا رحمة الله تعالى ورأفته و الله رؤوف رحيم.

وتفيد كلمة (**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**): مدة حياتك، إنَّ لهذا الإنسان على وجه الأرض عمراً معيَّناً وأجلاً محدوداً، فإذا انقضى به العمر ووافاه الأجل فلا بد له من فراق هذه الحياة الدنيا بخلاف حال الإنسان في الآخرة فلا حد له ولا انقضاء لحياته والسبب في ذلك أن الإنسان في الدنيا تتوقَّف حياته على سلامة الجسد وبقائه قادراً على العمل، فإذا تعطَّلت أجهزته الرئيسية وتوقف عن العمل خرجت النفس لاحقة بالروح وفارقت معها هذا الجسد، وإن ظلَّ لها ارتباط به وإشراف عليه.

أما في الدار الآخرة فالحكم للنفس فهي المحيطة بالجسد وليس له يومئذ فعَّالية ولا عمل وليس يصيبه هرم ولا ضعف ولا وهن وإن هو إلا مُرْتكَز ترتكز

عليه النفس وهي يومئذ صاحبة الحياة. وبما أنها جوهر نوراني لا يطرأ عليها ما يطرأ على المادة المتركب منها الجسد من ضعف وانحلال لذلك فالحياة في الدار الآخرة حياة أبدية ليس لها حد ولا انتهاء.

وتفيد أيضاً كلمة **(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)**: أن وجود النوع البشري على وجه الأرض له أجل محدود، فإذا ما انتهى هذا الأجل انتهت معه هذه الحياة، ثم يقْدُم الناس إلى الآخرة فيرى كل امرئ نتائج أعماله وسعيه.

ولعلَّك تقول: كيف نسي سيدنا آدم عليه السلام وصية الله تعالى واستطاع الشيطان أن يغرّه؟. وهل يستطيع الشيطان أن يدخل على الأنبياء؟. وهل يعصون الله تعالى؟. وكيف نستطيع أن نوفِّق ما وقع من سيدنا آدم عليه السلام مع ما قرره القرآن الكريم من عصمة الأنبياء وعدم إمكان وقوعهم في مخالفة من المخالفات؟.

أقول: هذه نقاط هامة هي مزلَّة قدمٍ بالنسبة للكثير من الناس، فإذا لم يفهمها الإنسان حق الفهم ولم يرَ كمال رسل الله وسموَّهم النفسي وعصمتهم من الوقوع في المخالفات، فلا بد أن تزلّ به القدم فيهوي في جحيم البعد عن الله وليس يخلصه من هذا البعد أحد ما دامت نفسه محجوبة عن رؤية ذلك الكمال الذي اصطبغت به أنفس رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين.

فالنفس البشرية كما نعلم مفطورة على حب الكمال، وهي لا تستطيع أن تقدِّر أحداً وبالتالي لا يمكن لها أن ترتبط برباط المحبة بأحد ما دامت ترى فيه نقصاً وانحرافاً أو ميلاً عن الحق.

ذلك هو قانون من قوانين النفس التي لا تتبدل. وإذا كان الدخول في مداخل التقوى والإيمان النفسي يتوقَّف على محبّة رسل الله صلوات الله عليهم وصحبتهم المعنوية والدخول بهذه الصحبة والمعيَّة على الله، فكيف يمكن للنفس التي ترى في رسل الله نقيصة من النقائص أن تحبّهم وترافقهم؟. أم كيف تستطيع أن تدخل

بمعيتهم على الله؟. لا شك أنها تظل بعيدة عن الله محجوبة عنه محرومة من ذلك كل الحرمان.

لذلك وتبياناً لهذه النقاط الهامة التي أوردناها نقول:

لا بد لنا حتى نفهم النقطة الأولى وهي نسيان سيدنا آدم عليه السلام وصية الله من أن نرجع إلى ذلك الحال الأول الذي كان عليه سيدنا آدم في جنَّة الإقبال على الله قبل انتقاله إلى هذه الحياة الدنيا أي: قبل هبوطه من الحال النفسي إلى الحال الجسدي الذي نحن عليه فنقول:

للإنسان في هذه الحياة الدنيا فكر وعقل وليس في الجنة إلاَّ عقل فقط وهو مجرَّد عن الفكر.

فالفكر وهو تلك الجوهرة التي زيَّن الله تعالى بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا وجعلها في الدماغ هو الآن بالنسبة للإنسان جهاز المعرفة والوصول إلى الحقائق.

فالعين تُبصر والأذن تسمع واللسان يذوق، ثم تنتقل هذه المشاعر إلى النفس فإذا كانت النفس صادقة في طلب الحقيقة وأرسلت بإشعاعات هذه المشاعر للدماغ، هنالك يقوم الفكر بعمليات المقارنة والمقايسة والتحليل والتركيب، ثم تصل النفس إلى مطلوبها.

فمن النظام يهتدي إلى الحكم بوجود المنظِّم، ومن الأثر يحكم بوجود المؤثِّر، ومن التربية يصل إلى معرفة المربِّي، وهنالك تعقل النفس هذه الحقائق التي حكم بها الفكر فتشاهدها بذاتها وتوقن بها وتنتقش فيها لا تبرحها فتعقلها، تعقل حقيقة الوجود الإلَهي ومنها لشهود أسماء الله تعالى الحسنى وتلك غاية أقصى المنى لوجود الإنسان.

وهكذا فالتفكير هو ما يقوم به الدماغ من عمليات المقايسة والمقارنة والتحليل والتركيب توصُّلاً إلى إدراك الحقائق والحكم بوجودها.

أما العقل: فهو شهود النفس هذه الحقائق ومعاينتها إياها. وكل تفكير صادق لا بد أن يصل بصاحبه إلى العقل.

وتظل هذه الحقائق محفوظة في النفس مخزونة فيها، فإذا ما احتاج الإنسان إلى أمر من الأمور السابقة يعكس الفكر أشعته على ما عقلته النفس فتضيء له تلك الحقائق المخزونة في النفس فيعرفها الإنسان ويذكرها.

وعلى ذكر الفكر والعقل لا بد لنا من أن نذكر كلمة وجيزة نبيِّن فيها مدى فعَّالية هذا الفكر وقدرته على إدراك الحقائق فنقول:

لا بد من اهتمام النفس بالأمر حتى تصل إلى عقله. فالأمور التي لا تهتم بها النفس اهتماماً كلِّياً ولا تطلب معرفتها بصدق وإلحاح لا يكون عمل الفكر فيها إلاَّ سطحياً ولذلك لا يستطيع أن يصل فيها إلى إدراك حقيقة ولا أن يصدر حكماً وبذلك تبقى النفس بعيدة عن عقلها أو شهودها.

ولذلك وتوصيلاً للنفس إلى العقل في معرفة الخالق والمربِّي ثم الوصول إلى الإيمان بلا إلَه إلا الله ومعرفة أنَّ السير كله بيد الله لا بد من تعريف النفس بأن هذه الحياة الدنيا التي اطمأنت إليها وفرحت بها إنما هي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء، وأنه مهما جمع الإنسان منها، ومهما عاش فيها فلا بد له من الموت ولا بد من الفراق، وهذه حقيقة واقعية لا بدّ من وقوعها حتماً.

فإذا ما ضرب المرء لنفسه أمثلة لمن عاش قبله من آبائه وأجداده وذويه وعرَّفها بمن سكن في مساكنهم ومن سبقوه، ثم بصَّرها بالموت ورهبته والقبر ووحشته وكرَّر لها هذا الدرس وأعاده عليها فهنالك تخاف وترهب وتقلع عن الاسترسال في محبَّة الدنيا والانصراف إليها وتطلب وتجدُّ في معرفة المربِّي الذي

يُعنى بها وتتَّحد جهود النفس مع الفكر فيعمل منطلقاً جادّاً في البحث وما يزال يُقارن ويُقايس ويحلِّل ويركِّب ويسأل ذاته بذاته ويُجيب حتى ينتهي به الإقرار والحكم بوجود الخالق العظيم الذي خلق كل شيء، ويستمر به البحث فيتوصَّل إلى الإيمان بأنه تعالى هو المربِّي الممد، يربِّي المخلوقات ويمدُّها بما يلزمها، لا يغفل عنها طرفة عين، يعقل هذا بنفسه عقلاً شهوديّاً لا ريب فيه.

وأخيراً يصل هذا الفكر الصادق منتقلاً من معرفة المربِّي إلى معرفة الإلّه المسيِّر الذي يؤول إليه أمر الكون كله فيحكم بأن سير الكون كله بيد الله وأن لا إلّه إلا الله. وقد كنَّا فصَّلنا تلك الخطوات التي ينتقل الفكر فيها باحثاً عن الإيمان في مواضع سبقت من تأويلنا لهذه السورة. ثم تعقل النفس هذه الحقائق فتغدو مؤمنة حقّاً، والإيمان إنما هو ثمرة من ثمرات العقل ونتيجة من نتائجه ولا إيمان لمن لا عقل له، ولا دين لمن لا عقل له.

وهكذا فللعقل مكانه الأول في الوصول إلى الإيمان، والعقل متوقِّف حصوله على التفكير، والتفكير لا يتم ولا تدور دواليبه إلاَّ بالصدق في طلب المعرفة، والصدق متوقِّف حصوله على الخوف من الموت ونتائجه.

ولذلك كان ﷺ كما مرَّ بنا من قبل، يتَّكئ في المسجد بين سنَّة الصبح والفرض مضطجعاً على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة مقلِّداً حال الإنسان في القبر، مفكِّراً ومعلِّماً هذا الإنسان طريق الصدق والوصول إلى الإيمان. وكان ﷺ يقول:

«أكثروا ذكر هاذم اللذات» [1]

---

١ –أخرجه الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في ذكر الموت رقم /٢٣٠٧/.

ويذكِّر الإنسان بقوله الشريف: «**عِشْ ما شئتَ فإنكَ ميت، وأَحْبِب من شئتَ فإنكَ مُفَارقهُ، واعْمل ما شئتَ فإنكَ مجزيٌ به**»[١].

فلعلَّ هذا الإنسان يهتدي ويسلك طريق الإيمان وكفى بالموت واعظاً ومذكِّراً.

هذه كلمة ذكرناها ومن الضروري الإلحاح عليها لمن أراد أن يذَّكَّر وأراد أن يصل إلى الإيمان وبالتالي إلى فهم القرآن خطاب ربِّه العظيم.

ونعود إلى أصل البحث الذي كنَّا بدأنا به في كلامنا عن سيدنا آدم عليه السلام وأكله من الشجرة ونسيانه وصية الله تعالى فنقول:

لقد وضَّحنا في بحثنا السابق أن للإنسان في هذه الحياة الدنيا فكراً وعقلاً وأنه في الجنة ليس للإنسان إلاَّ عقل فقط وهو مجرَّد عن التفكير.

والسبب في ذلك أن الفكر إنما يتوقف عمله على وجود الدماغ وجريان الدم فيه وإن شئت فقل:

أن الفكر يُعين النفس ويساعدها على الوصول إلى الحقائق وعقل هذه الحقائق ما دامت في هذه الدنيا محبوسة في الجسد وما دام الجسد صاحب السيطرة والحكم.

أما إذا خرجت النفس من الجسد ولبسته وأصبحت محيطة به وأضحت صاحبة الحكم فهنالك تتوقف جميع الأجهزة الجسدية عن العمل وبالتالي يتوقف الفكر لأن هذه الأجهزة وهذا الفكر أضحت لا عمل لها، وتعقل النفس والحالة هذه الحقائق بذاتها دون حاجة إلى حاسة أو فكر.

وإذا كان الإنسان يتذكَّر في هذه الدنيا ما وقع له من الحوادث وما قام به من الأعمال بواسطة الفكر الذي يُرسل بأشعته إلى النفس فتضيء له هذه الحقائق

---

١ –رواه الطبراني

ويذكرها، ففي الدار الآخرة حين يتوقف الفكر عن العمل لا يعود هذا الإنسان يتذكَّر تذكُّراً فكرياً، بل يعقل عقلاً. فإذا عُرضت على الإنسان أعماله التي قام بها في الدنيا عقلتها النفس عقلاً، أي: أنها تعقل ما هو مطبوع فيها.

ذلك هو حال الإنسان في الجنَّة وحال سيدنا آدم عليه السلام من قبل. فقد كانت نفسه محيطة بجسده تعقل ما تراه عقلاً، فلما جاء الشيطان وقال:

{... يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى} (١)

أي: هل أدلُّك على الشجرة التي إن أكلت منها خلدت نفسك في ذلك الحال العالي من الإقبال على الله وملكت ذلك الحال الجميل الجليل مُلْكاً أبدياً لا يبلى. ولمَّا أقسم له بالله أنه لمن الناصحين غاب عنه ﷺ أن الله نهاه عن الأكل من الشجرة وغاب أنه تعالى حذَّره من الشيطان.

لقد نسي سيدنا آدم عليه السلام ذلك كله وهذا أمر طبيعي لأنه لم يكن له يومئذ فكر يتذكَّر به قال تعالى:

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} (٢)

أي لم يجد له عزماً على المعصية.

وهكذا فالنسيان الذي وقع لسيدنا آدم عليه السلام وزوجه أمر يقتضيه الوضع النفسي الذي كانا فيه وهو ليس والحالة هذه بمعصية وكل امرئ إذا هو لبس ذلك الحال النفسي الذي كان عليه سيدنا آدم عليه السلام قبل انتقاله للحال الجسدي الذي نحن فيه لفعل ما فعله سيدنا آدم عليه السلام، فهو حال يقتضيه الوضع ولا يمكن أن يعد مخالفة لأمر الله ولا خرقاً لوصيته. وما أجرى الله تعالى ذلك على سيدنا

---

١ – سورة طه: الآية (١٢٠).

٢ – سورة طه: الآية (١١٥).

آدم، وما جعل الله سيدنا آدم وزوجه محورين لهذه القصة إلاَّ ليتعرَّف أولادهما من بعدهما إذا هم أصبحوا في الحال الجسدي بعداوة الشيطان ومكائده وليعطيهم درساً عملياً ويضع بين أيديهم مثالاً واقعياً في هذا الموضوع فيحذِّر الأبناء من الشيطان وعداوته. وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الناحية في قوله تعالى:

{يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ...} [(١)]

ولعلَّك تقول: إذا كان الأمر كما بيَّناه فما تأويل الآية الكريمة الواردة في وصف هذه الواقعة في قوله تعالى:

{... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [(٢)]

فنقول: بعد أن عرضنا ما عرضناه من أن الحال النفسي الذي كان عليه سيدنا آدم عليه السلام من قبل في خصائصه التي لا تنطبق على الحال الجسدي الذي نحن عليه الآن، وإن النسيان من لوازم ذلك الحال النفسي لعدم وجود الفكر. لذلك لا يمكن بوجه من الوجوه أن يُعتبر أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة معصية بالمفهوم الذي نفهمه نحن الآن في حالنا الدنيوي والذي يتبادر لأذهان الذين لم يعرفوا قدر رسول الله ﷺ . ولا بد لنا لفهم هذه الآية من أن نتفهَّم ما قبلها وما بعدها من الآيات الكريمة الواردة في مسرى هذه القصة وهي قوله تعالى:

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى، فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ

---

١ - سورة الأعراف: الآية (٢٧).

٢ - سورة طه: الآية (١٢١).

لاَ يَبْلَى، فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [1]

فهذه الآيات الكريمة تُبيِّن لنا أن سيدنا آدم ﵇ إنما نسي وصية الله تعالى ولم يكن له عزم على المخالفة وإنه ﷺ إنما أكل من الشجرة طَمَعَ الخُلُود في الجنَّة وهي كما ذكرنا من قبل جنَّة الإقبال على الله والتنعُّم بشهود جماله، وأما الدافع الذي دفعه إلى الأكل من الشجرة هو حبّه لله وطمعه البقاء في نعيم الإقبال على الله.

أما كلمة **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** فيتبدَّى معناها ظاهراً جلياً إذا نحن قرناها إلى كلمة **{فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}**. فما أن أكل سيدنا آدم ﵇ وزوجه من الشجرة حتى ظهر لهما حالهما الجسدي وهنالك وبظهور هذا الحال الجسدي تذكَّر سيدنا آدم ﵇ وصية الله وكان هذا التذكُّر بسبب أن هذا الحال الجسدي يلازمه وجود الفكر الذي يحصل به التذكُّر.

وقد عرف ﷺ أن هذا الحال الذي صار إليه إنما هو بسبب مخالفته الوصية ونسيانه الأمر.

* * *

---

١ – سورة طه: الآية (١١٥–١٢٢).

غاية قصة سيدنا آدم عليه السلام

. تعليم محبة الله.

. وعدم الاستماع إلى الشيطان.

كلمة **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ}** تقول:

وأدرك سيدنا آدم عليه السلام من نفسه أثر ظهور ذلك الحال الجسدي له أنه نسي وفعل خلاف ما أوصاه الله تعالى به.

وهكذا فكلمة **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ}** ليست من الله تعالى إثباتاً لعصيان آدم عليه السلام وتقريراً للمعصية، إنما هي حكاية حال سيدنا آدم وبيان مشاعره وإحساساته النفسية بالمخالفة التي أوقعه فيها نسيان الأمر الإلٓهي.

أما كلمة **{فَغَوَى}** فمأخوذة من: الغيّ وهو الانقلاب والتحوُّل من حالٍ عال فيه السعادة والخير إلى حال أدنى فيه المتاعب والشقاء.

قال تعالى: **{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً}** (١)

أي سيلقون بتضييعهم الصلاة واتِّباع الشهوات انحطاطاً من تلك المكانة التي كانت لآبائهم من قبل وسيجدون متاعب وشقاوة.

وكان ﷺ كثيراً ما يستهل خطبه بقوله الكريم:

«ومن يُطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وضلَّ ضلالاً مبيناً».

وبناءً على هذا نقول: لمَّا رأى سيدنا آدم عليه السلام ذلك الحال الجسدي الذي صار إليه وتذكَّر أنه خالف وصية ربّه، خجلت نفسه من هذه المخالفة، وبهذا

---

١ – سورة مريم: الآية (٥٩).

الخجل الذي سيطر على نفسه احتجبت نفسه عن ذلك الحال من الإقبال على الله.

ويكون ما نفهمه من كلمة **{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}** أي: ورأى آدم عليه السلام من نفسه أنه خالف وصية ربِّه وبذلك احتجبت نفسه عن الإقبال على الله خجلاً وتحوَّل عن ذلك الحال العالي الذي كان فيه. وهنالك وفي هذه اللحظة ناداه ربُّه مبيِّناً له أن هذا الأكل الذي أكله من هذه الشجرة إنما صدر منه بناءً على نيَّة عالية، نيّة الخلود في الإقبال ودوام البقاء مع الله. وهذه النيّة العالية وهذا المقصد السامي لا يُعدُّ معصية ولا يُوجب استحياء وخجلاً لا سيما إذا اقترن مع ذلك الحال الأول النفسي الذي من لوازمه النسيان.

وأراد تعالى بذلك التعريف الذي عرَّف به سيدنا آدم عليه السلام أن يُرجعه إليه ويرفع عنه ذلك الخجل الذي استولى عليه، وذلك ما نفهمه من كلمة **{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ}** أي: جعله يرجع إليه وجمع قلبه عليه تعالى.

وذلك أيضاً ما عبَّرت عنه الآية الكريمة الواردة في سورة البقرة في قوله تعالى:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}:

أي: كلمات مبيِّنات له سموَّ نيّته وعلو مقصده وغايته، محواً للخجل من نفسه وبذلك عرف أن الله تعالى لم يؤاخذه على نسيانه ولم يعامله بظاهر عمله، بل نظر إلى حقيقته ونيّته، وإنما الأعمال بالنيَّات. نعم لقد تذلَّل سيدنا آدم عليه السلام فألقى الله تعالى في نفسه أن يا آدم نيَّتك عالية وشريفة فنحن لا نؤاخذك أبداً على ما وقع. كذلك كل من يقع عن غير قصد له سهولة رجعة؛ أما المتعمِّد فلا رجعة له.

وهنالك أدرك ﷺ أنه ما عصى ربَّه وما عزم على مخالفته، وعلم أن الله تعالى ينظر إلى النيات وبهذا رجعت الطمأنينة والثقة إلى نفسه من أن الله تعالى راضٍ عنه فعاد إلى الإقبال على الله والوجهة إليه فتاب عليه ربّه، أي: فكشف له ذلك الحجاب وردَّه إلى ذلك الحال الأول من رؤية الجمال والكمال الإلّهي وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{فَتَابَ عَلَيْهِ}:

تلك هي عناية الله تعالى تحوط سيدنا آدم عليه السلام وترعاه، تبدَّت لك ظاهرة في هذه القصة، وتلك هي معاملته تعالى مع سائر عباده يُعاملهم بما يُعاملهم به ليردَّ نفوسهم الشاردة إليه ليتمتعوا بما أعدَّه لهم من نعيم مقيم، وذلك ما نفهمه من كلمة:

{إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}: أي: يعامل هذا وهذا ليرجعوا.

فانظر إلى حنان الله تعالى ورحمته، وانظر إلى عظيم فضله على عباده، لقد قرَّر على سيدنا آدم عليه السلام قبل أن يُخرجه إلى هذه الدنيا وقبل أن يُخرِج ذرِّيته من صلبه، إذ كان بحال نفسي فجعل خروجه من ذلك الحال النفسي إلى هذا الحال الجسدي بأسلوب أظهر به شرف هذا الرسول وعظيم حبّه لخالقه وضرب تعالى بقصة هذا الإنسان الأول عِبراً وأمثالاً باقية لبنيه فأقامه في مقام المعلِّم الأول لأولاده وأجرى ما أجراه له ليعلِّم الناس قوانين النفس التي ينبني عليها الإقبال على الله، وليشهدوا الطريق الذي تعود منها النفس إلى حصيرة القدس، فإذا ما خجلت نفوسهم وتراجعت متأخِّرة أمكنها الرجوع والعودة إذا هي فعلت ما يجدِّد لها الثقة ويمحو منها الخجل، كما أراد تعالى أن يعرِّفنا كما كنا قد ذكرنا من قبل بعداوة الشيطان فنحذر من مكره وكيده.

أفبعد هذا كله يستطيع أن يتعرَّض متعرِّض فيُنقص من مكانة هذا الرسول الكريم أو ينسب لله ما ينسب من قسوة على الإنسان. إنه تعالى يحاول ردَّ عباده إلى الحق:

{... وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} (١)

هذا بعض ما فهمناه من هذه القصة وكم حوت هي وأمثالها من عِبر وأمثال.

{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ} (٢)

أما وقد أجبنا على الأسئلة التي أوردناها من قبل مبينين مفصِّلين أن سيدنا آدم عليه السلام ما عصى ربَّه، وأن حاله النفسي الأول من لوازمه النسيان، وأن الغرض من هذه القصة إن هو إلاَّ تحذير الإنسان من مكر الشيطان وما ذلك من الله تعالى إلا محض الرأفة والرحمة والحنان.

* * *

بقي علينا أن نتفهَّم نقطتين وردتا من معرض تلك الأسئلة السابقة، فإن نحن فهمناهما حق الفهم فقد تبدَّدت من أذهاننا جميع المشكلات التي ضلَّ عن فهمها كثير من الناس.

أما النقطة الأولى فهي:

ما معنى الآية الكريمة التي وردت في هذه القصة وهي قوله تعالى في سورة الأعراف (٢٢): **{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ...}**؟.

وهل استطاع الشيطان أن يغر سيدنا آدم عليه السلام وزوجه؟.

---

١ – سورة الرعد: الآية (١٣).

٢ – سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

أم إن للآية معنىً دقيقاً يتناسب مع مقام هذا الرسول الكريم وما هو عليه من كمال؟.

وجواباً على هذا السؤال نقول:

إن كلمة **{فَدَلاَّهُمَا}** مأخوذة من دلَّى. تقول: دلَّى فلان الغصن، أي: أدناه منه. وهكذا فالشيطان لما حلف لسيدنا آدم عليه السلام بأن أكْلَه من الشجرة يجعله دائم البقاء مع الله ومالكاً ذلك الحال جعله يدنو من الشجرة ويأكل وزوجه منها.

أما كلمة **{بِغُرُورٍ}** فليس ينصرف معناها إلى سيدنا آدم عليه السلام إنما ينصرف للشيطان ذاته.

فالغرور إنما كان يُخالط نفس الشيطان ولم يخالط نفس سيدنا آدم عليه السلام. وبشيء من التفصيل نقول:

الغرور: هو حال نفسي يسيطر على نفس الإنسان فيجعله يتوهَّم وجود شيء وهو بالحقيقة غير موجود. فقد يغتر الإنسان ليلاً بضوء القمر فيتوهم إذا استيقظ ورآه بازغاً أن الصبح قريب والحقيقة أنه ما يزال في أواسط الليل. وقد يغتر الإنسان بنفسه فيتوهم أنه قوي وأنه عالم والحقيقة أنه لا علم للإنسان إلاَّ بما يعلِّمه الله تعالى إيَّاه، ولا قوة إلا بالله.

وهكذا فالشيطان إنما كان مغروراً بنفسه، فكان يحسب أنه بهذا القسم الذي أقسمه بالله مُدَّعياً فيه أن الأكل من الشجرة يُديم لسيدنا آدم عليه السلام البقاء مع الله يستطيع أن يوقع سيدنا آدم عليه السلام في مخالفة ربّه فيرميه بالخجل ويبعده عن الله، ولكن الأمور جاءت على عكس ما أراد وتوهَّم. فقد كانت نيَّة سيدنا آدم عليه السلام العالية أساساً متيناً ارتكز عليه ﷺ في العودة والرجوع إلى الله وخرج إبليس من هذه المحاولة مذموماً مدحوراً.

وبهذا يتبيَّن لنا أن الشيطان ما استطاع أن يغرَّ سيدنا آدم عليه السلام ويبعده عن الله وأن معنى كلمة **{بِغُرُورٍ}** إنما تصف حال الشيطان من حيث أنه توهَّم شيئاً فجاءت الأمور بخلاف ما توهَّم وباء بالفشل والخذلان.

* * *

أما النقطة الثانية: كيف استطاع الشيطان أن يتوصَّل إلى إلقاء وساوسه إلى سيدنا آدم، وسيدنا آدم عليه السلام مقبل على الله لا ينقطع عنه؟. وهل يمكن أن تعتبر هذه الواقعة دليلاً على إمكان دخول الشيطان على الأنبياء؟.

وجواباً على هذا السؤال وإيضاحاً لهذه النقطة نقول:

تبدو لنا هذه المشكلة جلية واضحة إذا نحن رجعنا إلى حال الإنسان الأول لما كانت نفسه محيطة بجسده، ثم قارنَّا ذلك الحال الأول النفسي بهذا الحال الجسدي الذي نحن عليه الآن.

فسيدنا آدم عليه السلام لمَّا كان في جنَّة الإقبال على الله وكانت نفسه لابسة جسده ومحيطة به ما كان بين نفسه ونفس الشيطان من حجاب يحجبها عنه، بل كانت تبدو ظاهرة مكشوفة. وبما أن سيدنا آدم عليه السلام مُقبل على الله دائم النظر إليه لذلك ما استطاع الشيطان أن يفعل أكثر من أن يُلقي إليه بوساوسه إلقاء ويحدِّثه بما حدَّثه به عن بعد ودون أن يدنو منه. فقد أكون الآن سائراً في طريق وأسمع عن بعد كلمة يهمس بها إنسان أو يقصدني بها ويريد أن يجعلها في أذني ويرغب أن تقع من نفسي ولا يعتبر ذلك دخولاً منه عليَّ ولا يعدُّ حديثه وهمسه تسلُّطاً من نفسه على نفسي، إنما هو مجرَّد قول صدرت موجاته من نفس فأصابت هذه الموجات صفحة النفس الثانية، وبين النفس الأولى والثانية مسافة ظاهرة.

وهكذا فقد تُرسل الآن المحطات الإذاعية مثلاً "اللاسلكية" بموجاتها من منطقة في أقصى الشرق فتعكس هذه الموجات الأجهزة الأخرى اللاقطة التي تقع في المغرب الأقصى وبين المحطتين بعد المشرقين.

إن هذا المثال يوضِّح لنا هذه النقطة التي نحن بصددها وضوحاً تاماً ويبيِّن لنا أن الشيطان ما دنا من سيدنا آدم عليه السلام ولا دخل عليه وهو لا يستطيع أن يدنو منه لأنه ﷺ دائم الوجهة إلى الله، بل كل ما في الأمر أنه وسوس إليه وسوسة عن بعد.

وقد وردت الآية صريحة بهذا المعنى، إذ قالت:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ...} [1]

ولم تقل وسوس في صدره أو في نفسه، كما في قوله تعالى:

{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} أي المنقطعين عن الله تعالى.

ومن الواضح أن حرف "إلى" يدلُّ على الانفصال، وأن حرف "في" يدل على الظرفية والاشتمال.

وهكذا فلا تُعدُّ هذه الوسوسة الملقاة عن بعد دخولاً من الشيطان على سيدنا آدم عليه السلام أو دنواً منه، ولا يمكن أن تُعتبر هذه القصة دليلاً على إمكان دخول الشيطان على الأنبياء.

بقي علينا أن نبيِّن عدم إمكان دنو الشيطان من الأنبياء في هذا الحال الجسدي مثلهم كمثل سائر البشر من حيث كون أجسادهم محيطة بأنفسهم وكون الحكم للجسد، فهم يولدون كما يولد سائر البشر ويطرأ على أجسادهم في الحياة

---

١ - سورة طه: الآية (١٢٠).

الدنيا ما يطرأ على أجساد غيرهم من صحة ومرض وشباب وشيخوخة وضعف وهرم وموت.

أما أنفسهم صلوات الله عليهم فهي دائمة الإقبال على الله، فبما عَرَفَتْ من رأفة الله ورحمته بخلْقه، وبما شهدته من كماله تعالى وجماله اللامتناهي أضحت عاكفة في ذلك الجناب العالي وهي والحالة هذه مغمورة بذلك التجلّي الإلّهي، مشمولة بذلك النور لا ينقطع عنها طرفة عين.

وبما أن النفس في هذا الحال الجسدي محاطة بالجسد ولا يمكن أن تصلها وساوس الشيطان من بعيد، بل لا بد له من النفوذ إليها عن طريق الجسد واختراق الصدر، وحيث أن أجساد الأنبياء مغمورة دوماً بذلك النور الإلّهي المتوارد على نفوسهم، بصدقهم القوي جداً مع الله وحبِّهم العظيم له تعالى، لذلك لا يستطيع الشيطان أن يدنو منهم وأن يخترق ذلك النور الإلّهي وهم صلوات الله عليهم بهذا التجلّي في حصن حصين من الشيطان وحرز منيع.

وهكذا نخلص من حديثنا هذا وقد بيَّنا أن الشيطان لا سبيل له ولا مدخل على الأنبياء قطْعاً، كما أنه لا سبيل له على كل مؤمن ما دامت نفسه مقبلة على الله متجهة إليه أو مرتبطة بأنبيائه الكرام البررة. وقد أرشد تعالى الإنسان بصورة عامة إلى هذه الوسيلة التي يتخلَّص بها من الشيطان فقال تعالى:

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [١]

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [١]

---

١ - سورة الأعراف: الآية (٢٠٠-٢٠١).

* * *

والآن وبعد أن أجبنا على أسئلة دقيقة كنّا أوردناها لا بد لنا من معالجة نقطة جديدة تتلخص بهذا السؤال التالي:

هل كان خروج سيدنا آدم عليه السلام إلى هذه الدنيا ومجيء بني الإنسان من بعده إليها أحسن، أم أن بقاءه ﷺ في الجنَّة وخلق بني الإنسان في الجنَّة رأساً دون خروجهم إلى الدنيا أحسن؟. وأي الحالين يعود على الإنسان بالسعادة والخير أكثر من الآخر؟.

وجواباً على هذا السؤال نقول:

تتوضَّح لنا هذه النقطة إذا نحن رجعنا إلى المباحث السابقة التي سقنا فيها الحديث عن الجنَّة وحقيقتها وأن منازل الناس في الجنَّة إنما تكون على حسب أعمالهم. وزيادة في التفصيل نضرب المثال الآتي فنقول:

هبْ أن رجلاً سافر في قطار وكانت الطريق التي تطل عليها نافذة القطار من أجمل ما خلق الله تعالى في مناظرها ومشاهدها وعجائبها وغرائبها.. حدائق وأشجار وأنهار وبحار ومناظر فتَّانة ومدن جميلة مختلفة لم يرَ الراؤون نظيرها ولم يخطر لهم مثالها على بال. فما دام هذا القطار جارياً لا يتوقف عن المسير تجد هذا الإنسان الراكب مشرئباً بعنقه إلى تلك المشاهد لا يبغي عنها حولا لتجدُّدها وتباينها وتراه لا ينقطع عن النظر مخافة أن يفوته شيء منها. أما إذا وقف هذا القطار وطال به الوقوف تجد هذا الراكب ينصرف عن النافذة متحولاً، ولو أن المشهد الذي وقف أمامه من أجمل المناظر وأمتعها. والسبب في ذلك هو أن النفس بحسب ما فطرها الله تعالى عليه وما جعله فيها من الوسعة

---

١ - سورة النحل: الآية (٩٩-١٠٠).

اللامتناهية تضيق إذا هي حُبست عند حال واحدة. وحب الاستطلاع على كل جديد من الأمور التي فُطِرَ عليها الإنسان فإن توقَّف على حال واحد تسرَّب الملل إليه وأصبح الجميل الذي لا يتبدَّل مُملاًّ بل ممقوتاً، حتى والمطرب اللذيذ بتكراره دون جديد يغدو مرفوضاً ملولاً.

هذا وبناء على ما قدَّمناه نقول:

بما أن ارتقاء الإنسان وتنقُّله في جنَّة الإقبال على الله يتوقف على حسب ما كنّا بيَّناه من قبل على ما يقدِّمه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من صالح الأعمال، ولذلك ولو أن الإنسان خُلِقَ في الجنَّة رأساً ولم يخرج إلى هذه الدنيا لما كان له عمل يتقرَّب به إلى خالقه زلفى ولما أمكن الارتقاء من حال إلى حال أعلى، ومن جنَّةٍ إلى جنَّة أوسع وأرقى، بل لظلَّ في الجنَّة ملازماً لمنزلة واحدة لا يعدوها.

وهكذا فالله تعالى إنما خلق النفس البشرية وأعطاها أعظم وأغنى عطاء، فقد جعل فيها من القابلية للتدرُّج في مشاهدة الكمال الإلّهي والتوسُّع في هذه المشاهدة ما لا يقف بها عند حد أو انتهاء، وذلك ما كنا أشرنا إليه في قوله ﷺ في حديث قدسي:

«**ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن**».

وأخرجها تعالى إلى هذه الدنيا وفتح لها مجال العمل لتكون أهلاً لذلك الشهود اللامتناهي وذلك الارتقاء، وجعل الشهوة دافعة للعمل مانحةً إيَّاه قيمته، إذ لو لم تكن للإنسان شهوة إلى المال مثلاً لما كان للصدقة عنده وزن ولا قيمة، وكذلك غضُّ النظر عن النساء اللواتي لا يحل النظر إليهن، وبذلك كله أهَّل الله تعالى هذا الإنسان أعظم ما يمكن أن يناله مخلوق من الفضل الإلّهي والنعيم المقيم.

أفليس إخراج الإنسان والحالة هذه إلى الحياة الدنيا فضلاً من الله ونعمة وخيراً من إبقائه في الجنَّة؟. أي: من جنَّةٍ واحدة عالية قطوفها دانية إلى جنَّاتٍ عُلا بمسرَّات متعارجة متراقية متسامية تنكبُّ عليها النفس لتنوُّعها وتفاضلها سموّاً وعلوّاً تروق للرائي المتذوِّق وتملؤه حبّاً بالإلَه الرحيم العظيم الذي دوماً يُغدق عليه سعادة أسمى من السعادة التي قبلها، فلا ملل ولا كلل، بل سرور مغمور بحبور مع زيادة في العلو والدنو من الرحيم المنَّان، أي: من جنَّة إلى جنان متَّكئاً هذا المؤمن في معارجه على أعمال ممزوجة بالنوايا الإنسانية!. قال تعالى مشيراً إلى أن إخراج الإنسان إلى هذه الدنيا خير من ذلك الحال الذي كان فيه سيدنا آدم عليه السلام سابقاً بما بيَّنته الآية الكريمة في قوله تعالى:

{يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [١]

ولباس التقوى الذي ازدان به آدم عليه السلام خيرٌ من الحال الأول الذي كان فيه. كذا إخراج الطفل من بيته السعيد إلى المدرسة وما فيها من قيود وتشديدات خير له من البقاء في بيته بيت الانطلاق والحرّية لأن رقيَّه يتم من تدريسه، فالدنيا مدرسة ويليها الرقي في الدنيا والآخرة وما لم يخرج للمدرسة يبقى مقعداً عن السمو لا رقيَّ له، كذا كان سيدنا آدم عليه السلام في جنَّة واحدة لكنه بعد الحياة الدنيا غدا في جنَّات متعالية متنوِّعة متسامية نحو الأفضل والأكمل بديمومة مرغوبة محبوبة أي: بدل الجنَّة جنَّات.

* * *

---

١ - سورة الأعراف: الآية (٢٦).

مفـهـوم الجنــة وأسباب خروج سيدنا آدم ﷺ منـها

آدم ﷺ رسول كريم جاء إلى الدنيا لغاية أرادها ربُّ العالمين، وهيَّأ لها من الأسباب ما جعل لخروجه من الجنَّة قصة تنطوي على حكمة، وفيها تحذير وموعظة، ورحمة من الله وفضل، وليكرِّم بني آدم على العالمين.

لقد فهم معظم الناس قصة خروج هذا الرسول من الجنَّة فهماً مغلوطاً أو ربما كان معكوساً واعتقدوا بأن خروجه كان نتيجة عصيانه أوامر ربّه فجازاه الله بالشقاء بدل النعيم. غير أن الحقيقة هي عكس ذلك فخروجه من الجنَّة لم يكن غضباً من الله، بل رحمة وفضلاً، وما أخرجه إلاَّ ليسعده، وليمنحه بدل الجنَّة التي كان وكنَّا فيها في عالم الأزل جنَّات ستُبنى على الأعمال الصالحة في هذا العالم.

كما كان من وراء إخراج سيدنا آدم ﷺ من الجنَّة على هذه الصورة قصد ينطوي على تحذير له ولذريته من بعده من عدو ماكر خبيث يريد أن يُثبت ويبرهن لربِّ العالمين أن اختياره لهذا الخليفة كان خاطئاً، وأنه لا يستحق هذا الشرف الذي أكرمه به، ولذلك كرَّس جهده وأقسم بأنه ليغوينَّهم أجمعين وليأتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

لذلك عمد إبليس أن يخرج سيدنا آدم ﷺ من الجنَّة، لِيُثبت صحة رأيه، وليُبرهن لله سبحانه بأنَّ هذا المخلوق لا يصلح لهذه الخلافة وأن اختيار الله له كان خاطئاً.

لقد ظنَّ إبليس بأن الله بوَّأ سيدنا آدم ﷺ هذه الخلافة على الأرض بدون جدارة واستحقاق وهو أحق بها منه، واعْتقد أيضاً بأن الله قد أغواه عندما أمره أن يسجد لسيدنا آدم ﷺ وهو يظنُّ بنفسه مع خبثه أنَّه أحق بالخلافة وأهلها ولم

يعلم بأن سجوده يجلب له الخير، فسيدنا آدم ﷺ يومذاك هو باب الله، وعدم الخضوع له يعني إغلاق باب الجنَّة على نفسه.

لقد أورد إبليس حجة واهية بعدم خضوعه لسيدنا آدم، وبدلاً من أن يقيمها على الله أقامها على نفسه، فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، وبكلمات أخرى فقد اعتزَّ إبليس بأصله لأن ماهية تكوينه أفضل من ماهية سيدنا آدم ﷺ بزعمه، وإذا تفحَّصنا هذا الادِّعاء الباطل نجده ينطوي على الكبر بقدر ما ينطوي على الجهل، ويمكن الرد عليه بثلاثة بنود هي:

١. إذا كان الله سبحانه وتعالى قد كوَّن إبليس من النار وسيدنا آدم ﷺ من الطين فما فضل إبليس بذلك، أيريد أن يُحمد على خلْق ليس له فيه أدنى اختيار؟.

٢. يقدِّم التراب من الخيرات أكثر مما تقدِّمه النار، فالتراب يُنتج والنار تنضج.

٣. إن التراب لا يقل عن النار في تطهيره للأشياء، وأنه وإن كانت للنار ميزة السرعة في التطهير إلاَّ أنها تحوِّل المادة المطهَّرة إلى حالة تختلف عما كانت عليها سابقاً بعكس التراب الذي يُبقي الشيء على ذاته بعد طهارته.

* * *

إن الإمعان في هذه القصة يقودنا إلى تعريف الجنَّة كما هي، لا كما يصوِّرها لنا بعض المفسِّرين، أو كما يفهمونها، ثم نرجع بعد ذلك إلى الحكمة الحقيقية لإخراج سيدنا آدم ﷺ منها.

لقد كان سيدنا آدم ﷺ في الجنَّة سعيداً خالي البال من أعباء الحياة.

والطفل يكون سعيداً خالي البال في البيت في أحضان أمه وأبيه، وإرسأله إلى مدرسة العلم والرقي يُسبِّب له أعباءً وأعباء، لكنه المستقبل الأبدي.

قال تعالى:

{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى} (١)

إلاَّ أنه كان في جنَّة واحدة، ولذا لا بد والحالة هذه أن يتسرَّب الملل إلى نفسه مهما كان المشهد جميلاً ومهما كانت الحياة رغيدة، وأيما كان سروره عظيماً، لأنه سيمكث فيها أحقاباً، وبعدئذ إذا لم ينتقل إلى جنَّة أخرى، ومن نعيم إلى نعيم أعلى فسوف تنقلب سعادته إلى شقاء وسروره إلى سأم وخلوده إلى ضجر، ورحمة به وبنا وكرماً منه تعالى وفضلاً أراد للإنسان سعادة لا شقاء بعدها، وسروراً متزايداً متنوِّعاً بأفانين لا انقطاع فيها.

من أجل ذلك كان إخراج سيدنا آدم عليه السلام من الجنَّة ضرورة تقتضيها سعادته، ليتعبَ قليلاً وليسعد كثيراً. وإن طبَّقت ذريته ما تُؤمر به فتسعد أيضاً.

إنَّ الجنَّة اسم لفعل جنَّ، وجنَّ تعني: ستر وأخفى، وجنَّ الفلاح الحب: ستره، وجنَّ الليل: إذا أظلم وأخفى ما فيه، والمجن: هو الترس الذي يحتمي به المقاتل من ضربة الخصم، وقَلَبَ له ظهر المجن: أخفى حقيقته متنكِّراً له بخصام، والمجنَّة: هي المقبرة التي تتوارى فيها الأجساد، والجنَّة ليست مأكلاً ومشرباً وغير ذلك وحسب، بل هي في حقيقتها مشاهدة وجه المولى الكريم ولا عجب، لأنه خالق الجمال وأصله، فبه السرور وبه السعادة الحقّة.

قال تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** (٢)

الجنة إذن: هي النظر إلى وجه الله الكريم، فيه تكون السعادة وأيّ سعادة!!. وبه يكون الجمال وأي جمال!. وبه يتم السرور وأي سرور!. بل وبه الخير كله

---

١ - سورة طه: الآية (١١٨-١١٩).

٢- سورة القيامة الآية (٣٢)

والجمال والحق، ويلتفت المرء إلى ما حوله فيرى كل شيء قد غدا جميلاً، لأن سعادته وسروره انعكسا على ما حوله من الأشياء فيغدو مسروراً بأكله إذا أكل، وبشربه إذا شرب، وأي عمل يقوم به تنعكس عليه آثار نفسه.

تُرى كم يشعر المرء بالسعادة لو أن أحد ملوك الأرض أثنى عليه وغمره بفضله؟. فكيف إذا وهو يقابل مَلِكَ الملوك، وربّ السموات والأرض ربّ العرش العظيم؟. ولمس رضاه وحبه عن كثب؟.

إن الجمال الإلّهي لا يمكن تعريفه ولا وصفه، فالجمال الذي يراه القريب من الله تعالى، والسعادة التي يحياها واللذة التي يشعر بها ويتذوّقها تحوّله عمَّا يشغل الناس ليبقى مع ربِّ الوجود.

{فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [١]

إن جنَّة الإنسان في ذاته فلا يتذوقها إلاَّ هو، فالمؤمنون جميعهم في الجنَّة وكل من فيها في حبور، ولكن شتَّان بين سعادة وسعادة وبين جنَّة وجنَّة. فكلما اقترب الإنسان المؤمن من الله في الحياة الدنيا أكثر كلما كانت جنَّته في الدنيا ثم في الآخرة أعلى درجة وأسمى مقاماً وهذا القرب أو هذا التجلِّي هو نتيجة ما أسلف الإنسان في الحياة الدنيا من الصالحات.

والعمل الصالح لا يكون إلاَّ بالإيمان، والإيمان لا يكون إلا بجهاد النفس عن الهوى، ولذا فلا عمل صالح بدون إيمان، ولا إيمان بدون عمل صالح وخير الأعمال ما كان خالصاً لوجهه تعالى، وهذا لا يتسنَّى إلا لأولي الصدق. فذرَّة من أعمال أهل القلوب توازي عمل الثقلين.

---

١ – سورة السجدة: الآية (١٧).

وإذا كانت جنَّة الإنسان من سعادة وسرور ولذة في ذاته لا يشعر بها إلاَّ هو فإنَّ صورته الظاهرة تظلُّ مكشوفة إلاَّ أنها مغمورة بالنور الإلٓهي وهكذا تنعكس آثار قربه من الله بازدياد على مأكله ومشربه ومشهده. فكلما كان قربه أكثر كلما كانت سعادته أكبر وبالتالي يكون مأكله ومشربه ومنظره أجمل وأحلى.

{..كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

إذن: إن الإيمان والعمل الصالح توأمان لا يجوز فصلهما أو هما كجناحي الطائر لا ينهض إلاَّ بهما، فالجنَّة أو الجنَّات تختلف من إنسان إلى آخر. ولا يعرف الإنسان إلاَّ جنَّته ولا يشعر إلاَّ بها وهي مخفية عن غيره فكلما كان إيمان الإنسان عالياً كلما كان عمله عالياً وبالتالي تكون جنَّته أعلى.

ولذا شتَّان بين جنَّة الرسل والأنبياء وجنَّة غيرهم من المؤمنين، فلو كانت الجنَّة كما يتوهَّم البعض . بارتفاع القصور وزينتها؛ وسعة البساتين وطيب ثمارها فلن تكون هناك سعادة، ولن تكون جنَّة لأن قصور الرسل وبساتينهم ستكون من غير شك أوسع وأرحب وأجمل من قصور وبساتين غيرهم من المؤمنين، وبمعنى أعم فإن ما يملكونه من قصور وبساتين وحور عين، وأنهار من عسل هي خير مما نملك، ولذا فلن يهنأ لنا عيش ولن تحصل لنا سعادة وسوف تصغر نعمة الله في أعيننا عندما نرى ضآلة جنَّتنا بالنسبة لجنَّات الأنبياء. وعندئذ تنقلب جنَّتنا إلى شقاء في أعيننا، وإذا الأمر كذلك . وهو يختلف كلِّياً . فإن جرثومة الحسد والغل وما يتبعها من شقاء قد رافقتنا إلى هناك، وعدنا ثانية إلى الشحناء والبغضاء والحزن، وهذا ما يخالف معنى الآية الكريمة:

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ...} [1]

وكذلك الآية: **{يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}** [2]

أجل إن هناك تفاوتاً وتفاضلاً ولكنه تفاضل وتفاوت مستور، فكل مؤمن في الجنَّة سعيد ولكن شتَّان بين سعيد وسعيد.

ففي الجنَّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* * *

---

١ - سورة الأعراف: الآية (٤٣).

٢ - سورة الزخرف: الآية (٦٨).

هيئـة أهل الجنـة

إن الإنسان يعود إلى ما كان عليه في الأصل أي: الحكم للنفس [1]، أو إلى الحالة التي كان عليها أبونا آدم عليه السلام قبل أكله من تلك الشجرة.

إن أنفس أهل الجنَّة تلبس جسدها، ولما هبطنا أصبحت أنفسنا محصورة في القفص الجسدي، اللهم ما عدا الأنبياء والرسل، لأن أيّاً منهم كقرص الشمس، فإذا كان قرص الشمس جسد أحدهم الشريف فإن شعاع الشمس الساري بالكائنات هي نفسه التي لم تنقطع أبداً عن حضرة الله، أما نحن فقد انقطعنا بالأزل عند **{... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ...}** [2] ولكن الأنبياء لم ينقطعوا، لذا فإننا نتطلَّع إلى العالم من خلال الكوى المفتوحة لنا، ومع ذلك فإن النفس تشاهد وتذوق وتلمس من وراء حجاب، أما في الآخرة فتنعكس وتصبح النفس كما ذكرنا لابسة للجسد، أما هيكل النفس وشكلها المرئي فيبقى مشابهاً للثوب الجسدي الذي كان عليه المرءِ في الدنيا ولكن هذا الهيكل النفسي ليس مادِّياً. وبما أن نفس المؤمن مغمورة بالتجلِّي الإلٓهي مباشرة، لذلك يصبح جماله متناسباً مع علو منزلته، لأنه بالحقيقة أصبح الجمال جمال النفس، وليس جمال هذا الهيكل المادي كما هو متعارف عليه في الحياة الدنيا.

١- قال تعالى: **(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)** الأنبياء (١٠٤). وقال سبحانه: **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...)** الأنعام (٩٤).

٢- قال تعالى :**(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُواْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)** الأعراف (١٧٢).

إن النفس في الجنَّة تتحرَّر من سلطان الجسم الذي كانت محبوسة فيه في الحياة الدنيا ولذا وحينما تنعتق منه في الآخرة تغدو حرة طليقة فلا يُقيدها زمان ولا مكان.

{... وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [١]

إن الإنسان عندما ينام تتحرَّك نفسه، تذهب وتجيء، وتحب وتكره، وتخاف وتتكلَّم، ومع ذلك فإن جسده ملقى على الفراش، كما أن الإنسان لا يتذكَّر في حالة نومه شيئاً، فقد يرى نفسه في موضع، وإذ هو في موضع آخر، دون أن يستطيع الربط بين هذين الموضعين أو يجد علاقة تربط المكان بالزمان، ذلك لأن نفس النائم تتحرَّر من سيطرة الفكر وسلطانه، فلا تعقل إلا ما تشاهده، ولا تعقل إلاَّ المكان الذي هي فيه، أما سبب ذلك فهو توقف جهاز الفكر أو آلية الدماغ عن العمل، وفي الآخرة فإن الفكر يتعطَّل لعدم الحاجة إليه، ولا يبقى إلاَّ عقله والعقل من صفات النفس، وبما أن النفس هي ذات الإنسان الشاعرة الخالدة فإن ما عقله في الدنيا من خير أو شر يظلُّ مطبوعاً بها أبداً، فإما أن يسر الإنسان بما عقله ويصبح وجهه مبيضاً، وإما أن يخزى به فيسود وجهه وينحجب عن نعيم التجلِّي الإلَهي، وبالتالي ينحجب عن الحق. هذا وبما أنَّ الآخرة لا يوجد فيها إلاَّ الحقائق، وبما أن هذه الحقائق لا تُرى إلاَّ بنور الله، فإن المنحجب عن هذا النور ـ سواء أكان في الدنيا أو الآخرة ـ يظل في عمى عنها ولا يرى إلاَّ صورها. وإلى هذه الحالة أشار تعالى:

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَلِكَ...} [٢]

---

١ – سورة الحج: الآية (٢٣).

٢ – سورة طه: الآية (١٢٥–١٢٦).

وقال أصدق القائلين: **{وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً}**[1].

وعلى هذا الأساس فكل شيء كنَّا نراه في الحياة الدنيا يتبدَّل أو يرجع إلى حالته الأصلية، فلا الأرض هي الأرض، ولا الأنهار أنهار ولا الأساور ولا الذهب ولا الفضة ولا الأرائك، ولا غيرها يبقى على حاله الذي كان عليه في الحياة الدنيا، لأن الوظائف التي كانت تقوم بها قد تبدَّلت. وما هذه الأشياء التي ذكرها تعالى في كتابه الكريم إلاَّ أسماء لمسميات تختلف بالدرجة في أصلها عن الأشياء التي كنا نراها في الحياة الدنيا، لأن حقائقها متشابهة لكنها أجمل بكثير وأرفع وأرقُّ وأحلى ولذا فلا عجب أن أصبح الإنسان في الآخرة أعمى، لأنه كان في الدنيا أعمى لا يرى إلا صوراً وهذه الصور التي كان يراها في الدنيا قد عادت إلى حقائقها، وبما أن نفسه لم تعقل في الحياة الدنيا إلاَّ تلك الصور، وبما أنه في الآخرة ليس له نور ليرى حقائقها، فإنه يظل كما كان في الدنيا أعمى.

إن كل نفس ـ كما ألمحنا ـ تحيط بجسدها يوم القيامة، مضافاً إليه جمال النفس المغمورة بالكمال الإلَهي، أو بقبحها إذا كان من أصحاب الجحيم. ولذا فإن مقياس الجمال يصبح هيئة النفس اللابسة الجسد بعكس ما كانت عليه في الحياة الدنيا.

* * *

---

١ – سورة الإسراء: الآية (٧٢)

توقف عمل (عطالة) الفكر كان سبباً في خروج سيدنا آدم ﷺ من الجنة (أي من جنة إلى جنات)

إن الفكر يتعطَّل في الآخرة لأن استعماله كان للدنيا فقط، فالنفس كانت تستخدمه لأغراضها الدنيوية.

وهذا الفكر يظل خاملاً إن لم تسخِّره النفس في حل مشاكلها، أما إذا توجَّهت نحوه وسلَّطت أشعتها عليه فإنه سرعان ما يفكك لها الأمور التي تريد بحثها، ليُريها ما هي بحاجة إليه.

وفي الآخرة تبقى عملية التذكُّر للأعمال التي قام بها الإنسان في الحياة الدنيا عن طريق الملائكة، يذكِّرونه بين الحين والحين بأمر من الله إليهم، أما هو فلا يتذكَّر من أعماله شيئاً، وحينما يُذكِّرونه بعمل من أعماله الصالحة يُقبل على الله بهذا العمل ويرقى إلى سرور وجمال أعلى. أي: إلى جنَّة أعلى، وهكذا.

{... وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ} (١)

فالأعمال هي التي ترفعه في الدنيا والآخرة إن كانت صالحة وهي التي تدنِّيه إن كانت متدنية.

وهذه الجنَّة التي ارتقى إليها تنعكس على ما دونها من الخيرات من مأكل ومشرب وغير ذلك حينما يتذوقها مباشرة وبدون حجاب فَيُسَرّ بها أيضاً. وهكذا كلما قضى المؤمن من جنَّته وطراً ذكَّره تعالى بعمل صالح آخر فينتقل عندئذ من هذه الجنَّة إلى جنَّة أعلى، وبما أن الله سبحانه ليس له نهاية فإن الجنَّات التي يرتقي إليها المؤمن ليس لها نهاية، وقد يتكرَّر نفس العمل، ومع ذلك فإن الإنسان يراه جديداً بسبب فقدانه لآلية التذكُّر. أما لو بقي فكره كما هو فإن

---

١ - سورة الرعد: الآية (٢٣).

الإنسان في الجنَّة قد يتذكَّر بعض الأعمال السيئة التي قام بها في الحياة الدنيا فينحجب عن الله ويفقد جنَّته، وهذا ما كان عليه حال أبينا آدم عليه السلام عندما كان في الجنَّة. فلما تلقَّى الوصية، أي: الأمر من ربِّ العالمين بألاَّ يقرب هذه الشجرة كان في حالة لا تسمح له أن يتذكَّر. ولمَّا أكل من مادتها تراجعت نفسه إلى جسده، أي: تبعت مادة الشجرة بعد ما كانت خارجة لتتذوَّق ثمرتها، واستقرَّت فيه وأصبحت تتصل بالكون عن طريق الحواس الخمس، وبدأ الجسد يعمل لتنفيذ رغباتها وتصريف ما أكله، فعمل جهاز الهضم لإخراج فضلات ما أكل، والجهاز العصبي للتسيير والأمر، والمخ لتحليل مشاكلها.. الخ. وعندئذ تذكَّر سيدنا آدم عليه السلام وصية ربّه التي كان قد نسيها عندما أكل من الشجرة.

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} (١)

لقد تذكَّر سيدنا آدم عليه السلام وصية ربّه عندما خاطبه تعالى . وبعد أن تكوَّنت عنده آلية الفكر . بكلمات بيَّن له فيها أنه لم يخالف أوامره بملكه لأنه كان في حالة من النسيان وخروجه إنما كان بإرادته تعالى وتدبير منه ليبيِّن له ولذريته من بعده عدوّه الحقيقي، كما أعلمه تعالى بأنه على علم بنيَّته العالية، إذ كان يحسب بأنَّ أكله من الشجرة سيُخلِّده في النظر إلى جمال وجه الله الكريم المتعالي وأن نسيانه للأمر الإلَهي لم يكن بملْكه ولا اختياره، إذ كان بحالٍ نفسي مجرَّد وكانت السيطرة الكليَّة للنفس وكان الجسد داخلها معطَّلاً وأجهزته بما فيها الذاكرة معطَّلة، فلا مفرَّ ولا مخلص من النسيان وهو الأمر الطبيعي وأنه ما جعل الله تعالى من ترتيب وأَمَره أمراً لا يستطيع تنفيذه إلاَّ ليتبيَّن عظيم حبّه لربِّه وتتكشف عداوة الشيطان بغروره.

---

١ - سورة طه: الآية (١١٥).

فلما تلقى آدم عليه السلام كلمات سيتم تفصيلها وعلم غاية رب العالمين أقبل عليه ثانية فتاب عليه. أي محى من نفسه هذا الظن. وهو التوَّاب الرحيم.

وهذا ما يدلُّنا على أنَّ ما أقدم عليه سيدنا آدم عليه السلام وزوجه إنما كان بنيَّة عالية لأن الشيطان أقسم لهما بأن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين إن هما أكلا من هذه الشجرة، وبما أن هذا النبي ﷺ لا يعرف الكذب فصدَّق قول الشيطان، ونسي وصية الله له.

{... رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...} [1]

قال ﷺ : «**رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» [2]

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}:

هذه الأُسَر اصطفاهم تعالى على العالمين ليُرشدوا الخلْق إلى الله.

كيف هذا الاصطفاء!. بيَّن تعالى في سورة آل عمران[3] :

{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}: كلهم في الأصل واحد: كلهم أولاد آدم، لكن، **{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**: ما اصطفاهم جزافاً، بل إنه سميع: لقولهم، عليم: بحالهم ونيَّتهم. كلامهم عال وحالهم عالٍ لذلك اصطفاهم: "إن كان كلامك عالياً ونيَّتك عالية أعطاك".

فكل من تكلَّم بحق الأنبياء معناه أنه ينفي كلمة **{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**، فكأن الله تعالى لا علم له بآدم عليه السلام حتى اصطفاه؛ وهذا غير صحيح.

الله تعالى اصطفاهم لعلوِّ نفوسهم وكمالهم، المرشد يجب أن يكون كاملاً. فمن يتكلَّم بحق الأنبياء معناه أنه لا إيمان عنده، ولو حصل عنده إيمان بأن الله

---

١ – سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

٢ الجامع الصغير: /٤٤٨٦/ (طب). عن ثوبان.

٣ الآية (٣٣-٣٤)

سميع عليم لما تكلَّم سوءاً بحق رسل الله، لأن الله سميع بكل مخلوق عليم بحاله: اصطفاهم لطهارتهم وعلوِّ نيَّتهم.

هذا وإن عدنا إلى حديث رسول الله ﷺ بهذا الخصوص وهو الذي لا ينطق عن الهوى لسمعنا قوله السامي، إذ يقول:

«أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلاَّ تحت لوائي، وأنا أوَّلُ شافع، ولا فخر» (١)

ولفهمنا بأن آدم عليه السلام هو الثاني في الترتيب من حيث العلوّ والسمو والمكانة العليَّة فوق جميع الأنبياء والمرسلين ودون سيد الخلْق محمد ﷺ ، والنبيون بالمنزلة دونه فهو كمن دونه من السادة الأنبياء البررة معصوم عن الخطأ في الصغائر والكبائر وعن المخالفة والعصيان لقوله تعالى عن النبيين جمعاً:

{... بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} (٢)

---

١ الجامع الصغير (٢٧٠٨) (حم ت ٥) عن أبي سعيد {صحيح}.

٢ – سورة الأنبياء: الآية (٢٦-٢٧).[لقد جاء في التفاسير: أن الذين لا يسبقونه بالقول من الآية الكريمة: **{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}** هم الملائكة، أما الحقيقة فإن الذين لا يسبقونه بالقول في هذه الآية هم الرسل الكرام صلوات الله عليهم، كما لا ننكر أن الملائكة أيضاً لا يسبقونه بالقول.

ودليلنا على صحة ما ذهبنا إليه هو: مسرى الآيات، كذلك فإن السورة التي وردت فيها هذه الآية الكريمة هي – سورة الأنبياء والآيات تدور حول أعمالهم. والآن لننظر إلى الآيات التي تسبق تلك الآية ثم الآيات التي تليها.

قال تعالى: **{ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِليهِ أَنَّهُ لاَ إِلَه إلاَّ أنا فَاعْبُدُونِ، وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَه} وهذا ادِّعاء اليهود والنصارى {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون، لاَ**

وهو الرسول النبي الأول بالخلق وقد خاطبه تعالى بقوله الكريم عن الملائكة **(أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ)**، فهو نبي وهو رسول الله إلى الجن المكلَّفين وإلى الملائكة الكرام أجمعين، والإنس بدءاً من ذرِّيته الكريمة. ونتابع القول لقصة سيدنا آدم عليه السلام ومخاطبة الشيطان له.

قال تعالى: **{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}** (١)

يتضح لنا من هذه الآية أن إبليس كان قريباً من سيدنا آدم عليه السلام عندما كلَّمه ووسوس له، ونحن نعلم أن إبليس كان مطروداً من الجنَّة، فقد أُخرج منها عندما خلق الله سيدنا آدم عليه السلام، ولما طلب منه ومن الملائكة السجود له أبى هو وسجدت الملائكة.

قال تعالى: **{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}** (٢)

أما سيدنا آدم عليه السلام وزوجه فقد أبقاهما الله فيها فقال: **{وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}**(١)

يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ ولاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}.

١ - سورة الأعراف: الآية (٢٠-٢١).

٢ - سورة الأعراف: الآية (١٢-١٣).

والسؤال هو: كيف استطاع إبليس أن يكلِّم سيدنا آدم عليه السلام وزوجه وهو مطرود خارج نطاق الجنَّة؟.

فهل عساه تسلق أحد أسوار الجنَّة وخاطبهما من فوقه، إذ ليس بإمكانه الدخول إليهما بسبب الحرس الموجودين على أبوابها من الملائكة؟. لذا فالجنَّة ليست هي كما يزعم بعض المفسِّرين وإنما كما أوردنا.

لقد استطاع إبليس أن يغرِّر بآدم وزوجه عندما أتاهما ناصحاً وأقسم لهما أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين إن أكلا من الشجرة، عند ذلك ظنا بأنه يريد نصحهما فصدَّقاه لأنهما لا يعرفان الكذب ولا الخداع، ولا اليمين الكاذب.

أجل لقد استطاع إبليس أن يوسوس لهما عن بُعد، وجاءهما عن أيمانهما[٢] لا عن شمائلهما فأكلا من الشجرة وبدت لهما سوءاتهما فتذكَّر عندئذ سيدنا آدم عليه السلام وصية ربّه بعد أن اشتغلت لديه آلية الدماغ وبعد أن خاطبه ربُّه مذكِّراً إيَّاه بالوصية فظنَّ سيدنا آدم عليه السلام بأنه ظلم نفسه.

---

١ - سورة الأعراف: الآية (١٩).

٢- الأيمان: اسم جمع لليمين وهي مشتقة من اليمن والبركة والخير، أي: جاء الشيطان سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام عن طريق يحسبانه خيراً ويمناً لهما، إذ أغراهما بأنهما سيصبحان ملكين يملِّكان نفسيهما لله أو يكونان خالدين بالنظر إلى وجهه الكريم.

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...}:

لقد ظنَّ سيدنا آدم أنه عصى ربَّه عندما ذكَّره تعالى بنهيه عن الشجرة، لأنه كان يجهل المراد والحكمة التي أُخرج من أجلها إلى الدنيا، ولكنه تلقَّى منه تعالى كلمات وهذه الكلمات هي:

١. إن خروجه من الجنَّة ما تم لولا إرادة الله السابقة:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).

٢. إن خروجه عن طريق إبليس لم يكن بملكه لأنه كان في حالة لا تسمح له بالتذكُّر:

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً}: على المخالفة والمعصية.

٣. لقد كانت استجابة آدم عليه السلام لإبليس ناجمة عن حبّه الشديد لربِّه ونيته العالية لأنه ظنَّ بأن أكله منها سيمكِّنه من الخلود الأبدي بالنظر لوجه الله الكريم والطمأنينة به تعالى والأمن والأمان . أي: سيخلد إلى حضرة الله كما يخلد الطفل إلى حضن أمه الرحيمة الحنونة.

٤. إن ما ورد في سورة طه من قوله تعالى:

{... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى؟!!.} [١]

إنما جاء هذا القول على صيغة الاستفهام الاستنكاري وذلك على ما دسَّته الكفرة من اليهود وصادق عليه المنحرفون من النصارى من نسب المعصية لأبيهم سيدنا آدم عليه السلام. إذ هل من المعقول أن يعصي المرء ربَّه ثم يكافأ بأن يجتبيه ربُّه جزاء عصيانه وغوايته ويجعله نبياً؟!!.

---

١ – سورة طه: الآية (١٢١–١٢٢).

٥. قد بيَّن له تعالى عدوه الحقيقي ليحذِّره هو وذريته من بعده من هذا المخلوق الذي أكل الحسد قلبه وملأ الغيظ نفسه. فلما عرف غاية رب العالمين اطمأن لذلك وأقبل ثانية فتاب عليه إنه هو التوَّاب الرحيم.

فقال بعدئذ: **{قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}** كانا بلا عمل ولا تعب: أن اهبطوا للعمل والسعي **{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** الشيطان عادى ويُعادي الإنسان، وللهبوط أجل بحياة الإنسان ثم انقضاؤها.

هذه الآية تشير إلى ما ألمحنا إليه قبل قليل أن إبليس كان في الجنَّة، إذ كان حاضراً متواجداً مع سيدنا آدم ﵇ عندما سجد له الملائكة وانغمر بالنعيم القلبي المقيم والسعادة الغامرة التي يفيضها ربُّ العالمين على خليفته لتنهال على الموجودين حوله ومنهم إبليس كي يخضعوا لسيدنا آدم ﵇ فيبقى لهم هذا الخير العميم المتزايد أبد الآباد بلا حدٍّ ولا انتهاء.

ومن هنا نستدل أن طرد إبليس من الجنَّة عندما امتنع عن السجود لآدم لا يعني ذلك طرداً مكانياً إنما كان معنوياً نفسياً بالحقيقة لا بالصورة. لقد تأكَّد إبليس الآن وبشكل عملي بأنه أصبح مطروداً من نعيم التجلِّي مثلما كان مقطوعاً من قبل لأنه كان من الكافرين.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

إلاَّ أنه كان يظن بأنه من المؤمنين وأنه للجنَّة أهل، وهذا حال الكثير من الناس الذين يعتقدون أنهم مؤمنون وهم بالواقع كاذبون، ولكن الله لا يخدعهم كما لم يخدع إبليس من قبل فهو سبحانه يسوق لهم من الفتن ليكشف لهم حقيقة إيمانهم لعلَّهم يغيِّروا وجهتهم:

{الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [١]

أما الهبوط في هذه الآية: **{.. اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}**.

فهو إخراجهم من الحالة التي كانوا عليها وتواجدهم في الأرض إلى حين حسبما أراد ربُّ العالمين، وللغاية التي خلقنا من أجلها ومن هذه الآيات يتبيَّن لنا بأن الجنَّة يختلف مفهومها عن المفهوم السائد لدى معظم الناس.

إن هذه الطريقة التي أخرج الله بها سيدنا آدم عليه السلام هي موعظة لنكون حذرين من هذا العدو الماكر الخبيث والمتكبِّر الملازم لنا. قال تعالى:

{يابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [٢]

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[٣]

ولكي لا نقع بنفس الشرك **(المصيدة)** الذي حاول إيقاع أبينا آدم عليه السلام فيه وفشل، رتَّب لنا تعالى إخراجه على هذه الطريقة لنكون حذرين وعلى بينة من عدونا إبليس وألاعيبه لئلا نكون من أصحاب السعير.

وهذه ناحية من مغزى إخراج سيدنا آدم عليه السلام من الجنَّة، فالله سبحانه وتعالى قضى بإخراجنا إلى الدنيا من قبل عندما قال للملائكة:

---

١ - سورة العنكبوت: الآية (١-٣).

٢ - سورة الأعراف: الآية (٢٧).

٣ - سورة الأعراف: الآية (١٦-١٧).

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).

فالإرادة حاصلة ولكن طريقة تنفيذها تمت على النحو الذي بيَّناه سابقاً. فالنصارى إذن مخطئون بادعائهم أن السيد المسيح ﵇ جاء ليكفِّر الخطيئة الأصلية . أي: خطيئة آدم ﵇ . فسيدنا آدم ﵇ لم يخطئ ولم يعصِ ربَّه. إنها ليست خطيئة ولكن خروجه من الجنَّة إنما كان ليعده سبحانه لمنصب عال ومقام عظيم مما جعل الحسد يأكل قلب إبليس. ومما جعل الملائكة أيضاً تطمع في بادئ الأمر بهذا المنصب.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

وهذا دليل آخر، فالملائكة ما اعترضت اعتراضاً على الله، لكنها تطلَّبت نوال هذا المنصب السامي والمقام العالي لها والذي أراده الله لهذا المخلوق، وأرادته لنفسها وهي التي تسبحه ليل نهار وتقدِّس له. وكان طلبها مستنداً على أن الجن من قبل [١] لما أُهِّلت لهذا المقام أخذت تُفسد في الأرض وتسفك الدماء. ولكن الله أعلم بمن خلق، وأقام الحجة ببرهان عملي، فلمَّا تبيَّن لهم خطأ رأيهم وعلموا أن ليست لديهم أهلية للخلافة كأهلية سيدنا آدم العظيم، سجدوا له ومن ربِّهم طالبين زيادة العطاء.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ

---

١ –قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}** الحجر(٢٦-٢٧).

تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ..}

أي: يا آدم تكلَّم عن أسمائي الحسنى التي شرحوها وتكلَّموا عنها.

{فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}:

فلما بيَّن آدم عليه السلام بيانه وتكلَّم عن أسماء الله الحسنى التي شرحوها فبيَّن ما ينطوي فيها من كمالات الله تعالى على حسب إقباله العظيم كلاماً سبق به الملائكة أجمعين فظهر تفوقه عليهم، كما سبق وعرضنا من قبل.

لقد أصبح للملائكة بعد هذا البرهان العملي قناعة كافية بعلم سيدنا آدم عليه السلام فسجدوا له لما رأوا من علم هذا الرسول العظيم. والسجود هنا هو الخضوع النفسي، فالإنسان إذا علم وتحقَّق من أن هذا الشخص أو ذاك يفوقه بعلمه فإنه يخضع له ويستمع له. اللهمَّ إلاَّ إذا أخذته العزة بالإثم والتجبُّر بغير الحق، كإبليس تماماً عندما أيقن بأن سيدنا آدم عليه السلام يفوقه علماً بالله وحبّاً له لم يلتفت إلى سيدنا آدم وإنما التفت إلى أصله، وهذا حال الكثير من الناس البعيدين عن الله والذين اتَّخذوا الشياطين أولياء لا يقبلون نصيحة من دونهم في النسب أو الشهرة ولو فاقهم علماً، لذلك لمَّا أمره الله سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام أبى أن يخضع له ويستمع إليه، واعْتقد بأنه أعلى منه لا بعلمه ولكن بأصله.

وكذلك رأى أن آدم عليه السلام جاء ليزاحمه على هذا المنصب الجليل الذي ظنَّ أنه هو أحق به وأهله، فدخل ما دخل في نفسه من الحسد من سيدنا آدم عليه السلام وذريته من بعده. ومن هنا جاءت العداوة، وأقسم ليغوينهم أجمعين إلاَّ عباد الله المخلَصين، وليقعدنَّ لهم الصراط المستقيم.

ولما رأى ربُّ العالمين منه هذا الإصرار أراد أن يحذِّر الإنسان من هذا العدو الماكر الخبيث، فأخرج الله لهم أباهم من الجنَّة على النحو الذي بيَّناه آنفاً.

وإبليس هو من الجن وليس كما يدَّعي الناس بأن إبليس كان من الملائكة. قال تعالى:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (١)

فكلمة "إِبْلِيسَ" هي صفة من صفاته لأنه أبلس عليه الأمر وكان من الكافرين فلم يعد يميِّز بين خيره من شرّه، فطغى وبغى وأفسد في الأرض، وسفكت الجن الفاسدة دماء بعضها، كما أن الشيطان لقب كل كافر من الإنس والجن وهذا حال من يبتعد عن الله ويكون الشيطان له ولياً فإن فعله لا يختلف عن فعل وليه.

وكذلك اليهود أخطأوا عندما أوَّلوا خروج سيدنا آدم عليه السلام من الجنَّة فقالوا إنما كان من غضب الرب عندما أكل من شجرة المعرفة، وتحسَّب الرب من أن يستدل على شجرة الحياة (٢) ، فإذا ما أكل منها فإنه لا يموت بعدئذ.

وشجرة الحياة هذه هي التي ذُكرت في القرآن بشجرة الخلد، والخلد هو الخلود إلى الله، ودوام النعيم به، ولكن نيَّة إبليس كانت تختلف عن نيّة سيدنا آدم، فآدم عليه السلام لا يريد أن يتحوَّل عن هذه الحالة التي هو فيها، أما إبليس فهو يعلم بأن أكله من هذه الشجرة . أي المادة . ستُبعده عن الحالة التي هو فيها، وليُثبت أن

---

١ – سورة الكهف: الآية (٥٠).

٢– انظر إلى الاصحاح الثالث من سفر التكوين.

آدم قد يعصي ربَّه، ولكن لا يحيق المكر السيء إلاَّ بأهله، فسيدنا آدم عليه السلام قد أصبحت له بدل الجنَّة جنَّات وإبليس في الشقاء يعيش، والنار مثوى له.

ونعود الآن إلى إتمام قصة سيدنا آدم عليه السلام وما انطوت عليه نفسه العالية من الحبِّ الشديد لخالقه كما ظهرت إلى جانب ذلك عداوة الشيطان لبني آدم الذين يريد الله تعالى أن يُخرجهم إلى هذه الدنيا، عندئذ صدرت الإرادة الإلَٰهية بهبوط الإنسان إلى دار السعي والعمل، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً}:

أي: اهبطوا من ذلك الحال الأول إلى هذه الدنيا حيث تتبارى الأنفس بسعيها وعملها.

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}:

وتشير كلمة **(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً)** إلى أن الله تعالى وعد هذا النوع البشري منذ خروجه إلى هذه الدنيا بأنه سيرسل لهم قانوناً يبيِّن لهم الطريق التي يجب أن يسلكوها.

كما تشير كلمة **(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)** إلى أن الذي يتبع هذا القانون الإلَٰهي يعيش في هذه الحياة الدنيا في مأمن من الشيطان فلا خوف عليه من مكائده ومكره ولا خوف عليه من المصائب والأوصاب والآلام، بل إنما يعيش في اطمئنان وسعادة وسلام.

أما كلمة **(وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** فهي تبيِّن لنا أن الذي يتَّبع ذلك القانون الإلَٰهي انما يكتسب عمره الثمين بما يعود عليه غداً بالسعادة والخير، فإذا وافاه الأجل وانتهت به مرحلة الحياة وجد نفسه قد قام في هذه الدنيا بما خُلِقَ من أجله من اكتساب صالح الأعمال والتزوُّد من دار الفناء إلى دار البقاء.

فهو لا يحزن على فراق الدنيا، إذ وجد ما هو خيرٌ منها وهو لا يحزن على تلك الحياة والعمر الثمين لأنه قد قضاه بما يعود عليه بالخيرات التصاعدية العليّة.

أما وقد عرَّفنا تعالى بأنه سيرسل لنا قانوناً وأن في اتِّباع هذا القانون يجد الإنسان السعادة والسلام، فهل بحثت أيها الإنسان عن هذا القانون الذي فيه سعادتك واهتديت إليه؟. أم تريد أن تضع لنفسك قانوناً من عندك ظنّاً منك أنك إنما وُجدت في الدنيا صدفة وأنك تعيش فيها مهملاً، فلم تُنظِّمك يد ولم تُشرف عليك عين.. ألم تكن نطفة من ماء مهين؟. ألم تكن نطفة من مني يمنى؟. ألم يأتِ عليك حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً؟. من الذي خلقك من نطفة أمشاج وجعلك سميعاً بصيراً؟. من الذي جعل لك عينين ولساناً وشفتين وهداك النجدين؟. أفيقبل فكرك وجود شيء منظَّم دون أن يكون له موجد منظِّم؟. أفتكون تربية كاملة شاملة بدون مرتِّب؟. أفتكون تربية مبنية على أنظمة وسنن ثابتة دون أن يكون لها رب بصير مهيمن؟. هلاَّ نظرت إلى الجبال وشاهدت نفسك عظمتها وعلمت من الذي كساها بهذه العظمة كم هو تعالى عظيم؟. هلاَّ نظرت إلى البحار والأنهار؟. ما هذه الأقاليم المختلفة والأقطار؟. ما هذه الثلوج والأمطار؟. ما هذه الرياح والغيوم؟. ما هذه الرعود والبروق؟. ما هذه الأنظمة التي تتأمَّن معها أرزاق ما على الأرض من أحياء؟. ما هذه الشمس والقمر؟. ما هذا الليل والنهار؟. ما هذه الشهور والأيام؟. ما هذه الأوقات والساعات؟. ما هذه النجوم اللامعات؟. هل هي رتَّبت ونظَّمت ذاتها بذاتها، هل هي ذوات عاقلات خلقت نفسها وأمدَّت ذاتها بنفسها؟. ما هذا الكون اللامتناهي بما فيه من آيات عظيمات؟. أليس هذا الكون كله نسيج وله خالق خلقه، ومربٍّ يربّيه و إلَه يسيّره على هذا النظام البديع؟.

وإذا كنت ترى هذا الكون كله قائماً على نظام وسائراً ضمن الكمال والدقة وكنت تقول وكل من عنده ذرَّة من تفكير يقول:

لا بد لهذا النظام من منظِّم ولهذا الكون من ربٍّ عظيم مسيِّر، فهل بحثت ودقَّقت وصدقت حتى اكتشفت وجوده العظيم!. فهل من المعقول أن ينظِّم الخالق العظيم الكون كله ويجعله جميعه قائماً على أبدع نظام ويدعك أنت أيها الإنسان مُهملاً تهيم في هذه الحياة على وجهك دون أن يضع لك نظاماً كما وضع لسائر المخلوقات؟. لا بد أنك إذا فكَّرت هذا التفكير تقرُّ معترفاً بأن هذا الخالق العظيم الذي جعل الكون كله يسير وفق أنظمة وسنن ثابتة إنما وضع لك نظاماً يصل بك إلى السعادة في الدنيا والآخرة ويجعلك تحيا فيهما حياة طيبة، فهل فكَّرت في الوصول إلى هذا النظام؟. وهل بحثت عنه واهتديت إليه؟. أم أنك لحقت الدنيا وأخلدت إلى الأرض فوقعت فيما وقعت فيه من مصائب وأحزان وآلام؟.

أوليست هذه الأحزان والمصائب والآلام دوافع تدفعك إلى التفكير ومذكِّرات تذكِّرك بأنك منحرف عن الصراط السوي الذي شرعه لك ربُّ العالمين؟.

هل من المنطق الصحيح وهل يقرُّ الفكر السليم بأن الإلّه الذي خلقك وخلق الكون كله وسخَّر لك جميع ما فيه لا يريد لك السعادة وليس برحيم بك عطوف عليك؟.

الكون كله يشهد لك بعناية خالقك بك وعطفه عليك وهذه الشدائد والمصائب دلائل ناطقة تريد أن تعرِّفك بانحرافك عن ذلك النظام الذي وضعه لك خالقك، فاصدق في البحث عنه تهتدي إليه وطبِّق تعاليمه تخلص ممَّا أنت فيه، وإنك إذا فكَّرت في آية واحدة من آيات هذا الكون، وإذا أنت فكَّرت في نفسك أو أي عضو من أعضائك فلا بد أنك تهتدي إلى هذا الإلّه العظيم. فإذا أنت عرفته

تعالى وخشعت نفسك إليه فهنالك تستطيع أن تعرف هذا النظام وتهتدي إليه، قال تعالى: **{... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ...}** [1]

{... وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [2]

ذلك كله إنما توحيه لنا آية:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ): على الماضي، يرى هذا الحال الذي صار إليه من العمل والسعي للقرب خير من حال آدم الأول ﷺ حيث لم يكن له عمل فلا يحزن.

ولعلَّك تقول: أطلت الكلام في البحث عن التفكير في آيات الله وتوسَّعت في الشرح في هذه الناحية لمَّا تصدَّيت في الكلام عن النظام الذي وضعه الله تعالى لهذا الإنسان فنقول:

إن التفكير في آيات الله هو أصل الإيمان وهو نقطة الانطلاق لدى كل من شغفه حب الحقيقة وأهمَّه أمر نفسه فغدا يبحث عن الطريق التي تصل به إلى السعادة وتباعده عن الشقاء. وقد بيَّن لنا تعالى هذه الناحية في قوله الكريم:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

وهكذا فالتفكير في آيات الله حسبما بيَّنته هذه الآية الكريمة إنما هو الأصل الذي يرتكز عليه الإيمان. والتكذيب بهذه الآيات، وإن شئت فقل عدم الاكتراث بها وعدم الالتفات إليها إنما يجعل الإنسان في عمى عن الحقيقة. فمهما حدَّثته عن الدين وكماله من حيث نواحيه الاجتماعية والاقتصادية أو الصحية، وأنه يضمن للبشرية سعادتها ويكفل لها الخير والرخاء، ومهما حدَّثته عن الله تعالى

---

١ – سورة التغابن: الآية (١١).

٢ – سورة آل عمران: الآية (١٠١).

وعدالته ورحمته ورأفته وحنانه على عباده، ومهما أتيته بالمعجزات وخوارق العادات، ذلك كله لا يؤثِّر في نفسه قليلاً ولا كثيراً إذا هو لم يُعمل تفكيره وينظر في آيات هذا الكون طالباً من وراء نظراته وتفكيره الوصول إلى الحقيقة، تلك الحقيقة التي شغف الوصول إليها نفس سيدنا إبراهيم ﷺ وسائر المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين الصادقين.. ألا وهي معرفة المربِّي، المربِّي الذي له خلق الكون، فكل ما في الكون قائم به، سائر بأمره ساجد له مفتقر إليه.

وقد وضَّح لنا تعالى هذه الناحية في مواضع عديدة من القرآن الكريم فقال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (١)

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} (٢)

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا}: دُعي واستكبر كما استكبر إبليس.

دعا الله تعالى الخلْق عامَّةً ولكل إنسان مَلَك يناديه وهنالك رسل وأهل إرشاد، كما أعطي الإنسان أهلية تامَّة للتفكير، فهؤلاء الذين دُعوا فما فكَّروا وما عبأوا ولم يستعظموا فما عرفوا شيئاً عنها، استكبروا عن النظر **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ}** معنى التكذيب عدم الاستدلال بها على لا إله إلا الله. صار للغربيين علم بالقمر وبالشمس لكنهم لم يعقبوها فما استدلوا بها.

وقد لفت الرسل نظر الإنسان إلى نفسه وإلى الكون وطلبوا منه التفكير، لكن أُناساً أعرضوا واستكبروا، فهؤلاء **{لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ}** لا يحصل لهم

---

١ – سورة النحل: الآية (١٠٤).

٢ – سورة الأعراف: الآية (٤٠).

السمو النفسي، إذ لم يحصل لهم إقبال على الله فلم يشتقُّوا الكمال من الله، بل تبقى نفوسهم منحطة فليس لهم عمل عالٍ.

{وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}:

شبَّه تعالى المعرض بالجمل، جثة كبيرة لكن خالية من التفكير. فأهل الكبر كالجمل عقله خفيف على كبر جثته. إن لم يعرفوا خالقهم ويعرفوا أنفسهم ليخلصوا من الكبر فلا يمكن لهم الدخول على الله. فيجب على الإنسان أن يفكِّر إلى أن يستدلَّ، فتتصاغر النفس الكبيرة وتعرف أصلها وتعرف مربِّيها ونهايتها: عندها تستسلم لله: وذلك هو المسلم. **{فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}:** فالمتكبر كالجمل لا فكر لديه فإن لم يتنازل عن كبره ويتفكَّر حتى يرى ضعفه مُذ كان نطفة فلن يدخل الجنَّة.

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}: المجرم هذا جزاؤه، هذا الذي لا يفكِّر لا خير فيه أبداً، خيره زال، الخير كله من الله.

كل من أقبل على الله نال من الكمال بقدر إقباله: إن لم يؤمن بلا إلَه إلا الله فلن ينال الإقبال.

وملخَّص القول: أنَّه لا يمكن لهؤلاء المستكبرين عن النظر في آيات الكون أن تُفتَّح لهم أبواب السماء ولا يمكن لهم أن يدخلوا الجنَّة ما لم يتنازلوا عن كبرهم وتدخل نفوسهم التي ترى ذاتها كالجمل في كبرها وعنفوانها في سمِّ الخياط من بعد رؤيتها ذاتها ومعرفتها بضعفها.

وهكذا فالقرآن الكريم طافح بأمثال هذه الآيات، وإن شئت فقل كل ما ورد فيه عن ذكر السموات والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والنباتات والأثمار وسائر المخلوقات وجميع ما ورد فيه من قصص عن الأمم السابقة وما في

قصصهم من عبر وأمثال، إن كل ذلك إلاَّ دعوة للتفكير في آيات الله. ونتوسَّع معك في البحث فنقول وحقّاً ما نقول:

ما خلق الله الإنسان على ما خلقه عليه من تركيب جسمي دقيق، وما أخرجه إلى الدنيا وفق هذا النظام البديع، وما قلَّبه من نطفة إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة، وما جعل المضغة عظاماً، وما كسا العظام لحماً، ثم جعلك إنساناً سويّاً، وما أخرجك إلى هذه الدنيا طفلاً، وما جعلك تبلغ أشدّك، ثم تكون من بعد ذلك شيخاً إلا لتفكِّر، وما جعل للموت رهبته، وللقبر ظلمته ووحشته إلاَّ لتفكِّر.

لقد كان بإمكانه تعالى أن يُخرجك إلى الدنيا طفرة واحدة وإنساناً كاملاً دون أن يقلِّبك بهذه الأطوار وينقلك من حال إلى حال وبإمكانه تعالى أن يذهب بك ويُخفيك عن الأنظار دون أن يجعل الموت سبباً لخروجك من هذه الحياة.

فهلاَّ كان لك من ذلك كله عبرة وذكرى؟. ومن اليسير عليه تعالى أن يجعل نظام حياتك بخلاف كل ما تراه. فبإمكانه تعالى ألاَّ يجعلك على ظهر الأرض وهي تدور في الفضاء حول نفسها دون انقطاع، ومن اليسير عليه تعالى أن يجعل رزقك على غير هذه الصورة وهذا النظام، فلا ضرورة لبحار ورياح ولا ضرورة لتبخُّر وسحاب، ولا ضرورة لثلوج ورعود وبرق وأمطار، ولا لنباتات وأزهار وأثمار، لكنها الرحمة الإلّهية بك والعناية والرأفة تحوطك وتحرِّضك في كل ما تشاهده وتقع عليه عينك وتحس به جوارحك وتدركه نفسك فلعلَّك تفكِّر في آيات هذا الكون وما قامت عليه من حكمة بالغة فتُهدى منها إلى الله.

فسبحانك ربِّي ما أرحمك بهذا الإنسان وما أرأفك بهذا المخلوق وما أحلمك عليه وما أوسع فضلك وإحسانك إليه، ينام وعينك ساهرة ترعاه، ويكفر بك وإحسانك متوارد عليه لا ينقطع في الليل ولا في النهار، ويعصيك ويدك مبسوطة في النهار ليتوب مُسيء الليل، ومبسوطة بالليل ليتوب مُسيء النهار، وأنت

الغني الحميد وهو الفقير إليك والمحتاج، أعددت له في الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأخرجته إلى الدنيا ليتأهَّل إلى ذلك النعيم فألهته الدنيا الدنية بمتعتها وشغلته أموالها وزينتها عن ذلك الغرض الأسمى.

فحتى متى تشتري يا إنسان دنياك بأُخراك، تبغي البقاء في هذه الدنيا ولا بقاء، وتعمِّر وتبني وتعمل في جسمك يد المرض والفناء. أفلا تستيقظ من رقدتك وتصحو قبل أن يفاجئك الموت وقد أنفقت عمرك الثمين في جمع الدرهم والدينار والقيل والقال!.

فكِّر في الموت وكفى بالموت واعظاً ومذكِّراً، وانظر في آيات هذا الكون باحثاً ومدقِّقاً وحاذر الانغماس في الدنيا فإن ذلك يصرفك عن التفكير بآيات الله، وعدم التفكير يصل بك إلى الكفر بالله.

وقد وضَّحت لك هذه الناحية الآية الكريمة التي نحن بصددها فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا): نكر فما فكَّر ولا استدلَّ، ولم يفكِّر بالآيات الدالَّة على لا إلَه إلا الله.

فذكر تعالى الكفر وبيَّن أن سببه التكذيب بالآيات، ثم بيَّن تعالى النتائج التي يصل إليها أولئك المكذِّبون فقال تعالى:

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ): إلى جهنم ومنها إلى النار.

* * *

ولعلَّك تقول: كيف يأمر الله تعالى بالكافرين والعصاة إلى النار وهو سبحانه أرحم الراحمين؟. وكيف يعذِّب الإنسان ذلك المخلوق الضعيف ورحمته تعالى وسعت كل شيء؟.

وجواباً على هذا السؤال وإيضاحاً لهذه النقطة نقول:

يظنُّ أناس أن الله تعالى إنما يعذِّب الكافرين بالنار جزاء لهم على عصيانهم ومعاقبة على كفرهم، والحقيقة إنما تغاير هذا الظن كل المغايرة، فحاشا لله وهو الخالق العظيم والرب الرؤوف الرحيم الذي خلق الإنسان وصوَّره وأوجد له كل ما في الكون وسخَّره، أن يُعامل هذا المخلوق الضعيف تلك المعاملة. والمخلوق ليس ندّاً للخالق الرحيم الكريم حتى يعتبره كندٍّ لندّ، فكماله تعالى أرفع وأسمى، ورحمته أعظم وأعلى، لكن هذا الإنسان الذي فطره الله تعالى على حب الكمال وجعل نفسه قابلة للسمو فوق سائر المخلوقات، إذا جاءه الموت ورأى أنه قد دنَّس نفسه ودسَّها في الرذيلة وغمسها في الشهوات المنحطة الدنيئة وانصرف عمَّا خُلق من أجله من العمل العالي الذي يجعله أهلاً للإقبال على الله والتمتُّع بشهود ذلك الجمال الإلَهي الذي لا يتناهى والذي دونه كل جمال أقول:

إذا رأى هذا الإنسان دناءته وانحطاطه وإجرامه وعدوانه وشاهد إلى جانب ذلك تفريطه في جنب الله وخسارته وأنه إنما قابل الإحسان والإنعام والرحمة الإلَهية والحنان باللؤم والإعراض والكفران، هنالك وفي هذه اللحظة تحرق هذا الإنسان نار الخجل والحسرة وتكاد نفسه تتقطع أسفاً وحزناً، ويمتد به ذلك الحال إلى يوم القيامة، فإذا كان البعث والنشور لم يجد لنفسه مأوى إلاَّ النار. وذلك ما عبَّرت عنه كلمة **(هُمْ)** في آية **(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)**.

نعم إنه يأوي هو بذاته إلى النار ويرتمي فيها ليغيب بألم حريقها وعذاب هذا الحريق عن عذاب نفسه المعنوي وآلامها، قال تعالى معبِّراً عن أحوال هؤلاء العصاة والكافرين بقوله الكريم:

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ} (١)

* * *

١ - سورة الأنعام: الآية (٣١).

مفـهـوم النــار

أقول: لقد خلق الله الإنسان وجاء به إلى الحياة الدنيا بمهمة عالية تصدَّى لها دون غيره من المخلوقات عن طوع وبمحض اختياره.

لقد عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأَشْفَقْنَ منها وتعرَّض لها الإنسان.

إن هذا العرض فيه من الإغراء بقدر ما فيه من المخاطر، فيه السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي، فإما أن يصبح حامل الأمانة خير البرية أو شر البرية.

وبكلمات أخرى إما الجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، أو النار وما فيها من عذاب أليم. لقد تعرَّض الإنس والجن لهذه الأمانة وتراجعت بقية المخلوقات عنها واكتفين بالقليل بدل الكثير، ورضين بالبقاء بالنعيم الأزلي الواحد وذلك بالخدمة التي يقدِّمنها لمن يحمل هذه الأمانة. ورأى الإنسان هذا العرض وما فيه من إغراء فهانت عليه الخسارة، وقَبِلَ عن طوع أن يعبد الله. إنه كان ظلوماً جهولاً؟!.

الحقيقة أنه ظلوم جهول إذا خسر عقد الرهان، ولن يكون كذلك إذا ربحه، إن الأمانة ألاَّ تنقطع عن الله وتُبقي نفسك في صلة معه عن طريق رسولك وأن تملِّكها له في الدنيا عن طوع واختيار، وبذلك تُدين لما يأمرك الله به أو ينهاك عنه بدون إكراه.

أما باقي المخلوقات فلا تملك الإرادة لعدم حملها الأمانة، فهي مسيَّرة بغريزتها وغير مؤاخذة على أفعالها في الآخرة فإن شذَّت وخرجت عن وظيفتها فإنها تنال قصاصها العادل هنا في الدنيا. وعلى سبيل المثال لا يجوز صيد الحية أو قتلها في وكرها في الجبال أو استخراجها من باطن الأرض وقتلها لأن لها وظائف عديدة بخدمة الإنسان، منها على سبيل المثال لا الحصر أنها

تقضي على فأر الحقل المهلك للقمح والزرع ومنها: حفرها لأوكارها تسمح بهذا الحفر بتمرير الماء والهواء لجذور النباتات ولها وظائف مفيدة شتّى، فلا يحقُّ قتلها في أوكارها.

{وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ...} [١]

وقتلها بأوكارها عليه قصاص وعقاب كبير عند الله، في الدنيا بلاءات وأمراض وفي الآخرة سوف تُوقف قاتلها أمام الله تعالى والرسل والملائكة والناس أجمعين والمكلَّفين وغير المكلَّفين لتسأل هذا الإنسان الذي عاهد ربَّه على الخروج لهذه الدنيا والاستئناس به تعالى فيأنس به كل مخلوق "وهذا معنى كلمة الإنسان" هنالك تسأله موبّخةً بأي ذنب قتلها، وهي إنما خُلقت لخدمته، أفيليق به، أوَ هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان؟. هنالك العار والخزي أمام كافة الخلائق.

كذلك الأسد لا يجوز تتبُّعه في الغابات المنقطعة وقتله لأنه هو والضبع والذئب وغيرهم لهم وظائف في الطبيعة بخدمة الإنسان لتؤتي الطبيعة أُكُلها لهذا الإنسان المشرَّف المكلَّف.

أما إن شذَّت الحية وخرجت عن وظيفتها ودخلت بيت إنسان أو واجهته في الطريق وخرجت عن وظائفها ففي قتلها أجر وثواب، وإن الله يحبُّ من عبدهِ المؤمن الشجاعة ولوعلى حيَّة. أي: عند خروجها عن وظيفتها. قال ﷺ :

«مَنْ قَتَلَ عصفوراً عبثاً، عجَّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا ربِّ إنَّ فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعةً»[١]. وفي رواية: **«عجَّ عصفورٌ حول العرش وله دويٌّ كدوي الرعد يقول: يا رب سل هذا الرجل لِمَ قتلني لغير مأكلةٍ».**

---

١ – سورة الإسراء: الآية (٣٣).

وكذا الأسد وكذا الضبع الذي ينظِّف وجه الطبيعة من الجيف المنتنة المليئة بالمكروب إن اعترضت طريق الإنسان فيحقُّ قتلها ولقاتلها الأجر والثواب وعمله هذا مشكور لا يُعاب، فقتلها قِصاصها، وليس لها قصاص في الآخرة ولا نار لأنها لم تحمل الأمانة والتكليف.

إن الضابط لهذه الإرادة هو الفكر، فإذا تعطَّل من إنسان تسقط عنه حرية الاختيار، أما باقي المخلوقات فتنال عقابها في الدنيا إذا أخطأت ولا فكر لها، أما بالآخرة فبنعيمها سادرة ولا تستوجب النار.

إن العمل الطوعي لا يوازيه أي عمل كان ومهما كان إذ أنه يعادل أضعاف مضاعفة من العمل القسري أو العمل المأجور. وتحصل الثقة بنفس المرء من عمله أكثر من أي عمل آخر إن كان عمله خالصاً لوجه الله لا يريد فيه جزاءاً ولا شكوراً.

فوقْع عمل الإنسان الذي يُقدم على مساعدة أخيه الإنسان دون مقابل يكون في نفسه أسمى وأعظم بكثير مما لو كانت المساعدة مشروطة.

إن الحرية لا تُباع بثمن، ونحن نتنازل عنها طوعاً وبدافع ذاتي لمن وهبنا إيَّاها إذا عرفنا حنانه ورحمته علينا وحبّه لنا عندما نلزم أنفسنا دون إكراه أن نكون عباداً له، أي: أن نتقيَّد بأوامره ونواهيه أملاً واحتساباً، وهذا التنازل أو هذه الطاعة الملزمة من ذاتنا تبعث بنا الثقة بأن الله تعالى راضٍ عنَّا فنُقبل بنفوسنا عليه ونرتشف بقلوبنا من فيض نعيمه ما يعوِّض علينا أضعاف أضعاف ما ضحَّينا به من أجله فالله يقدِّر ويشكر لنا هذا التنازل، وهذا الإلزام.

---

١ –أخرجه النسائي وابن حبَّان في صحيحه

{... فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (1)

فكم تكون ثقة الإنسان بنفسه عظيمة عندما ينفِّذ ما أمره الله به من الإحسان للخلْق والجهاد في سبيله، وإنفاق ما يحبُّه ويشتهيه، أو يبتعد عما هو محبَّب للنفس من النظر إلى النساء أو الإقبال على جمع المال، والتفاخر بما تفتخر به الناس، أو الامتناع عن ملذات الدنيا وبهجتها ولهوها، فله الجنَّة.

فالأمانة أن نكون أمناء على العهد الذي عاهدنا الله عليه من قبل أن نأتي إلى الدنيا. إن الأمانة ليست سرّاً مغلقاً لا يمكن تذكُّرها. إنها عهد قطعناه على أنفسنا بألا ننقطع عنه تعالى إذا جئنا إلى الدنيا وأن نسير بنوره تعالى عندها ننفِّذ ما أمرنا الله، وقد لا نتذكَّر إذا شغلتنا الدنيا وشغلتنا أنفسنا بشهواتها الدنيئة.

فالعاقل إذاً من استطاع أن يرى هذا العهد، فالرسل والأنبياء حافظوا على العهد من حيث يشعرون ولا يعلمون، ولكن مشاعر الصلة هذه سرعان ما تتكشف لهم حين سعيهم الجاد في البحث عن شيء يحسونه ولا يتبينوه، لذلك فهم هداة العالمين.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...} (2)

وبدونهم لا يستطيع الإنسان أن يتوصَّل إلى تحقيق العهد الذي اقتطعه على نفسه، ذلك لأنه انقطع عن ربِّه وهم لم ينقطعوا، بل بقوا شاخصين ببصيرتهم إلى جلاله وجماله محفوفين به تعالى حبّاً وهياماً. لذا فإن الرسول ينصره أهل الحق، ولا يهمهم من أي جنس كان أو في أي مكان خُلق. قال تعالى: **{... فَالَّذِينَ**

---

١ – سورة البقرة: الآية (١٥٨).

٢ – سورة الأنعام: الآية (٩٠).

آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف (١٥٧).

أما الذين تقوقعوا ضمن حدود معيَّنة ولم ينظروا إلى الحق إلاَّ من خلال مصالحهم الشخصية أو العصبية أو الدينية العمياء فهم دعاة حق مزيفين. فالحق يجب أن يناصره الإنسان ولو على نفسه وإنه لا يحد بمكان أو زمان أو جنس.

ومن الأمانة أيضاً أن نكون أمناء على ما خوَّله الله لنا به، بألا نظلمهم أو نرهقهم، ولا نكلِّفهم فوق طاقتهم، وألا نتجاوز الحدود على أي مخلوق كان، حتى الذي أساء إلينا فإننا نسيء إليه بمثل ما أساء إلينا. وإذا صفحنا عنه عن مقدرة فهو خير، وحتى الحيوانات أو الحشرات المضرّة، فلا نحاول أن نُسيء إليها إلاَّ بالقدر الذي نتخلَّص فيه من أذاها. فلا ينبغي الاعتداء عليها وهي في أوكارها إلاَّ إذا خرجت عن وظيفتها، وتجاوزت مكان هذه الوظيفة، لأن لكل مخلوق وظيفة في هذا الكون، ولم يُخلق عبثاً، وكلها مسخَّرة لنا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كما سبق وقدَّمنا.

غير أننا لا نستطيع أن نعطي الأمانة حقّها إلاَّ بمعونة ربّ العالمين لنحصل على نور نمشي به وإلاَّ تعثرنا في الظلام، وابتعدنا عن الحق، واتَّبعنا أهواءنا ونحن نظن بأننا نحسن صنعاً فإذا لم نطبِّق الأمانة قولاً وفعلاً فلن تكون لنا وجهة إلى الله، فقد يستطيع الإنسان أن يكذب على الآخرين ويغشهم ولكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه أو يغشها.

{بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [١]

---

١ – سورة القيامة: الآية (١٤–١٥).

فإذا لم تكن النفس واثقة من عملها فلن تُقبل على الله، بل تكون في حجاب عنه بهذا العمل السيء!.

{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [1]

الإنسان قد يُخفي سيئاته عن جميع الخلْق، ولكنها لا تخفى على الله، ولا تخفى على الله خافية. فكيف إذاً يستطيع أن يُقابل من أحسن إليه؟؟.

إن الإنسان مهما كانت شجاعته الأدبية أي: المعنوية النفسية لا يستطيع مقابلة من أحسن إليه وهو مسيء. ويوم القيامة عندما يرى إحسان رب العالمين له وفضله عليه وكيف كان يُقابل هذا الإحسان بالإساءة، سينكس رأسه من الذل والعار.

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} [2]

{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ} [3]

إن الله تعالى هيَّأ لنا الغذاء في بطون أمهاتنا وهيَّأ لنا ما في بطونهن لبنا سائغاً ووضع الرحمة في قلوبهن للعناية بنا فيتعبن من أجلنا لنتمتَّع ببهجة الحياة، نمرض فيسهرن على راحتنا ونجوع فيقطعن عن أفواههن لإطعامنا، فهذه الرحمة التي غمرننا بها ليست رحمتهن الذاتية، بل هي رحمة من الله أودعها في قلوبهن.

---

١ – سورة المطففين: الآية (١٤).

٢ – سورة السجدة: الآية (١٢).

٣ – سورة الشورى: الآية (٤٥).

ونتعب فيهيء الله لنا ليلاً هادئاً نسكن فيه، فيسلب إرادتنا ليُريح أجسادنا من تعب النهار، ويُعيدها إلينا لنسعى، ونكسب من فضله، سخَّر لنا كل ما ذرأ في الأرض من حيوان ونبات ومعادن.

أولا يكفي هذا لأن يكون برهاناً واضحاً على رحمته بنا، وحبه لنا، وعطفه علينا، وبعد ذلك فكيف نستطيع أن نقابل ربّ العالمين وبأي وجه إذا كنَّا نقابل هذا الإحسان بالإساءة، وهذا المعروف بالمنكر.

ما هي حجَّتنا إذا ظننا به بأنه ظالم، وغير عادل وغير رحيم؟. وكيف تكون لنا وجهة عليه إذا أسأنا لخلْقه الذين يحبهم كما يحبنا والذين سخَّرهم لأجلنا ولخدمتنا.

فكيف يجحد الناس وهذه النعم تغمرهم في كل حين!. أو كيف يكفرون وهذه الآيات بينات!. وكيف ينسون هذا الفضل إذا أصابهم مكروه!. وحتى هذا المكروه . لو علموا . فإنه خير لهم ليوقظهم من غفلتهم، وليردَّهم عن غيِّهم، وفوق ذلك ما جاء إلاَّ نتيجة ما كسبت أيديهم ويعفو عن كثير.

فيوم القيامة عندما يرى الإنسان هذه الخسارة . خسارة الجنَّة وما فيها من نعيم بمشاهدة وجه الله تعالى وخسارة المقام العالي الذي رُشِّح له هذا الإنسان وإذ به يهبط إلى أدنى المخلوقات، إنها لخسارة عظيمة تفوق الجبال قد ضيَّعها بشيء زهيد من حطام الدنيا وزخارفها بأيام معدودات، هناك الحسرة والندامة على ما فرَّط فيها، وقدم على الله بثوب وسخ يحمل فيه الحيَّات والعقارب بدل الهدايا الثمينة من إنقاذ عباده ورحمتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ليبيضَّ وجهه ويُقبل عليه تعالى فينال بقربه الهناء والسرور والجنَّات العُلى، بل إنه ليحمل الصدف دون اللآلئ والعرض بدل الجواهر، أجل هناك الحسرة والندم وهناك

عض البنان، ولات ساعة مندمٍ.. لقد انقضى كل شيء، وظهرت نتائج الامتحان.

{... سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [١]

أجل فلا يلومن الإنسان إلاَّ نفسه، لقد قُضي الأمر وانتهى كل شيء، فلا أمل ولا رجاء فما أصعب العيش بعد فقدان الأمل.

لقد خسر الكافرون أهليهم وأصحابهم وكل أنيس، وهم في شغل شاغل عما حولهم يتوارون عن الناس من لباسهم الملطخ بالرذيلة، وخسر هؤلاء أنفسهم لأنهم حرموها مما أُخفي لهم من قرة أعين، ومن مقامهم السامي.

{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [٢]

فهؤلاء الذين فقدوا كل شيء حتى الأمل، فأي شيء يُنسيهم حالتهم التي هم فيها غير النار؟. فرحمة منه تعالى وحتى لا يتركهم في هذا الشقاء وهذا الألم وهذا الخزي يسلِّط عليهم مطلبهم من النار بالقدر الذي ينسيهم هذا الألم النفسي الشديد، فكل إنسان يكون عذابه بحسب شدة كفره وشدة إنكاره، ولذا فتكون النار بمقدار ما يسكِّن عليه هذا العذاب.

---

١ – سورة إبراهيم: الآية (٢١–٢٢).

٢ – سورة الزمر: الآية (١٥).

{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}[١]

«إنَّ العارَ ليلزمُ المرءِ يوم القيامة حتى يقول: يا رب لإرسالكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدَّة العذابِ» [٢]

قال تعالى: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}** [٣]

{... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [٤] لأن هذا العلاج . أي النار . خير ما يناسبهم في حالهم النفسي المرعب هذا.

واستناداً على ما بيَّنه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الآنف الذكر فإن النار تصبح بمثابة مشفى للمجرمين المتألمين يطلبونها هم ليسكِّنوا آلامهم النفسية المبرحة من غير أن يُكرههم تعالى عليها:

{يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ، وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [٥]

{يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}: لقد خسر هذا المسكين حياته وأضاع عمره الثمين سدى، وانقضت تلك الفترة التي كان يستطيع أن يكتسب فيها الخيرات فيُقبل بها بوجه أبيض على خالق الكائنات وينال المكرمات فلا فائدة له من الحسرة وأنه ليندم أشد الندم، ويتقطَّع قلبه حسرة، إذ يرى أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة غير أنه خسرها وما قدَّم لها شيئاً.

---

١ – سورة الذاريات: الآية (١٣–١٤).

٢– الجامع الصغير /٢٠٧٤/ (ك) عن جابر (ح).

٣ – سورة البقرة: الآية (١٧٥).

٤ – سورة يونس: الآية (١٠).

٥ – سورة الفجر: الآية (٢٤–٢٦).

{فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}: أي: أنه في ذلك اليوم لا يُعذبه أحد ذلك العذاب الذي يقع عليه، وإنما هو ذاته جرَّ العذاب لنفسه، فحسرته وخجله وأعماله الخبيثة تتراءى له فتلذعه في قرارة نفسه لذعاً لا يُطيق ولا يستطيع أن يتحمله، ولذلك تراه يفرُّ إلى النار لينطرح فيها وليكون له من حريقها وعذابها سِتْرٌ عن آلامه النفسية أقول:

وما مثَل هذا الإنسان في ذلك اليوم إلاَّ كمثل طفل نهاه والده عن مسِّ شفرة حادّة مرهفة فعتا عن أمر والده وخالفه فيما نهاه عنه، وجعل يبري بها قلمه ظنّاً أن تلك الشفرة خير من المبراة التي نصحه والده أن يبري بها، وفيما هو على هذا الحال أخطأت الشفرة القلم على حين غفلة منه وذهب بإصبعه، فجعل يصيح ويستغيث ويستجير بوالده ليضمِّد له جرحه ويُسعفه مما حلَّ به.

أفتظن أن ذلك العذاب الذي حلَّ به في تلك الساعة أنزله به أحد؟.

إنه لم يعذبه أحد ذلك العذاب، إنما هو وحده الذي جرَّ هذا الألم لنفسه، وما الألم الذي يشعر به ساعة التضميد والإسعاف إلاَّ مداواة.

أقول: وهذا المثال الذي قدَّمناه إنما قرَّبنا به وجه الحقيقة من الأذهان، والواقع أبلغ من ذلك بكثير؛ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا في وصف حالة ذلك التعيس الشقي:

{وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}:

ويكون ما نفهمه من هذه الآية:

أنه في ذلك اليوم لا يَشدُّ الوثاقَ على ذلك المسكين في النار أحد، بل هو ذاته يُوثق نفسه بنفسه، إذ يصبر على ألم الحرق، ويُرغم نفسه على تحمُّل العذاب ليخلص مما هو فيه.

هذا وصف العاصي يوم القيامة وهذا وضعه في النار ولا سبيل للمفرّ من ذلك الحال الجهنمي الذي يُرغمه غداً على الارتماء في نار التخفيف مما هو فيه إلاَّ التوبة الآن والرجوع للسير بالحق[١] .

فهم يفتتنون بالنار افتتاناً لشدة ما يقاسوه من آلام نفسية كما يُفتتن المريض بالأدوية المقيتة والمسكِّنات المخدِّرة والعلاجات الصعبة والعمليات الجراحية لما يأمل فيها من تسكين لآلامه المرضية الكبرى.

{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} [٢]

ويخلدون إليها بذاتهم لأنهم يرونها خير ما يناسبهم:

{... أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [٣]

فنستعيذ بالله من شرور أنفسنا حتى لا تكون مصاحبتها لزاماً.

وهكذا فنار الخجل والعار ونار الحسرة إنما تحرق قلوب أولئك الكافرين فلا تجد أنفسهم خيراً لها منها.

وهم بذاتهم يخلدون إلى النار وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ويتضح لنا هذا المعنى جلياً ظاهراً إذا نحن نظرنا لحال الإنسان الآن في دنياه. فالمريض إذا اشتد المرض بعضو من أعضائه وبرح به الألم وأيقن أن لا خلاص له من علَّته إلاَّ بقطع العضو الذي ينبعث منه الألم تراه يذهب إلى الطبيب مستسلماً له طالباً منه أن يقطع له ذلك العضو رجاء الخلاص مما هو فيه، وهو يعلم ما في ذلك القطع من شدة وألم.

---

١ –انظر كتاب (تأويل القرآن العظيم) أنوار التنزيل وحقائق التأويل "المجلد السابع" "– سورة الفجر" للعلاَّمة محمد أمين شيخو.

٢ – سورة الذاريات: الآية (١٣).

٣ – سورة الأعراف: الآية (٣٦).

فإذا كان هذا حال الإنسان في دنياه فكيف به في الآخرة وقد زالت عن نفسه بعد الموت حُجُب الشهوات ورجع إلى فطرته فطرة الكمال واستيقظت نفسه بعد سبات وتذكَّر عهده ونقْضه إيَّاه وشاهد عظيم خسارته للجنَّات، وهوى من عظيم مكانته العليّة التي سما إليها بحمله الأمانة التي أشفقت من حمْلها الأرض والجبال والسماوات وحَمَلَها ليرقى فوق الكائنات وإذا به يغيِّر ويهوي إلى أسفل سافلين وقد انقطع الأمل بالتعويض وما أصعب العيش بعد فقدان الأمل، بل وخسر بخزيه وعاره مشاهدة وجه الله الكريم منبع العطاء والخير والجمال والكمال، عندها وقد اشتدت به الحسرات وأحرقته أعماله المخزية وبرح به الخجل ولزمه العار؟. لا شك أنه يرتمي في النار، تنضج جلده وتشوي وجهه ويُسقى بها ماءً حميماً يقطِّع أمعاءه، وإنه ليؤْثر ذلك كله ويفضِّله على ما يلقاه من آلام نفسية لا تُطاق.

فاللهم لك الحمد في السرَّاء والضرَّاء، ولك الحمد في الشدة والرخاء، خلقت هذا الإنسان ليسعد بالنعيم في شهود جلال وجهك الكريم ويرقى في جنَّات النعيم فحاد عن ذلك ومال، وصرفته الدنيا الدنية فانحط فيها إلى أسوأ حال، فإذا جاءك غداً وقد لبست نفسُه ثوباً مخزياً من أعمالها المنحطة فإنك لا تدعه يحترق في نفسه وتسلمه إلى عذابه النفسي وأحزانه، بل ترحمه وتهديه إلى النار لتنسيه الخزي والعار ولهيب نفسه الذي هو أشد بما لا يُقاس من لهيب النار، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحمد على كل حال.

{... وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (١)

---

١ – سورة يونس: الآية (١٠).

والآن وبعد أن ذكر لنا تعالى قصة سيدنا آدم عليه السلام وعرَّفنا فيها بمكانة هذا الإنسان وقابليته العالية للكمال، وحذَّرنا من عداوة ومكائد الشيطان، وبعد أن بيَّن لنا أن الذين يتبعون القانون الإلَهي لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون وأن الكافرين هم أصحاب النار فهم صاحبوها بمحض إرادتهم لما فيهم من آلام مرعبة، ولا صحبة بالإكراه، أراد تعالى أن يضرب مثلاً من الذين خلوا من قبلنا ممَّن لم يتبعوا ذلك القانون الإلَهي ولم يرْعوه فكانت حياتهم كلها مقرونة بسلسلة من شدائد ونغص وآلام، كل ذلك بيَّنه لنا تعالى رحمة ورأفة بنا لنتَّقِ ونحذر. فقد جعل تعالى هذه العبرة والموعظة على شكل خطاب خاطب به بني إسرائيل ليتعظ بذلك عامة أفراد النوع الإنساني وبدأ تعالى الخطاب بقوله الكريم:

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ، وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

وقبل أن نبدأ بتأويل الآيات التي تتكلَّم عن بني إسرائيل، لا بد لنا من كلمة نعرف فيها من هم بنوا إسرائيل فنقول:

بعد أن خرج سيدنا إبراهيم ﷺ مهاجراً من العراق رزقه الله تعالى سيدنا إسماعيل وإسحاق وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ذلك، ومن ذلك قوله تعالى:

{وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَاوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} (١)

---

١ - سورة هود: الآية (٧١-٧٣).

فسيدنا إسحاق ﷺ هو كما نرى والد سيدنا يعقوب ﷺ الملقب بإسرائيل وقد رُزق سيدنا يعقوب اثني عشر ولداً ذكَراً وهم سيدنا يوسف ﷺ وإخوته حسب ما أشار إليه القرآن الكريم في سورة "يوسف".

وقصة مجيء إخوة سيدنا يوسف ﷺ إلى مصر معروفة فصَّلها القرآن الكريم تفصيلاً كافياً [1] ، وقد أضحى أولاد سيدنا يعقوب ﷺ كما أشارت إليه القصة جميعاً مؤمنين وكانت هذه الأسرة أسرة سيدنا يعقوب أسرة عالية وسمَّاه الله تعالى بإسرائيل، أي صاحب الأسرة العالية. وأشارت الآية الكريمة إلى هذه التسمية في قوله تعالى:

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ...} [2]

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمة التي خاطب الله تعالى بها بني إسرائيل في سورة البقرة أن الله تعالى إنما يحذِّر هؤلاء الذين وُجِدوا منهم في عصر رسول الله ﷺ من الانحراف عن الحق ومعارضة رسوله الكريم لئلا يصيبهم ما وقع لآبائهم الذين حادوا من قبل، إذ سلَّط الله تعالى عليهم مَنْ يسومهم سوء العذاب وبعث عليهم من يُخرجهم من ديارهم وأبنائهم ويشتتهم في الآفاق، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وهو تعالى إذ يحذِّر ويُنذر العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، لا بل البشر عامة فتلك هي قوانين إلّهية وسننٌ ثابتة. فكل من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة وعارض رسل الله وضلَّ عن سواء السبيل ساق الله تعالى له ما ساق

---

١ – انظر كتاب عصمة الأنبياء لتشهد هذا التفصيل والشرح الوافي الكافي الجزيل، للعلاَّمة الجليل محمد أمين شيخو.

٢ – سورة آل عمران: الآية (٩٣).

لأولئك المنحرفين من بني إسرائيل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وما ذلك من الله تعالى إلاَّ محض الفضل والإحسان والرحمة والرأفة والحنان، فما خُلِق الإنسان ليتمتع بهذه الدنيا وينصرف لزينتها، بل إنما أخرجه الله تعالى إلى هذا الوجود ليتزوَّد من دنياه لأخراه، ذلك كله إنما نفهمه من قوله تعالى:

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}:

إذا وفَّيتم بما عاهدتموني عليه فإنني أوفِ بما عاهدتكم عليه من رفع شأنكم دنيا وآخرة. ولكن حتى تستطيعوا ذلك فكِّروا لكي تستعظموني.

{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}:

وكذلك الأمر بالنسبة لنا الآن:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً}، لكن الشرط: **{يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً...}** [١]

وهذه الآية لنا أيضاً. ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يُنذرهم ويحذِّرهم حبّاً بهم وحناناً عليهم، ولو أن الإنسان استقام ولو لوحده لرفع الله شأنه وحفظه وحماه من كل ضيق وشدَّة. وبالعكس إذا ظلم لا بدَّ أن يؤخذ منه الحق ولو ظلم ذبابة. الدنيا لها قوانين، حتى رسول الله ﷺ "وحاشا أن يبدر منه" لو أنه ظلم نملة لقاصصه الله، الدنيا سائرة بقوانين.

---

١ – سورة النور: الآية (٥٥).

فهذه الآية الكريمة إنما تنطوي على تذكير بالنعمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، إذ رفع شأنهم وفضَّلهم على العالمين، وتحريض على الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه من طاعة الله وتأييدٍ لرسله، وهي إلى جانب ذلك إنما تشتمل على تحذير وتخويف، فكلمة **(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)** تشير إلى ذلك الماضي المؤلم الذي حلَّ ببني إسرائيل لمَّا انحرفوا وضلُّوا عن سواء السبيل.

فاحذر أيها الإنسان الانصراف إلى الشهوة وإيثار الدنيا الدنية، ولتكن لك من أولئك موعظة وعبرة فإن ربَّك لبالمرصاد.

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [١]

وارجع إلى قوله ﷺ إذ يقول محذِّراً مذكِّراً:

«**الكيِّس مَنْ دانَ نفسهُ وعَمِلَ لِمَا بعد الموت، والعاجزُ مَنْ أَتْبعَ نفسهُ هواها وتمنَّى على الله الأمانيَ**»[٢].

أما آية: **{وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ}**: إن فعلتم عظَّمتموني وانكشف لكم الحق.

{وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}: هذا القرآن يأمرك بالنظر بالآيات الدالَّة على الله، هل فكَّرت، هل عقلت شيئاً من الآيات الدالَّة على لا إلَه إلاَّ الله!. إن لم تفكِّر وتعقل هذا هو الكفر.

{وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}: بأن تتركوا التفكير بها وتلحقوا الدنيا.

{وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}: إن عظَّمتموني وقدَّرتموني وقلتم لا إلَه إلا الله استنرتم بنوري وعقلتم. رأيتم الخير خيراً والشر شرّاً.

---

١ – سورة هود: الآية (١٠٢).

٢– مسند الإمام أحمد: ج/٤/ ص١٢٤

فهي إنما تتطلَّب من بني إسرائيل، لا بل من هذا الإنسان مطالب ثلاثة نستطيع أن نفصِّلها بما يلي فنقول:

تتطلَّب هذه الآية الإيمان بالقرآن المنزَّل على رسول الله ﷺ ، ذلك القرآن الذي جاء مصدِّقاً للتوراة وليس المراد بالإيمان الذي أشارت إليه كلمة **(وَآمِنُوا)** أن يقول الإنسان آمنت، فإن هذا القول الذي لا يجاوز الحناجر ولا يدخل إلى صميم النفس ولا يُغني عن صاحبه شيئاً لا يجعله في عداد المؤمنين، إنما الإيمان هو عقل النفس، الإيمان تصديق القلب المبني على قناعة النفس بعد بحثها وتحقُّقها من الشيء بالمحسوس الملموس. فقد أكون موظَّفاً في دائرة من الدوائر ويصلني نبأ من أحد الأصدقاء أنني ترفَّعت من مرتبة إلى مرتبة، فمجرَّد سماعي النبأ لا يجعلني مؤمناً بهذا الأمر وليس قولي للناس بأني ترفَّعت معدوداً بإيمان ما دمت متردِّداً بين الشك واليقين.

أما إذا أنا استلمت قرار الترفيع بيدي عندئذ وبعد تحقُّقي من الأمر أكون مؤمناً حقّاً.

وهكذا ليس يُعدّ مؤمناً بالقرآن رجل سمع من الناس أن هذا الكلام كلام الله فقال بمثل ما قالوا، لأن مجرَّد السماع من الناس وترديد أقوال الآخرين لا يُعدُّ إيماناً، بل لا بد من بحث ذاتي حتى ينبثق الإيمان من ذات الإنسان نتاجَ بحثه الذاتي ويوصله بحثُه واستدلاله للإيمان الشهودي اليقيني حتى تستقر معه الحقيقة في النفس.

فعلى الإنسان مثلاً أن ينظر في أوامر هذا القرآن من حيث كونها ضامنة لسعادة الخلْق جميعاً، فإذا كانت أوامره تعود على الإنسان بالخير وتكفل السعادة للمجتمع الإنساني من النواحي الصحية والاجتماعية والحقوقية والاقتصادية إلى غير ذلك من النواحي الأخرى كما تكفل السعادة النفسية من حيث راحة النفس

وسرورها ودوام طمأنينتها دون أدنى نغص وكدر. فذلك كلام الله وقانونه، إذ من المسلَّم به أن القانون الإلّهي الذي يضعه الخالق إنما يكفل سعادة الخلْق عامة والبشر خاصة آحاداً ومجتمعين، صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، إنه يضمن للإنسان حياة طيبة في جميع آفاق الحياة وأوضاعها في كل زمان ومكان، وعصر ومصر، مهما كرَّت القرون وتوالت الأيام.

في مثل هذه النواحي يجب على الإنسان أن يبحث، وفي مثل هذه الآفاق يجب أن يجول الذهن جولات طويلة فإن هو وصل إلى بغيته واطمأنت النفس بعد بحث وتحقُّق من توفُّر تلك النقاط فقد آَمَنَت حقّاً وأصبح إيمانها مبنياً على علم لا يتسرَّب إليه ريب ولا ينتابه شك من الشكوك.

إن النفس إذا عقلت أوامر القرآن تكون قد آمنت بها حقّاً وإنما الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له، وإنما يتفاوت الناس بالدين بتفاوت عقولهم. وتفصيلاً لبعض هذه النواحي نقول:

إذا نحن نظرنا إلى القرآن من حيث تحليله الطيبات وتحريمه الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله، ومن حيث أمره بالوضوء والغسل والطهارة من النجاسة واعتزال النساء في المحيض إلى غير ذلك من الأوامر التي تتعلَّق بحفظ الصحة وجدناه وافياً بذلك الغرض كل الوفاء، فهو لا يغادر ناحية من النواحي في هذا المجال إلاَّ وبيَّنها للإنسان، وإن نحن رجعنا إليه في تنظيم المجتمع من الناحية الاقتصادية وجدناه قائماً على أكمل الأسس التي تضمن للفرد الحرية الشخصية في إدارة عمله ولا تحرمه من نتائج جهوده وبذلك يزيد الفرد في بذل المجهود اعتماداً منه على أن نتائج عمله راجعة إليه وهو إلى جانب ذلك يأمر بالزكاة التي تنتشل ذوي الدخل المحدود من الفاقة وتعطي رؤوس المال لذوي البطالة العاطلين عن العمل، وبذلك تدور عجلة العمل وتنشط

الحياة الاقتصادية في المجتمع. فإذا قرنت نظام الزكاة إلى نظام العمل الحر والتشجيع على الديْن الخالص من الربا المطلوب به وجه الله وتحريم الربا بشتى أنواعه وبأية نسبة كانت، ذلك الربا الذي ما خالط حياة اقتصادية إلاَّ وكان سبباً في بث الفقر والبؤس وإشاعة الفاقة في طبقات الأمة وذلك مما سنفصِّله في موضعه من هذه السورة، ثم إذا أنت نظرت إلى تلك الأصول التي وضعها الدين رامياً بها إلى الحفاظ على حقوق الدائن والمدين والتأمين على مالهما من حيث كتابة الديْن وبيان الأجل ونوع المال وإقامة الشهود وبيان عددهم ونوعهم أو أخذ الرهان عند عدم وجود من يكتب الديْن إلى غير ذلك من الأصول وذلك في آية الديْن بنهاية سورة البقرة هذه، لوجدت أن القرآن في كل ناحية من النواحي الاقتصادية قائم على كمال الكمال.

وما ترك القرآن دائرة من الدوائر ولا ناحية من النواحي الاجتماعية إلاَّ وعني بها ولفت نظر الإنسان إليها بادئاً من أصغر حجيرة من حجيرات المجتمع وأعني بها الأسرة حتى آخر دائرة من دوائره وأعني بها المجتمع الإنساني عامة. فالفرد على حسب ما يُشير إليه القرآن الكريم عضو في المجتمع الصغير الذي هو الأسرة وعليه تجاه هذا المجتمع حقوق وله واجبات.

فالأب في الأسرة راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والزوجة راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، وللأولاد على الأبوين حقوق كما عليهم تجاههما واجبات. ولقد وصَّى الله تعالى الإنسان بوالديه حُسْناً وحضَّه على الإحسان إليهما وأمره بأن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة وأن يدعو لهما وفاء بحق ما أسدياه إليه من المعروف في صغره وما بذلاه من الجهود في سبيل تنشئته وتربيته.

وللرجال على النساء واجبات ولهم حقوق، وللنساء حقوق وعليهن واجبات، وإذا أنت تتبعت هذا الموضوع وجدت أن للأسرة في القرآن الكريم أنظمتها

وقوانينها التي تضمن سعادة كل فرد من أفرادها وتحفظ لهم حقوقهم جميعاً وتصون تلك الروابط التي تربط أفراد الأسرة ببعضهم بعضاً برباط الولاء والوفاء والمحبّة منذ أول خطوة من خطوات تشكُّل هذه الأسرة وولادتها الاجتماعية حتى آخر نقطة من نقاط وجودها.

ويؤيد هذا ما ورد في القرآن الكريم والآيات بخصوص خطبة النساء والمحلَّلات والمحرَّمات وعقد النكاح والولي الذي بيده عقدة النكاح والمهر، وحسن المعاشرة وبناء عقد النكاح على نيّة دوام البقاء وأن ما سوى ذلك سِفَاحْ وكذلك ما ورد من الآيات فيما يتعلَّق بالعدَّة وأحكامها الخاصة بالمتوفى عنها زوجها وعدة المطلَّقة إن كانت حاملاً أو كانت صغيرة أو كبيرة بالسن أو يائسة من المحيض والبيت الذي يجب أن تعيش فيه المطلَّقة، وأحوال تأديب المرأة الناشز، والوسائل التي يجب أن يتدرَّج بها الرجل مع زوجه في التأديب، ثم الأصول الواجب اتِّباعها في حال عدم إمكان بقاء الأسرة وكون بقائها واستمرار الحياة الزوجية أشد ضرراً من انحلالها وهو ما سمَّته الآيات بالطلاق.

وللطلاق في مثل هذه الأحوال الاضطرارية أصوله ومراحله المتتالية كما لا بد قبله من تشكيل هيئة تحكيمية وهو لا يتم ويثبت إلاَّ بعد انقضاء مدد معيَّنة ولا يكون نهائياً ولا أبدياً إلاَّ بعد مروره بمراحل وأدوار. وهناك آيات تبيِّن ما يجب من المتاع للمطلَّقة وما يجب من المتاع والنفقة للمتوفى عنها زوجها وما يجب على الورثة تجاهها من حقوق، وهنالك آيات تتكلَّم عن الرضاع بشكل يضمن حقوق الصغير ومصلحة أمه إلى غير ذلك من الآيات التي تبيِّن حرص القرآن الكريم على هذا المجتمع الصغير وسعيه في إقامته على دعائم متينة لا تدع مجالاً لانحلاله أو فساده.

وقد تجاوز القرآن حدود الأسرة وتخطاها إلى تمتين روابط الإنسان مع ذوي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وجاوز حدود ذلك أيضاً، فما فرَّق في وجوب الإحسان بين قريب وبعيد، بل أمر بالإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، وإنه ليسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية حينما يعتبره عضواً في المجتمع الإنساني الكبير فيبيِّن له أن أفراد النوع البشري هم جميعاً ذووا قربى. فما المجموعة البشرية إلا أسرة واحدة نسلت من أب وأم واحدة وهم جميعاً إخوان وإخوة، وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ليتعارفوا وما على الإنسان العاقل الرشيد الذي عرف ربَّه وهُدي إلى صراط مستقيم إلاَّ أن يُعامل البشر جميعاً بالإحسان. وإنه ليُفرض عليه أن يعامل عدوه حينما يقع في قبضته ويتمكَّن منه كما يُعامل أقرب الأقربين إليه، قال تعالى:

{... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

وإنه ليتسامى الإنسان مرهفاً طباعه ومرقِّقاً مشاعره تجاه ذلك الخصم، قال تعالى:

{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (١)

أي: ليس يظفر بمرتبة الإحسان إلى العدو إلاَّ ذو حظ عظيم.

على أنه لا يفرط باللين مع العدو إلى درجة تجعل الإنسان يخرج عن حدود العزة والكرامة، بل يطلب منه أن يقف تجاه خصمه موقف حكمة رائدها المصلحة الإنسانية فلا يريد له أن يقيم على ذل.

{... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...} (٢)

---

١ – سورة فصلت: الآية (٣٤–٣٥).

٢ – سورة المنافقون: الآية (٨).

ويطلب منه أن ينتصر إذا أصابه البغي.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} (١)

{... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...} (٢)

ثم يتسامى به إلى درجة العفو والإحسان فيقول تعالى:

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ...} (٣)

{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (٤)

ومما يلفت النظر في القرآن الكريم ما جاء به من التشريع الفذ في تنظيم شؤون المواريث وأصول تقسيم التركات، فقد بيَّن ميراث الأولاد من أبيهم في أحوالهم المختلفة كما لو كانوا ذكوراً وإناثاً، وفي حال انفراد الإناث وعدم وجود الذكور، وفصَّل في هذه الناحية مبيِّناً نصيب البنت الواحدة والاثنتين فما فوق، ذلك كما بيَّن ميراث الأبوين من ابنهما المتوفى في مختلف الأحوال عند وجود ولد وارث وعند عدم وجود الولد، وبيَّن حصة الأم إن كان للمتوفي أخ، وقد بيَّن أيضاً نصيب الزوج مما تركته زوجه إن كان لها ولد ونصيبه إن لم يكن لها ولد، وقد بيَّن بالمقابل نصيب الزوجة مما تركه زوجها في كلا الحالين. وتعرَّض لميراث الأخ من أخته في حالة خاصة سمَّاها بالكلالة أي: عند عدم وجود الفرع الوارث كالابن وابن الابن وعدم وجود الأبوين والزوج، وبيَّن أيضاً ميراث الأخت من أخيها في مثل هذه الحالة وبيَّن حقوق اليتامى وميراثهم قبل كل بحث من بحوث المواريث.

---

١ – سورة الشورى: الآية (٣٩).

٢ – سورة البقرة: الآية (١٩٤).

٣ – سورة الشورى: الآية (٤٠).

٤ – سورة الشورى: الآية (٤٣).

وهكذا فإذا أنت بحثت في تشريعه في هذه الناحية لوجدت أنه لم يغادر حالة من حالات المواريث إلاَّ وبيَّنها بصورة تضمن حق كل واحد من الورثة على حسب درجته من القرابة وعلى حسب الأعباء التي تقع على كاهله من حيث الواجبات المالية والنفقات المكلَّف بها تجاه أقاربه وذويه.

وتفصيلاً لهذا القول وإشارة إلى بعض هذه النواحي نضرب لك مثلاً على هذا فنقول:

لقد جعل القرآن الكريم نصيب الابن الذكر من أبيه ضعف البنت وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ...} [١]

وإنك إذا تعمَّقت باحثاً عن سر هذا التشريع وجدته قائماً على أساس متين من الحق والعدالة، فالأعباء التي تقع على عاتق الذَّكر أكبر من الأعباء التي تقع على الأنثى. فعلى الذَّكَر النفقة على العيال بخلاف البنت، إذ تقع نفقة أولادها على أبيهم وليس عليها شيء من ذلك، وعلى الذَّكَر أيضاً إذا أراد أن يتزوج أداء المهر لزوجته والنفقة وعليه المتاع بالمعروف لزوجه المطلَّقة.

أما البنت فإنما تستوفي المهر ولها النفقة والمتاع من زوجها وليست مكلَّفة بشيء من ذلك. وعلى الذكر واجب الإنفاق على الأبوين وليس على البنت هذا الواجب وعليه أيضاً النفقة على الأقارب إذا عجزوا عن العمل لعلّة أو عاهة أو هرم وليس على البنت نفقة. وهكذا فبمقابل هذه الأعباء خصَّ القرآن الكريم الذكر بمثل حظ الأنثيين من الميراث.

---

١ – سورة النساء: الآية (١١).

وبنظرة بسيطة إلى ذلك تجده قد عدل كل العدالة في هذا التقسيم. ويطول بنا الشرح إذا أردنا أن نتعرَّض لنصيب الأم من الميراث وكونه يتراوح بين السدس والثلث ونزوله من الثلث إلى السدس في حال وجود الأخوة وكذلك الزوج في كون نصيبه ينتقل من النصف إلى الربع في حال وجود ابن للزوجة المتوفاة وكذلك في حال تناقص نصيب الزوجة من الربع إلى الثمن.

وإنك إذا تعمَّقت باحثاً في كل نقطة من هذه النقاط وجدت الحق ظاهراً بيّناً وتمثَّلت لك العدالة في أجلى مظاهرها وأسمى معانيها. وكما نظَّم القرآن شؤون المواريث، فقد وضع أصولاً للوصايا ومنح الإنسان حقّاً في الإيصاء بنصيب من ماله لذوي الحاجة من أقاربه وغيرهم وفصَّل في بيان الأصول الواجب اتِّباعها في حال السفر عند إقامة الشهود تثبيتاً للوصية وردّاً للإنكار، وتعرَّض لبيان الواجب الذي يقع على الوصي المكلَّف بتنفيذ الوصية ومنحه الحق بالإصلاح بين الورثة وذلك بتعديل الوصية إذا وجد فيها حيفاً أو جوراً وميلاً عن الحق إلى غير ذلك من الأصول والتشريعات التي تضمن الحق وتجعل الإنسان مطمئناً إلى ما أوتيه من نصيب من المال لما يراه في ذلك التقسيم من حق وعدالة ورعاية للمصلحة الخاصة والعامة.

ولا تظنن أن ما أوردناه هو كل ما جاء به القرآن الكريم من التشريع، بل هنالك نواحٍ أخرى تعرَّض لها القرآن كالتشريع الجزائي والدولي. وقد تكلَّم عن الجهاد والأصول التي ترتكز عليها الدعوة إلى الله وتبيِّن المراحل الواجب اتِّباعها لإنقاذ البشرية من جهلها، وتحدَّث عن الحرب والسلم وأصول الهدنة والمعاهدات، ثم إنه أفاض في بيان الأخلاق التي يجب أن يتحلَّى بها الإنسان والتي تجعل منه شخصاً كاملاً وإنساناً إنسانياً وأتى على ذلك بأسلوب يذكِّي مشاعر الإنسان ويجعله يعشق الفضيلة والكمال.

وبصورة عامة جاء القرآن بكل ما يلزم هذا الإنسان منفرداً ومجتمعاً في سائر أحواله وأوضاعه من سلم وحرب وصحة ومرض، ويسر وفقر، وإقامة وسفر، وما ترك أمراً من الأمور إلاَّ وبيَّنه لهذا الإنسان على الوجه الأمثل والوضع الأكمل.

ولو أراد امرؤ أن يحصي الفوائد التي يجنيها من وراء تطبيق أمر واحد من أوامر القرآن أو الحِكَمِ التي ينطوي عليها الأمر، لما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [١]

ومما امتاز به هذا القانون الإلَهي من دون كل قانون هو أنه لم يكتفِ بأن بيَّن لهذا الإنسان ما يجب أن يفعله وما يجب أن ينتهي عنه ولم يقتصر على وضع الأنظمة والقواعد والتشريعات. فإن الأنظمة والقوانين لا تأت بالثمرة المطلوبة إذا لم تكن الأنفس متهيئة لقبولها، وسرعان ما يحاول الإنسان التخلُّص منها إذا لم تتجاوب نفسه معها ولذلك فإن القرآن الكريم إنما وضع إلى جانب ما وضع من أنظمة وتشريعات كاملة أصولاً خاصة تهذِّب النفس وتتسامى بها إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني وبذلك تجد هذا الإنسان مستعداً لتقبُّل تلك الأنظمة راغباً بها وتراه لا يطمئن قلبه ولا تسعد نفسه إلا بتطبيقها والسير عليها، حتى إنك تجده إذا تسامت نفسه إلى ذلك الكمال يطبِّق تلك الأنظمة بصورة عفوية ولو لم يكن له علم بها، فإذا ما سمع شيئاً منها تذكَّر ما يجده في نفسه من مشاعر موافقة ومطابقة لها.

وقد أفاض القرآن الكريم في هذه الناحية وأعني بها تلك التي تهذِّب النفس وتسمو بها إفاضة تامة فأرشد الإنسان إلى الطريق الحقيقية التي تصل به لتلك

---

١ – سورة لقمان: الآية (٢٧).

الغاية السامية، إذ عرَّفه بخالقه ومربِّيه وبيَّن له أنه لا يمكن أن يصبح إنساناً كاملاً ما لم يصل إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله فيعلم أن سيْر الكون عائد إليه سبحانه، فلا يقع واقع إلاَّ بأمره ولا يمكن لشيء أن يقارن شيئاً أو يشفع به إلا بإذنه، فهو الخالق والمربِّي، وهو المتصرِّف والمسيِّر وإليه وحده تؤول أمور الكون كله في الخلْق والتربية والرزق والسير والتصرُّف، وبه تعالى الحياة.. حياة الكون وقيامه.

وقد ألحَّ القرآن على هذه النقطة إلحاحاً كبيراً وساق من القصص وضرب من الأمثال وأورد من الآيات الدالَّة على التربية والتسيير الإلّهي ما يُثير اهتمام الإنسان ويبعث تفكيره إلى الوصول لتلك المعرفة. وبما أن الاهتمام لا يتولَّد، والتفكير لا ينبعث من جموده ولا ينطلق باحثاً عن معرفة الله إلاَّ إذا رغبت النفس عن هذه الدنيا الدنية وعاينت انقضاءها السريع ونعيمها الزائل، ولذلك فإن القرآن كثيراً ما يُذكِّر الإنسان بالموت ويحذِّره من الانغماس في الشهوات والاسترسال في الطغيان، وإنه ليضع بين أيدينا مُثُلاً واقعة عن الذين خلوا من قبل ويرينا نتائج أولئك المعتدين الذين آثروا الدنيا وشهواتها فمُزِّقوا كل ممزَّق وأصبحوا أحاديث.

وهكذا فما من قانون جاء ولا يمكن لقانون أن يأتي بمثل ما جاء به القرآن الكريم، وما من قانون جمع بين التسامي بالنفس وتهذيبها، وبين الأنظمة والأصول الواجب عليها اتِّباعها وتطبيقها سوى القرآن الكريم.

ولئن اجتمعت البشرية كلها، ولئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

أفليس هذا دليلاً بيّناً وبرهاناً كافياً على أنه كلام الله وأن الذي جاء به إنما هو رسول الله ﷺ وأنه لم يبلغ امرؤ من الكمال الإنساني والقرب من الله مثل ما

بلغه رسول الله ﷺ حتى أنزله الله تعالى عليه واختاره ليكون مبلِّغاً لرسالته؟. ذلك كله إنما ينطوي تحت آية:

(وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ):

والإيمان كما بيَّنا من قبل يجب أن يكون مبنياً على نظر ومحاكمة واستدلال وما سوى ذلك فظنٌّ وتقليد وأوهام، والظن لا يكوِّن في النفس قناعة ولا يولِّد علماً وإن الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً.

وتفيد كلمة: **(وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ):** أن القرآن الكريم إنما جاء مصدِّقاً لما جاءت به التوراة من قبل وليس في التوراة ما يخالف القرآن في مبادئه الإنسانية أو القواعد التي سنَّها الله لتكون مناراً وضياءً لسعادة البشرية. وكيف تخالف التوراة القرآن في ذلك وهي كلام الله وقانونه لهذا الإنسان؟. ولئن كان القرآن الكريم أوسع من التوراة بياناً وأكثر تفصيلاً مما قبله من الكتب ومهيمناً عليه، وما ذاك إلا لأن البشرية في ذلك الحين ما كانت بحاجة إلى هذا التفصيل، إذ أنها لم تتعرَّف بعد إلى تلك المفاسد والنواهي التي عرفها الإنسان الأخير.

فإذا كان الإنسان الأول مثلاً في عهد سيدنا نوح ﷺ لا يعرف الفاحشة التي وقع فيها قوم سيدنا لوط ﷺ فهل من المعقول أن يعرِّفه الله بذلك العمل المُهلك المنحط ويدلَّه عليه ثم ينهاه عنه ويحذِّره من الوقوع فيه؟.

أما إذا انتشر ذلك العمل وأضحى معروفاً بين الناس، فمن اللازم في مثل هذا الحال البيان والتذكير ومن اللازم النهي والتحذير، وبيان طرق الوقاية والعلاج.

وإذا كانت البشرية قد وصلت قبل بعثة الرسول ﷺ إلى درجة لم يبقَ معها منكر من المنكرات إلاَّ وقد عرفته ووقعت فيه، لذلك جاء القرآن محذِّراً من جميع

تلك المفاسد ومفصِلاً تفصيلاً دقيقاً لا يمكن لشخصين أن يختلفا في معرفة ذلك الشيء المنهي عنه ما دام كل منهما يطلب الحق وينشده ويسعى إليه.

ونضرب لك مثلاً على ذلك فنقول:

لقد أعطى القرآن الكريم الأشياء المسكرة التي تكون سبباً في تعطيل الفكر واحتجاب الوعي اسماً جامعاً لكل ما تتحقَّق فيه تلك الصفة فسمَّاها خمراً، لأنه بتعطيله الفكر عن عمله يخمر الوعي ويستره. وقد فقه ﷺ سر هذه التسمية وأدرك المراد الإلّهي وهو خير من يُدرك فقال ﷺ موضِحاً ومبيّناً:

«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام...»[١] .

فجعل الإسكار سبب التحريم آخذاً من كلمة خمر. ناظراً إلى سر التسمية فلم يقتصر ﷺ على ظاهر الاسم، وهكذا فالبيرة والنبيذ والأفيون والحشيش والويسكي والشمبانيا والفودكا والكونياك وسائر الأشياء التي تنطبق عليها صفة الإسكار كل ذلك خمر.

وسمَّى القرآن أخذ المال من الناس فائضاً وزائداً عن الحق "ربا" وأطلق عليه هذه اللفظة المأخوذة من: ربا، بمعنى: زاد، لتشير إلى أن كل كسب زائد عن الحق غير مشروع مهما اختلفت الأسماء وتباينت المسمَّيات وهكذا.. فلو أقرض إنسان آخر مالاً واشترط عليه أن يهديه متاعاً أو يسكنه داراً أو يسمح له بالتصرُّف في حقل إلى غير ذلك مما يحتج الناس الآن في تسميته تخلُّصاً من الحرمة والعقوبة فهو في الحقيقة ربا، لأنه ربا وزاد عن أصل الديْن.

ولو ابتاع رجل من آخر بضاعة بسعر يزيد عن السعر الحاضر وهو ما يسمُّونه "ببيع الوعدة" فذلك الثمن الزائد ربا ولو سمَّياه بيعاً.

---

١ –الجامع الصغير رقم /٦٣٧٢/ (حم م ٤) عن ابن عمر

ولو أن رجلاً باع آخر متاعاً وطلب منه سعراً يزيد عن السعر الشائع المشهور ظنّاً منه أن البيع إنما هو حنكة ومهارة فهذا الثمن الزائد أيضا ربا.

وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله الكريم:

«غُبن المسترسلِ حرام»[١].

«غُبنُ المسترسلِ ربا» [٢]

والمسترسل هو الذي لا يعرف سعراً للبضاعة فاستسلم للبائع ووثق بكلامه.

وقد جمع ﷺ صنوف الربا في القرض بكلمة واحدة بيَّنت سر التشريع أخذاً وفقهاً من كلام الله وما أرجح فقهه وأعظم عقله:

«كلُّ قرض جرَّ منفعةً فهو رباً»[٣]

وعلى ذكر شمول القرآن بكلمة واحدة معاني عدّة تجتمع كلها في كلمة واحدة نستطيع أن نضرب لك المثل الآتي أيضاً فنقول:

لقد سمَّى القرآن محاسن المرأة التي زيَّنها الله تعالى بها من جمال وجه وأعين وفم وأسنان وشعر وصبا وفتوة وشباب إلى غير ذلك من المفاتن زينة، وبما أن إظهار هذه المحاسن لغير الزوج أو الأب والأخ والابن ومن سواهم من المحارم الذين عدَّدتهم الآية الكريمة يكون سبباً في وقوع الفتنة والفساد في الأرض كالتحبيب بالزنا ويبعث الشقاق والكراهية بين الرجل وزوجه بعد أن رأى من هي أجمل منها وجهاً وأوقع في نفسه منزلة ومكانة. لذلك وقطعاً لدابر الفساد في

---

١ -الجامع الصغير (٥٧٨١) (هق) عن أنس

٢ -الجامع الصغير (٥٧٨٢) (هق).

٣ -الجامع الصغير (٦٣٦١) (الحارث) عن علي.

الأرض وحرصاً على الأسرة وسعادتها ودرءاً لعوامل الانحلال والضعف من التسرُّب، أمر الإسلام بعدم إبداء هذه المحاسن لغير المحارم فقال تعالى:

{... وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ...}.

وأمر تعالى المرأة الشابة أن تمشي مشية عادية لا يظهر معها في الطريق ما زيَّنها الله تعالى به من فتوة وشباب فقال تعالى:

{... وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (١)

وهكذا فجميع محاسن المرأة التي زيَّنها الله تعالى بها والتي هي موضع فتنة الرجال إنما جمعها الله تعالى بكلمة واحدة فقال: **{زِينَتَهُنَّ}** ومنع من إبدائها بكلمة **{وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ}** حرصاً على سعادة المجتمع وسلامته.

وإذا كان أناس يذهبون في تأويل هذه الآية مذاهب بعيدة عن المراد الإلٓهيفيقولون يجب على المرأة أن تخفي شعرها ولا تظهر إلا وجهها ويُسمُّون ذلك بالسفور الشرعي، فضلال ذلك التأويل ظاهر بيِّن، فإن الوجه والأعين قد تذهب بلبِّ الناظر وتأخذ بقلبه أكثر من الشعر، فمن الضروري والحالة هذه ستر الوجه مثل الشعر.

وإذا كانوا يزعمون أن الزينة هي الصباغ والطلاءات التي توضع على الوجه فتكسبه حمرة وبريقاً فذلك أيضاً خطأ وليست الزينة المعنية في الآية الصباغ

---

١ – سورة النور: الآية (٣١).

والطلاءات، لأنه قد تجتمع امرأتان، حسناء جميلة الوجه منحتها القدرة الإلّهية من بريق الوجه واصطباغه بحمرة النشاط والحيوية ما يغنيها عن الطلاءات والأصباغ، وأخرى دميمة قبيحة صبغت وجهها بالأصباغ وأكسبته بريقاً بالطلاوات فما زاده ذلك إلا دمامة وقبحاً. فيا ترى أيهما يؤثِّر بالنظر إليها في قلب الناظر، الحسناء التي زيَّنها الله تعالى بجمالٍ من عنده، أم الدميمة التي زيَّنت وجهها بالأصباغ؟. وهل الزينة ما تُزيِّن المرأة نفسها، أم ما زيَّنها الله به من المحاسن؟.

لا شك أن المعنى أضحى جلياً واضحاً، وكلمة **{وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ}** إنما يتعين معناها وينصرف قطعاً إلى ما زيَّن الله تعالى به المرأة من محاسن في الوجه والأعضاء مما يكون إظهاره موضعاً للفتنة وسبباً للفساد وما سوى ذلك لا تتأمَّن معه المصلحة ولا ينقطع دابر الفساد، وحاشا لله أن يأمر بأمر فيه مجال لمعترض أو مبعث لفساد.

وإذا كان الله تعالى لم يسمح للمرأة على حسب الآية التي ذكرناها بأن تُبدي زينتها إلاَّ للنساء المؤمنات خوفاً من أن تنقل الكافرة التي لا أمانة لها محاسن المرأة إلى الرجال من غير المحارم وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{أَوْ نِسَائِهِنَّ}.. فهل يجوز للمرأة ذاتها أن تُبدي وجهها لغير المحارم من الرجال؟.

إن هذه المعاني جلية واضحة لا مجال فيها لأخذ ورد، لكن عدم تدبُّر الناس آيات الله جعلهم يقعون فيما وقعوا به من ضلال في الفهم، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا وضلُّوا عن سبيل الله، ورسول الله ﷺ يقول:

«أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» [1]

ومما يدلُّك على سعة القرآن ووضوحه وكونه مهيمناً على غيره من الكتب ومتوافقاً مع حاجات الإنسان على كرِّ العصور والأزمان ما جاء به من آيات تنهي بكلمة واحدة عن أشياء جمّة تشمل كل ما عرفه الإنسان قديماً وما سيتعرَّف إليه مهما امتد به الزمن وساعد عليه الاختراع مما يبعث الفتنة في الأرض ويسوق إلى الفساد كل ذلك جمعه تعالى بكلمة واحدة فقال جلَّ شأنه:

{... وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ...} [2]

إذ جمع بكلمة **{وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ}** كل قول أو عمل أو مُخْتَرَعٍ يُقرِّب من الفاحشة، وهكذا فالملاهي بأنواعها كدور السينما والخلاعة وسماع الآلات الموسيقية والأغاني المثيرة وبصورة عامة كل ما من شأنه أن يبعث الفتنة أو يقرِّب من الفاحشة منهي عنه، جمعته كلمة **{وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ}**.

وهكذا فما فرَّط الله تعالى في القرآن الكريم من شيء، لكنه دقَّ عنه فهم من دقَّ وعرفه من عرفه. وقد أدركه ﷺ كله بإقباله العالي على ربِّه وشهد له ربُّه تعالى بذلك فقال:

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [3]

أي: ومن عنده علم الكتاب مثلي، ومن الذي فهم كلام الله مثل فهمي؟.

ولذلك أمرنا الله تعالى باتِّباع هذا الرسول الكريم واقتفاء أثر هذا السيد العظيم فقال تعالى:

١- الجامع الصغير /ت/ ٢٥٦٣.

٢ – سورة الأنعام: الآية (١٥١).

٣ – سورة الرعد: الآية (٤٣).

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [1]

والآن وبعد أن أوردنا ما يقتضيه الإيمان بالقرآن الكريم من النظر في آياته وتدبُّر ما جاء فيه من إرشادات وقوانين، أقول: لا يصل الإنسان إلى حقيقة الإيمان بالقرآن وليس بمستطيع أن يدرك سمو معانيه ويشهد الحقائق التي أشار إليها هذا الكتاب العزيز ولو جئته بكل ما تستطيع أن تأتيه به من إثباتات وتفصيلات وأدلة وبراهين ما لم يؤمن هو بذاته بخالقه ومربِّيه وتشهد نفسه أن لا إلّه إلا الله وأن سير الكون كله بيد الله. فإذا لم يتوصَّل الإنسان إلى هذا الإيمان، فلا يرجى منه تقدير وتعظيم لهذا الكتاب الكريم، بل كل ما يستطيع أن يعرفه عن كلام الله إن هو إلاَّ مجرَّد أقوال سمعها فجعل يردِّدها دون أن يفقهها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية فذكر لنا مقالة أهل النفاق عقب سماعهم ما يتلوه عليهم رسول الله ﷺ من الحق والدلالة فقال تعالى:

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [2]

فهم لم يجدوا في بيان رسول الله ﷺ ولم يروا في كلام الله تلك المعاني العالية التي يراها ويتذوقها أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان.

وفي الواقع إذا غلبت الشهوة على صاحبها وسيطرت على قلبه محبّة الدنيا وزينتها فليس يستطيع أن يتذوق لكلام الله معنى أو يعرف له قيمة ولا يعرف الفضل إلا ذووه.

---

١ – سورة المائدة: الآية (٩٢).

٢ – سورة محمد: الآية (١٦).

وقد وصف الله تعالى زعماء اليهود الذين حفظوا ظواهر التوراة واكتفوا بحمل ألفاظها وحفظ مضمونها دون البحث عن الإيمان الذي يكشف لهم عن تلك الآفاق الواسعة والحكم العالية التي أشارت إليها فقال تعالى:

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (١)

وهكذا فليس يُغني عن الإنسان أن يحفظ التفاسير والتأويلات وليس يجعله عالماً أن يدرس النصوص والأقوال وليس يفيده أن ينقل ما قاله فلان، ويحمل لك ما أورده فلان، بل لا بد من الإيمان ومن وجد الإيمان وتوصَّل إليه فقد فاز بفهم كلام الله:

{... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} (٢)

ومن عرف الله وحصل له العلم بأسماء الله فقد تأهَّلت نفسه للعلم بتأويل كلام الله. قال تعالى:

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...} (٣)

{... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} (٤)

{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} (١)

---

١ – سورة الجمعة: الآية (٥).

٢ – سورة فصلت: الآية (٤٤).

٣ – سورة العنكبوت: الآية (٤٩).

٤ – سورة آل عمران: الآية (٧).

كما ينبغي لمن يعلم التأويل الحق أن يكون قد حصل على الطهارة النفسية بصلاته وإقباله على ربِّه:

{فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ} (٢)

وقد أمر الله تعالى زعماء اليهود بالإيمان بالقرآن الكريم وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة التي نحن بصددها في قوله تعالى:

(وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ).

وحيث إن ذلك الحال الذي هم فيه من عدم الإيمان بالله يجعل صاحبه عرضة للتكذيب والكفر بآيات الله لذلك حذَّرهم الله تعالى من الكفر بذلك الكتاب الكريم فقال تعالى:

(وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ).

ثم نهاهم الله تعالى عن إيثار الدنيا وزينتها على الإيمان برسول الله ﷺ ونصرة الحق وتأييده فقال تعالى: **(وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً).**

وإنك إذا نظرت إلى ظاهر هذا القول حسبته خطاباً خاصاً لبني إسرائيل وظننت ذلك التحذير قاصراً عليهم، والحقيقة أن هذا القول إنما يعني كل إنسان ويذكِّر أولئك الذين غرَّتهم الحياة الدنيا ومكاسبها وصرفتهم عن الإذعان لأهل الحق وتأييده فآثروا الدنيا على الآخرة واشتروا بآيات الله الدنيا وزينتها وما متاع الحياة الدنيا إلا غرور ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

---

١ – سورة الرعد: الآية (١٩).

٢ – سورة الواقعة: الآية (٧٥-٧٩).

على أن كلامنا هذا الذي تكلَّمنا فيه عن إيثار الدنيا وزينتها على الآخرة ونعيمها لا يعني أن يقعد الإنسان عن السعي ويلجأ إلى الراحة، فليس الخمول والكسل من شيمة المؤمن وليس القعود عن العمل من صفاته، وإنك إذا تتبَّعت أحوال المؤمن الحقيقي وجدته في هذه الحياة أكثر حيوية وأكبر نشاطاً وأعلى همة وأوسع نظراً وأشدّ على مواجهة المكاره صبراً وأثبت لدى المصاعب قدماً وأربط جأشاً، وما من مجال من مجالات العمل التي فيها خير الأمة وسعادة البشرية إلا وتجد المؤمن فارسها المغوار وبطلها المقدام، فهو قائد الحملة على الشر والفساد وهو طبيب الإنسانية ومعلِّم الخير وناشر الفضيلة والمجاهد في حومة الوغى نشراً للحق ودحضاً للباطل، وهو المجاهد بنفسه وماله والمتقدم بعلمه وعمله لينقذ العالم من الظلمات إلى النور وليأخذ بيد البشرية إلى المحبة والسلام.

وإذا كان الكافر إنما يعمل في الدنيا ويقدِّم ما يقدِّم من مجهود وتفكير فيبذل ما يبذل من خبرة ومهارة سعياً وراء مصلحته وجرياً وراء منافعه المادية وتأميناً لمكاسبه ومصالحه الخاصة، فالمؤمن يختلف عنه كل الاختلاف، فهو يبذل من المجهود أضعاف أضعاف ما يبذله الكافر، لكن ليست له غاية إلا خدمة الخلْق وليس له هدف إلا الصالح العام، فهو امرؤ يعمل لمبدأ شريف وغاية سامية. إنه يذوب في المجتمع وينصهر في المصلحة العامة، يتعب ليوفِّر السعادة لغيره، ويسهر لتتأمَّن راحة الآخرين.

وتتسامى نفس هذا المؤمن إلى درجات الإنسانية فيقدِّمها رخيصة ويجود بها مضحِّياً وهي أعلى ما ملكت يمينه لتحيا الأمة وتسعد البشرية ويتحرَّر العالم، وقد وصف الله تعالى ذلك بقوله الكريم:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[1]

فلا تحسبنَّ أيها المؤمن أن الإيمان يدعوك لتقعد عن السعي والاجتهاد ولا تظننَّ أن رضاء الله يكون بالاستسلام للراحة والقعود عن العمل، فالطالب في دراسته والمعلِّم في مدرسته والطبيب في عيادته والصانع في مشغله والتاجر في حانوته وكل ذي حرفة وعمل تراه إذا صدق بإيمانه فخالطت بشاشة الإيمان قلبه إنما يضاعف المجهود ويواصل السعي ويبذل الوسع لا سعياً وراء المكاسب المادية وإنما طلباً للوصول إلى أكبر حد ممكن من خدمة الخلْق والإحسان إلى البشرية.. وفي سيرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ما يغنيك عن كل دليل وإثبات.

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [2]

---

١ – سورة التوبة: الآية (١١١).

٢ – سورة الفتح: الآية (٢٩).

فما هذه الحياة الدنيا في نظر المؤمن إلاَّ ميدان تتبارى فيه الأنفس وتتسابق، وتنشحذ الهمم فتتنافس المواهب فيبذل كل امرئ ما استطاع لينال أعظم ما يستطيع أن ينال من الأعمال الصالحة ويكتسب أكبر حدٍّ ممكن من الخيرات.

ولهذه الغاية السامية أخرج الله تعالى الإنسان إلى هذا العالم وقد حرَّض سبحانه المؤمن على ذلك فقال:

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[١]

* * *

ولعلَّك تقول: إذا كان المؤمن يسعى هذا السعي الحثيث ويبذل هذا الجهد الكبير في سبيل اكتساب هذه الحياة والتزوُّد من عمل الخير، ويتهالك الكافر على نيل الدنيا والوصول إلى الشهوات الخبيثة، فما السبب الذي ميَّز بين هذين فجعل من الأول إنساناً إنسانياً وانحطَّ بالثاني إلى أسفل السافلين؟. فنقول:

خلق الله تعالى الإنسان وأخرجه إلى هذا الوجود وقد أودع في رأسه جوهرة ثمينة وأعني بها الفكر وهو كما ذكرنا من قبل جهاز المعرفة والوسيلة التي يتعرَّف بها الإنسان إلى الحقائق، كما جعل له في هذا الكون بصائر وعبراً وآيات، وألصق الآيات بهذا الإنسان وأقربها إليه نفسه وما خُلِقَ عليه جسمه من نظام بديع، وأشد تلك الآيات تأثيراً فيه وبعثاً لكوامن فكره نهايته وخروجه من هذا العالم.

---

١ – سورة الحديد: الآية (٢١).

ففي نهاية الحياة وأعني بها الموت ووحشته عبرة كبيرة لهذا الإنسان وأية عبرة، فإذا نظر الإنسان في بدايته وأعمل فكره في أصل خلْقه وتكوينه ودقَّق في جسمه وترتيبه وراح يتساءل عن المادة التي خُلِق منها والنطفة التي تشكَّل منها من أين جاءت وكيف تشكَّلت وأين أُودعت، ثم كيف تخلَّقت وربيت، وكيف نَمَتْ والطريق التي منها مرَّ وخرج إلى هذه الدنيا. أقول:

إذا هو نظر في ذلك نظرات وفكَّر في كل يوم دقائق معدودات فلا بد من أن تتولَّد في نفسه معان جديدة لا يعرفها أحد من أولئك الذين ظنُّوا أنفسهم خُلِقوا للأكل والشرب والعمل والنوم والسعي وراء مكاسب الحياة فكانوا أشبه بالحيوان منهم بالإنسان.. نعم إنها تتولَّد في نفسه معان وتتوارد عليها أسئلة تترى فيقول: ما أصل هذه النطفة التي خُلقت منها؟. وينطلق الفكر في البحث ويتعمَّق ويغوص في طوايا الماضي البعيد، ماضي خلْق هذا الإنسان لمَّا كان، لا بل قبل أن يتشكَّل في صلب أبيه فيرى أن هذه النطفة التي تشكَّل منها إنما هي خلاصة أثمار ومجموعة من فواكه ومواد مختلفة الأشكال متباينة الطعوم والخواص أحدثت أنواعاً منوَّعة من الحيويات أكلها أبوه من قبل فتجمَّعت منها تلك النطفة بعد أن مرَّت في أدوار هضمية عديدة ثم مرَّت هذه النطفة في أحقر طريق واستقرت في رحم الأم حيث رُبِّيت ونمت وظلَّت في ظلمات عالم جديد لا تمتد إليها يد بأذى ولا ينالها سوء أو مكروه ولا تُعنى بها إلا يد العليم الحكيم والمربِّي القدير.

{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ، إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ} [١]

ومرَّت هذه النطفة في أدوار وأطوار فمن نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ومن مضغة إلى جنين كامل الخلْق والترتيب تام الأعضاء، مجهَّز بالحواس والأجهزة التي يحار في تشريحها وتفهُّم دقائقها أكبر مهندس وأعظم طبيب.

ثم كانت الولادة، وللولادة عِبرها وآياتها.. وخرج هذا المخلوق الجديد إلى عالم جديد يحتاج فيه إلى طعام وشراب وشرائط خاصة تساعده على الحياة، فإذا كل شيء مهيَّأ موفور، وإذا العطف والحب والعناية والحنان تحوط هذا المخلوق الصغير وتحفُّه وترعاه وتدفع عنه كل ما يؤلمه فلا تسلِّمه لشيء من ذلك ولا تنساه. وإذا الطعام مهيأ بمقادير ومعايير كلما ازداد هذا المخلوق في النماء تزداد يوماً إثر يوم وحيناً بعد حين.

هذه نواحٍ من نواحي بداية هذا الإنسان هي مثار للتفكير لديه وداعية إلى التأمُّل والنظر الدقيق. وفي النهاية.. نهاية حياة الإنسان نواح أخرى من لون آخر ونوع رهيب. ولكن بني إسرائيل الذين لم يسلكوا هذا السلوك الإنساني العالي، ولم يفكِّروا بهذه الآيات الكونية ليصلوا منها إلى خالقها وممدها ومُظهرها ليرتشفوا منه الكمال ويقدِّروا أهل الكمال رسولهم العالي المُنقذ لهم فيسلكوا بمعيَّته سُبل الجنان ويكسبوا هذا العمر الغالي في هداية عباد الله، بل اكتفوا بالإيمان التصديقي دون الإيمان الحقيقي، وهذا التصديق وما تبعه من أحوال ومشاعر

١ – سورة يس: الآية (٤١–٤٤).

عالية وأذواق رفيعة سماوية تسمو بالنفس لعليين إن لم يرتدوا برداء اللؤم ونكران الجميل، إذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فلم يلتفتوا إلى رسولهم ولم يقدِّروه حق قدرهِ وهو النعمة التي أنعم الله بها عليهم،كذلك ذراريهم فقد تردُّوا برداء اللؤم الذي تردَّ به آباؤهم فلما جاءهم رسول الله محمداً ﷺ الذي كانوا ينتظرونه بأرض الميعاد والتي كانت هي المدينة المنورة، فلما جاءهم ما عرفوا، نكروا بكفرهم فبعدوا عن الحق وأهله واتَّجهوا إلى الدنيا وخسروها مع أن الله سبحانه وتعالى أرشدهم ونصحهم بقوله الكريم:

{وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}: تعرفون الرسول أنه رسول وتنكرون رسالته.

{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}: محمداً و إلَه ﷺ .

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ..}: تقول للناس لا تفعلوا المعاصي وأنت لا تفكِّر وتلتهي بالدنيا.

{.. أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}: شيئاً من هذا الكتاب . من توراتكم . لا تكفي قراءة القرآن وحدها بدون تفكير. وضع الله تعالى رموز في أوائل السور لتفكِّر ثم تعقل، حتى تشغِّل فكرك ولا تدعه جامداً.

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ}: اصبر عن الشهوات كلّها: فكِّر بالموت واترك الدنيا: إن فكَّرت وتركت الدنيا واستقمت صلَّيت.

{وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ}: من هم؟..

{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِمْ}: كيفما تحوَّل يرى الله معه.

{وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}: يعلم أنَّه راجع إلى الله، هذا الشخص الذي صارت له خشية هذا يترك الدنيا. الخشية تحمل النفس على السيْر. وهكذا سار صحابة رسول الله ﷺ الكرام هذا السيْر العالي فوصلوا إلى ما إليه وصلوا.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}: كنتم أذلاء جعلتكم سادة بين الناس. كذلك نحن العرب كنَّا تحت حكم الروم والفرس جاء رسول الله رفع شأننا. الله تعالى خاطب بني إسرائيل مذكِّراً بحالهم بالماضي زمن فرعون، يا بني إسرائيل: يا أولاد الأسرة العالية. هؤلاء أجدادهم عظماء أنبياء.

{وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ}: جعلتكم هداة.

{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً}: لا أحد غداً يشفع فيك ويخلِّصك، الحكم لله وحده. الرسول، الشيوخ، المرشدون يذكِّرونك بلسانهم وبمعيَّتهم تدخل على الله. لكن لا يعطونك شيئاً، كل إنسان وله كسبه، فاعمل عمل الطيبين تنل ما نالوه **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}**: أين الشفاعة يومئذٍ لمن لم ينلها بدنياه؟.

{وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}: شيء معادل.

{وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}: المريض من ينصره "يخلِّصه مما فيه" إذا جاءت سيارة الإسعاف لإسعافه للمشفى.

القرون الأولى

مقدمة

أبت النفوس الضعيفة إلا أن تتجلَّى بأجلى معانيها وتمادى الموكب في الضعف والاسترسال في الكسل واللامبالاة وبالتالي التعلق بالزائل والتافه حتى استهانوا الخضوع للخنوع وألفوا الذل وآلفوه وانقشرت قشرة الحياء من بشرة الوجه فاستكانوا للطاغية فرعون واستساغوا المذلة والهون، فعصف بواديهم المنكر وجاءهم القصاص الأبتر يُقتِّل أبناءهم الطاغيةُ بزبانيته ويستحي نساءهم وفي ذلكم بلاء من ربِّهم عظيم.. هذا ما جنته أيديهم عليهم فأعمالهم عُمَّالهم كيلت عليهم ثم رُدَّت إليهم بما تقشعر لهوله الأبدان.. عندها تابوا للشدة وأنابوا وبالاستغاثة للإله العظيم ثابوا فأرسل لهم أشجع الشجعان وأسد الآساد يبطش بالظلم والظالمين ويهد عروش الطاغين هدّاً ويمدُّهم بالهداية والنور مدّاً.. ذلك سيدنا موسى العظيم يطلبهم للسعادة فيطلبون الرسوب والإعادة وإلى الهلاك المُحقَّق المبين.. فصارعهم وأرادوا أن يكيدوه وأنَّى لهم أن ينالوه وهو خليفة رب العالمين الذي أرسل لهم الطوفان والقحط والبلاءات..

الدماء في مياه شربهم.. والقمل تأكل أجسامهم.. والجراد يبلع محاصيلهم.. فما تابوا وعن الغي والطغيان ما أنابوا فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ومن حيث حسبوا النصر انقلب عليهم بلاء فغاصوا في الماء.. وفرعون مات وحلَّت به وبجيوشه الآفات وزُلزلت قصور مصر ومصانعها..

كم تركوا من جنَّات وعيون.. وزروع ومقامٍ كريم.. ونعمة كانوا فيها فكهين كذلك وأورثناها بني إسرائيل..

زال فرعون وعروش مصر دُمِّرت: كانوا وكأنهم ما كانوا..

حقّاً إنه درس بليغ وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

فيا تُرى هل استفاد بنوا إسرائيل أبناء الأسرة العليَّة العالية.. أبناء الأنبياء العظماء مما شاهدوا بأمِّ أعينهم ورأوا!.

ذلك ما سنراه بالصحف التالية صحف القرون الأولى..

بسم الله الرحمن الرحيم

القـرون الأولـى
(نجـاة أبنـاء الأسـرة العاليـة)

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}

وردت هذه الواقعة التي نجَّى بها الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وقومه والتي فصَّلها القرآن الكريم في مواضع عديدة منه فجاءت كل سورة بناحية من النواحي وذلك ممَّا يتناسب مع هدف السورة الكريمة والغاية التي أُنزلت بها لتقرِّرها في النفس، إذ وردت التفصيلات في سورة طه والقصص والشعراء والنمل وغير ذلك من السور الكريمة بصورة تُبيِّن فيها للإنسان أنَّ هذا الكون إنما تُشرف عليه إرادة عليمة حكيمة ورحيمة تمهل هذا الإنسان المنحرف ولا تهمله وتُطاول وتحاول ردَّه إلى الحق لا تتركه وشأنه وتُذكِّره وتعظه وتُيقِّظه ولا تغفل عنه، ذلك كله إنما يتمثَّل لك ويبدو في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون، وكم في القرآن الكريم من ذكريات وعِبر تدور كلُّها حول إيقاظ هذا الفكر البشري من رقاده فلعلَّ هذا الإنسان يُحوِّل مجرى تفكيره ويتفكَّر بما سيُواجهه في مستقبله إذا هو لم ينتهِ عن غيِّه، ولهذه الغاية أرسل الله تعالى سيدنا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه وأرشدهما تعالى إلى التلطُّف معه في القول والترفُّق به، إذ قال تعالى:

{فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} (١)

---

١ - سورة طه: الآية (٤٤).

وكذلك وبناءً على أمر الله تعالى جاء سيدنا موسى عليه السلام إلى فرعون يعظه ويذكِّره مطبِّقاً وصية الله تعالى في مناقشته إيَّاه، ثم جاء بآياته البيِّنات فما كان منه إلاَّ الجحود والاستكبار، قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله الكريم:

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} (١)

وهكذا كل امرئ إذا لم يسلك السبيل التي سنَّها الله تعالى لهذا الإنسان فليس يفيده أن يرى المعجزات وخوارق العادات وليس يجعله في عداد المؤمنين أن تأتيه بما تأتيه من آيات وحجج دامغات، إنما الصدق في طلب الحقيقة وإعمال الفكر في البحث عنها هو الذي يهدي النفس ويُوردها موارد المعرفة الحقيقية.

وقد بيَّن الله تعالى هذه الناحية الهامَّة في مواضع عدَّة من القرآن الكريم، إذ قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ مسرِّياً عن نفسه ما يجده من الضيق بسبب معاندة المعارضين فقال تعالى:

{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (٢)

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} (٣)

فهذه النفس البشرية كما كنا أسلفنا من قبل لها قوانينها في الاهتداء إلى الحقيقة والوصول إليها كما لسائر الموجودات بهذا الكون سنن وقوانين:

---

١ – سورة النمل: الآية (١٤).

٢ – سورة الأنعام: الآية (٣٥).

٣ – سورة الأنعام: الآية (١١١).

{... وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} (١)

وما دامت هذه النفس لا تسلك القوانين التي سنَّها الله تعالى للهداية فليس بمغنٍ عنها أن تشاهد الآيات والمعجزات لأن الهداية والوصول إلى الحقائق ومعاينة النفس لها لا تأتي من خارج النفس إنما تنبعث فيها انبعاثاً بناءً على تفكير ومقايسة ومحاكمات تُنتج عقلاً باطنياً، وبالنور الإلٓهي المتَّجهة هذه النفس إليه شهوداً ذاتياً تراه النفس وتعقله وتطمئن إليه.

أما مشاهدة المعجزات فلا تولِّد في النفس عقلاً وإيماناً ولا تبعث فيها علماً وإيقاناً ولذلك خاطب الله تعالى رسوله الكريم بالآية التي قدمناها الآن:

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...}.

أي: لا يمكن أن يصل هؤلاء إلى الإيمان ولو أن الله تعالى نزَّل إليهم الملائكة فخاطبوهم مصدِّقين ما أخبرهم به الرسل عن الله وبعث لهم الموتى من قبورهم فكلَّموهم وحشر كل شيء من الأشياء يحدِّثهم ويُقنعهم، كل ذلك لا يفيدهم وهم لا يؤمنون، فشهواتهم الكامنة بنفوسهم لا بدَّ أن تخرج، إلاَّ أن يسلكوا القانون الإلٓهي الموضوع للنفس البشرية في الاهتداء وعقل الحقيقة وهو أن يُعملوا تفكيرهم إعمالاً مقروناً بالصدق في الوصول إلى الحق فينظروا في هذا الكون وما فيه من آيات وينظروا في أنفسهم وما فيها من تركيب بديع يدلُّ على تلك اليد العظيمة التي صنعت هذا الإنسان على هذا الكمال.

ذلك كله إنما توحي لنا به كلمة **{مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** لأن مشيئة الله تعالى في اهتداء هذا الإنسان إنما هي قائمة على سنن وقوانين لا

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (٦٢).

يطرأ عليها تبديل ولا تحويل ولكن أكثر الخلْق يجهلون فيوقفون الأمر على الله وينسبون عدم اهتدائهم إليه تعالى، ولو أنهم صدقوا لعرفوا طرق الاهتداء وسلكوا سُبل الإيمان فكانوا أعرف الخلْق اهتداءً، وأعلاهم عند الله مكانةً، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء والله يختصُّ برحمته كل طالب منيب والله ذو الفضل العظيم.

ولو أنَّ فرعون وقومه سلكوا تلك القوانين التي جاءهم بها سيدنا موسى عليه السلام مذكِّراً لاهتدوا إلى الله، غير أنهم نبذوها وراء ظهورهم فما أغنى عنهم ما رأوا من آيات ومعجزات فأصابهم ما أصابهم وانتهت بهم مرحلة الحياة انتهاءً مخزياً فكانوا عبرة لمن يريد أن يعتبر.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نهاية هؤلاء المخزية وأورد الآية الكريمة التي نحن بصددها والتي تُذكِّر بني إسرائيل بتلك الواقعة التاريخية الهامة فقال تعالى:

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ}.

* * *

وخلاصة هذه القصة أن سيدنا موسى عليه السلام لمَّا جاء إلى مصر يطلب من فرعون رفع الحيْف عن بني إسرائيل قائلاً له "على لسانه ولسان أخيه هارون" بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}.

وإثر هذا التهديد أن خشي فرعون واهتم بالأمر وطلب معرفة هذا الرب العظيم الذي بيده نواصي الخلْق.

{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى}.

فكان جواب سيدنا موسى عليه السلام:

{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى، قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى، مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [١]

تلك هي مناقشة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وقد فصَّل له ولقومه ما فصَّل شرحاً وإقناعاً.

وأنت ترى أنه لم يأتهم بادئ ذي بدء بالمعجزات، إنما ناقشهم مناقشة منطقية وأقنعهم إقناعاً فكرياً ووضع بين أيديهم من الآيات البيّنات ما يذكِّرهم بعظمة الخالق ويعرِّفهم بشأن المربّي **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى}**[٢].

تلك هي الآيات التي وضعها سيدنا موسى عليه السلام بين يدي فرعون وقومه وذكَّرهم بها، وتلك هي الآيات التي ذكَّر بها كل رسول قومه، وتلك هي طريق الإيمان.

أمَّا فرعون وقومه نظراً لغلبة الدنيا على قلوبهم واستحكام محبَّتها في نفوسهم بدلاً من أن يسلكوا تلك الطريق التي رسمها لهم الله تعالى عاندوا سيدنا موسى عليه السلام وعارضوه وطلبوا منه المعجزات فأراهم ما أراهم، وجاءهم بتسع آيات

---

١ - سورة طه: الآية (٤٧-٥٥).

٢ -انظر شرح هذه الآية في كتاب مصادر مياه الينابيع في العالم.. وهذه الآية لا يحيط بوسعة معانيها كتاب علمي كامل فكم شرح وفصَّل نبي الله سيدنا موسى عليه السلام لفرعون وقومه!.

بيّنات. وعلى الرغم من كل ما رأوه من آيات وما أنزل الله تعالى بهم من شدائد ما كان منهم إلاَّ التكذيب والعناد.

{وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ} [١]

وقد بيَّن لنا تعالى أن ذلك كلَّه ما كان ليردّهم إلى الإيمان ما داموا لم يسلكوا تلك السبيل التي بيَّنها الله تعالى لهذا الإنسان.

{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ، وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ، فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ، فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ}[٢]

تسع آيات بيّنات أراها الله تعالى لفرعون وقومه وهي:

العصا أبطل بها سحر السحرة، واليد يخرجها سيدنا موسى ﷺ من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، والطوفان، والجراد يأكل زرعهم، والقمَّل ينغِّص عليهم راحتهم، والضفادع، والدم يعكِّر مياههم، وانقطع القطر وجفَّت الينابيع وأجدبت الأرض وأخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات.. فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبل.

لقد رأوا ما رأوا من آيات وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلْماً وعلوّاً، وكذلك النفس البشرية جميعها إذا هي لم ترجع إلى ذاتها وتفكِّر بآيات ربِّها فمهما رأت

---

١ - سورة الزخرف: الآية (٤٩).

٢ - سورة الزخرف: الآية (٥٠-٥٦).

من آيات ومهما ساق الله تعالى لها من الشدائد لا ترجع عن غيّها، وإن هي رجعت ظاهراً وتابت آنياً فلا بد أن تنكث التوبة وتعود.

أما إذا هي فكَّرت وعقلت وعرفت خالقها من خلال النظر في آيات هذا الكون وشهدت عظمة هذا الخالق فما أسرع ما ينطبع الحق فيها وما أسرع ما تثوب إلى رشدها.

وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الكريم:

«الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له» (١)

إنه عقلٌ لتلك التربية، إنه عقلٌ لتلك العظمة الإلَهية، إنه عقلٌ مبني على تفكير واستعظام وإنك لا تصل إليه بكثرة مطالعتك التفاسير ولست تصل إليه بكثرة صوم وصلاة، إنما تصل إليه إذا كنت صادقاً. وفي الحديث الشريف:

«تفكُّر ساعةٍ خير من عبادة سبعين سنة» /وفي لفظ ستين سنة/.

فإذا أنت فكَّرت وعقلت فتوصَّلتْ نفسك إلى الصلة المشهودة بربِّك فهنالك تتجرَّد عن ثوب الحيوان الذي لبسه كثير من الناس فظلموا أنفسهم بذلك ظلماً كبيراً وتلبس ثوب الإنسان فتصبح إنساناً إنسانياً فاضلاً، تلك هي طريقك وبذلك سعادتك.

أما بنوا إسرائيل الذين لم يسلكوا هذه السبيل من بعد أن أُخرجوا من البحر ومن بعد أن أغرق الله تعالى عدوَّهم وهم ينظرون {... **فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ**...}. فقالوا لرسولهم: {... **اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ**

---

١ -أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده (ق ١٠٠/١-١٠٤-١ زوائده) عن داود بن المحبِّر بضعاً وثلاثين حديثاً في فضل العقل ومنها هذا الحديث.

قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [١]

عندها واعد الله تعالى سيدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمَّها بعشر يعتكف فيها ﷺ مُقبلاً على ربِّه مهيّئاً نفسه لتلقِّي رسالات الله ومناجاته. وكذلك كل نفس مؤمنة لا بدَّ لها من تصفيةٍ وانقطاعٍ عن المشاغل وانصرافٍ في الوجهة إلى الله لتستطيع تقبُّل التجلّيات الإلّهية ولتصبح صافية نقيّة تتمكَّن من انصباب الكمال فيها وتتأهَّل لمعرفة الله وقد سنَّ لنا رسول الله ﷺ في خلوته قبيل البعثة، وفرض الله تعالى ذلك النظام بصوم رمضان وقد عرضنا ذلك مفصَّلاً في كتابنا "درر الأحكام في شرح أركان الإسلام" عن آيات الصيام فبيَّنا أن الصوم في حقيقته إنما هو خلوة النفس وخلودها إلى ذاتها وأنه سبب قوي في انقطاعها عن الدنيا ومشاغلها يمهِّد للنفس طريق الصلاة ويساعدها على الوجهة إلى الله، فإذا زالت بهذا الصوم العوائق من طريق النفس البشرية وتقطَّعت أواصر الموانع التي تحول بينها وبين وجهتها إلى خالقها واستحكمت صلتها بربِّها، فهنالك وبما تقوم به من الصلوات يتسرَّب إليها الكمال سارياً من الذات العلية شيئاً فشيئاً، فإذا ما انتهى شهر الصيام أصبحت هذه النفس أهلاً للدخول على الله بمعيَّة رسول الله ﷺ ، فعندئذٍ تشهد الحقائق بنور الله وتضحي عليمة بمراد الله فيما أنزله على رسوله ليبلِّغه للناس، وتلك هي التقوى التي يجب أن تكون محطَّ نظر الإنسان في هذه الحياة، وتلك هي الشهادة التي يجب أن يحصل عليها ويسعى إليها كل إنسان وما سوى ذلك من الشهادات الدنيوية، فما هو إلا كسراب بقيعة يحسبه

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١٣٨–١٤٠)..

الظمآن ماءً حتى إذا جاءه "الموت" لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب.

وما مثل الساعين وراء الدنيا منصرفين عما أُوفدوا من أجله إليها إلاَّ **{... كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [1]

ونعود إلى سيدنا موسى عليه السلام معتكفاً في المناجاة ونعود إلى قومه وقد استخلف عليهم أخاه هارون عليه السلام ووصَّاه بهم.

قال تعالى قاصّاً ذلك عنهم بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله:

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[2]

أما قوم سيدنا موسى عليه السلام فمجرَّد ما غاب عنهم رسولهم جاءهم السامري وهو رجل معرض منهم فأخرج لهم من حليّهم صنماً من ذهب تميل الأنفس الجاهلة بالمحبة إليه وتستهويه، ونظراً لغلبة محبة الدنيا على قلوب هؤلاء وبما أنهم لم يسلكوا الطريق التي أرشدهم إليها رسولهم ﷺ لذلك فُتِنوا بالذهب يلمع أمام أعينهم واستهوته نفوسهم **{فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَه مُوسَى فَنَسِيَ}** [3] هذا ما موَّه به السامري على بني إسرائيل من أن موسى نسيَ فقال لهم:

---

١ - سورة البقرة: الآية (١٧-١٨).

٢ - سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

٣ - سورة طه: الآية (٨٨)..

فنسي موسى ذكر ذلك لكم لأنه منهمك بأمور جسيمة ومهمّات عسيرة ولأن هذا أمر بديهي أن القتال يحتاج إلى سلاح وعتاد وتحقيق هذا إنما يتم بالمال، وكذا الإمداد بالمؤن والتزويدات وشراء الضوامر من الخيول، فلا بد من الوسائل فجعل الله المال وسيلة لتحقيق المآرب وتمام الفوز والغلبة على العدو الكافر، إذاً فالذهب تتوقَّف عليه الحياة، ومن لم يكن عنده درهم ولا دينار فليس يسعد أيضاً في هذه الحياة ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى مآربه ولمناصب الدنيا إلاَّ بالمال ووافقوه على ذلك بملء قلوبهم.

لقد زعموا أن سير الحياة يتوقَّف على المال وذلك ما عناه بكلمة **{هَذَا إِلَـهُكُمْ وَ إِلَه مُوسَى}** أي: إنه مسيِّركم ومسيِّر موسى في الحياة.

أقول: وكذلك زَعْمُ كل جاهل بعيد عن الله تراه يفرح بالمال ويظنُّ أن المال سبب السعادة في الحياة ووسيلة الوصول إلى المآرب والمناصب الدنيوية، وهو لا يرى أن النصر بيد الله وأن التوفيق والسعادة كلٌّ من عند الله فينطبق عليه قول رسول الله ﷺ : «.. **إنَّ الرَّجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار..**» يشير بذلك ﷺ إلى أن العمل الذي لم يكن مبنياً على الإيمان والتحقيق لا بدَّ لصاحبه من أن تنكشف حقيقته وتظهر طويَّته ولا بدَّ له من أن يفتن بالدنيا ويواقع الشهوات الدنيئة.

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [١]

---

١ - سورة العنكبوت: الآية (٢-٣).

وقد وصف الله تعالى أحوال المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}** [١]

وقال تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ..}** [٢]

وهكذا فلا بد للمنافق ولكلِّ امرئ لم يتحقَّق بحقائق الإيمان من ساعة ينكشف فيها حاله للناس. وما حديث الأحزاب يوم اجتمعت قريش ومعها الألوف المؤلَّفة من المحاربين يُريدون أن يستأصلوا شأفة المسلمين عنك ببعيد، لقد ظهرت في ذلك اليوم الحقائق وانكشفت الطوِيَّات فقال المنافقون وقد اشتدَّ يومئذ حصار المشركين وزلزلت القلوب واستبسل الأعداء **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً}** واستأذنوا رسول الله **{... يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً}** [٣]

أما أصحاب رسول الله ﷺ .. أصحاب رسول الله الذين خالط الإيمان قلوبهم وسرى في نفوسهم سريان الماء في النبات، هؤلاء لمَّا اشتدَّ عليهم الأمر وضاق **{... قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}**.. ووصفهم الله تعالى بقوله الكريم:

---

١ – سورة الحج: الآية (١١).

٢ – سورة العنكبوت: الآية (١٠).

٣ – سورة الأحزاب: (١٢–١٥).

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [1] و **{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ...}** من المنافقين في غزوة العسرة **{... بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ}** وظهرت يومئذ حقائقهم بادية سافرة فردَّ الله تعالى عليهم بقوله الكريم:

{... قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [2]

ووصف تعالى المؤمنين يومئذ فقال: **{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [3]

تلك هي أحوال المؤمنين الذين آمنوا حقّاً وتلك هي أحوال المنافقين عامة في أي عصر ومصر وزمان، وذلك هو حال بني إسرائيل الذين لم يسلكوا طريق الإيمان الذي وضَّحته الآية في قوله تعالى:

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}.

يريد تعالى بذلك أن يبيِّن لنا أن الإنسان إذا هو لم يتحقَّق بالإيمان ولم يتوصَّل إليه عن طريق النظر بآيات الله فهو على خطر عظيم فإذا ما غاب عنه مرشده ودليله إلى الله فما أسرع ما ينقلب على عقبيه. وقد أورد تعالى هذه الآية الكريمة يعظ بها بني إسرائيل، لا بل البشر أجمعين ويحثُّنا على السعي وراء الإيمان الصحيح، أورد تعالى ذلك وهو بالناس رؤوف رحيم حرصاً علينا من أن نستهوي الدنيا ونقع في حبِّها إذا نحن لم نسلك طريق الإيمان ونهتدي إليه، ثم

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (٢٢–٢٣).

٢ – سورة التوبة: الآية (٨١–٨٢).

٣ – سورة التوبة: الآية (٨٨).

بيَّن تعالى من الآيات ما يُشير إلى مداواة الإنسان إذا هو ظلَّ مريض النفس ولم يسلك طريق الإيمان الذي يطهِّر النفس ممَّا بها من علل معنوية وأدران فقال تعالى:

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ،وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى من رحمته بهذا الإنسان لا يدعْه مريض النفس ولا يتركه وشأنه مليئة نفسه بشتَّى العلل، بل يسوق له من الشدائد ويطبِّق له أنواعاً من المعالجات لعلَّه يتوب إلى بارئه ويرجع عن غيِّه فتشفى نفسه ممَّا بها من العلل والأمراض.

فهؤلاء بنوا إسرائيل الذين لم يسلكوا طريق الإيمان الذي يطهِّر نفوسهم ويذهب بما استقرَّ بها من الخبث والشرك لمَّا رجع إليهم سيدنا موسى عليه السلام ورآهم قد ضلُّوا **{... قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي، قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا...}** [١]

حقيقة العجل الذهبي

يريدون بقولهم هذا أنهم لم يخالفوه عن تصوُّر وتصميم، لكن زينة القوم وجواهرهم التي بدت تلمع أمام أعينهم متجسِّدة في الصنم هي التي أغرتهم واستهوت نفوسهم فجعلتهم يميلون إليها هذا الميل ويقولون من كلمات الكفر

---

١ – سورة طه: الآية (٨٦–٨٧).

والشرك ثم صرَّحوا له بأنهم قذفوا حبَّ ذلك الصنم وتراجعوا عنه، ولكن ما يفيد الإنسان اعترافه بالذنب وتصريحه بالتوبة بهذا اللسان والقلب ما يزال مشحوناً بالشهوة مفعماً بالإثم، إنه لا بدَّ له من علاج قوي ودواء ناجع يخرج الشهوة ويذهب بالإثم. ولذلك أمر الله تعالى بني إسرائيل الذين اتَّخذوا العجل إلهاً قَتْل أنفسهم **{أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً}** [١] نعم لقد يمَّم بنوا إسرائيل نفوسهم شطر الدنيا وشطر المال والمال مادة الشهوات والعجل الذهبي، أو ما يُسمَّى بالعصر الحاضر "بالرصيد الذهبي" الذي تتم عليه وبه قيام الدولة المادي والذي يهدف ويرمز إلى حب الدنيا وميلهم إليها أمرهم تعالى بأن يقتلوا أنفسهم وبيَّن لهم أن ذلك القتل هو السبب الوحيد الذي يخلِّص نفوسهم ممَّا بها من الميل إلى الدنيا ويجعلها ترجع تائبة إلى الله.

وتلك الوقفات التي وقفناها بين حينٍ وحين في تأويلنا هذا نفصِّل تارةً ونوجز أخرى مُشيرين فيها إلى طريق الإيمان بلا إلّه إلا الله ومراحل هذا الطريق، وما لهذا الإيمان الحقيقي من أثر في نفس الإنسان ولا يُعدُّ كل ذلك وإنْ طال بنا البحث خروجاً عن الموضوع الذي كنَّا بصدده وأعني به قصة بني إسرائيل لمَّا جعل الله وسيلة توبتهم بسبب اتِّخاذهم العجل قتل أنفسهم، بل إن جميع ما ذكرناه من لمحات وما وقفناه من وقفات هو لبُّ الموضوع وجوهره، فالإيمان بلا إلّه إلا الله والتعريف به والدلالة على طريقه لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم منه سواء كان ذلك بطريق التصريح أو الإشارة والتلميح حتى إن قصة بني إسرائيل التي نحن بصددها ما أوردها الله تعالى ولم يبيِّن لنا أنَّ هؤلاء القوم تعرَّضوا في حياتهم لشتَّى الشدائد والمعالجات إلاَّ ليعرِّفنا بأنَّ الإنسان إذا هو ظلَّ في نطاق

---

١ – سورة الفرقان: الآية (٤٣).

الإيمان الصوري ولم يجاوزه إلى الإيمان العقلي المبني على التفكُّر والتأمُّل والمستند إلى الدليل والبرهان فلا ريب أنَّ حاله يبقى مماثلاً لحال أولئك القوم من بني إسرائيل.

شكوك وارتياب، فسوق وعصيان، طمع بالأماني الباطلة، وضلال عن طريق الحق وبالتالي آلام وشدائد ومصائب حتى إذا ما فارق هذا الإنسان هذه الحياة الدنيا ووافته المنيَّة فلم يصل إلى الإيمان الحقيقي بلا إلَه إلا الله ولم يخرج من قلبه ذلك الشك والارتياب فليس له ولمن شايعه في الآخرة إلاَّ النار وحَبِطَ ما صنعوا في هذه الحياة الدنيا وبطل ما كانوا يعملون.

أما وقد عرَّفتك بهذا وحذَّرتك نتائج التهاون في هذه الناحية، ناحية الإيمان فلْتكن لكَ في السعي إلى الإيمان بلا إلَه إلا الله همَّة عالية واهتمام، إذ عليها تتوقَّف كما كنَّا بيَّنا من قبل سعادة الإنسان في دنياه وأُخراه.

ونظراً لأهمية ذلك تجد القرآن الكريم تدور آياته وسوره وبكلمة وجيزة يدور كلُّه حول هذه الكلمة:

فتارةً يسوق لك من الآيات الكونية المتتالية ما يعرِّفك بجلال هذه اليد المدبِّرة والقدرة العظيمة المسيِّرة.

وتارة يضع أمامك نماذج من بني الإنسان الذين كانوا مثلاً عُليا في التفكير الحر والبحث عن الإيمان بلا إلَه إلا الله وكيف أنهم استطاعوا أن يشقُّوا الطريق إليها رغم أنهم وُجِدوا في بيئات وثنية جاهلة، ثم يذكر لك النتائج التي وصلوا إليها والتأييد الإلَهي الذي لاقوه رغم ما واجههم من صعوبات، يورد تعالى لك ذلك كله ليستحث همَّتك ويُقوِّي عزيمتك ويوقظ تفكيرك لتلحق بهؤلاء الأخيار من الرجال وتكون في زمرتهم فتكتسب عمرك الثمين وتغتنم هذه الحياة.

وتراه أحياناً يورد لك من المواعظ البليغة والقصص المؤثِّرة ما يُذكِّرك بنتائج أولئك الذين جاؤوا إلى هذه الدنيا وانغمسوا في شهواتها فعموا وصمُّوا وحسبوا أنَّهم تُرِكوا سُدىً وبذلك عارضوا رسل ربِّهم فذاقوا وبال أمرهم وكان عاقبة أمرهم خسراً.

وفي أحيان يجعلك في موضع الناقد المقارن فيضع بين يديك نموذجين اثنين من بني الإنسان: قسم كان إيمانهم صورياً وألفاظاً تقليدية عارية من الحقيقة، وقسم كان إيمانهم عقلياً مبنياً على بحث وتفكير وبرهان ويصوِّر لك حال هؤلاء وهؤلاء ويُريك مواقف الفريقين وأعمالهم لتُقارن بذاتك وترى ما يفعله الإعراض عن الله في النفس من الانحطاط وما يولِّده الإيمان الحقيقي بالله في النفس من الأنس بالله والسمو والكمال فلعلَّك تسمو بنفسك إلى مراتب أهل الكمال.

وكثيراً ما يصرِّف لكَ تعالى في القرآن العظيم من الوعد والوعيد.

وكثيراً ما يضرب لكَ الأمثال ويصف لك نعيم أهل الجنَّة وشقاوة وآلام أهل النار ويذكر لك غرور الدنيا ويُذكِّرك بساعة الموت ومفارقة الحياة دفعاً لنفسك إلى الصدق في طلب هذا النوع من الإيمان الذي أشرنا إليه وبيَّناه، والذي هو أصل السعادة والحياة الطيِّبة في الدنيا والآخرة وبه النجاة.

ونقتصر في التفصيل ونرجع إلى الآيات التي نحن بصددها فنقول:

لقد وضع الله تعالى بين أيدينا من قصة بني إسرائيل نموذجاً من ذلك الإنسان الذي اعتقد اعتقاداً صورياً ولم يؤمن بربِّه إيماناً حقيقياً وأرانا وضع هذا الإنسان مع رسوله وعدم اطمئنانه إلى ما يسمعه من هذا الرسول وما يبلِّغه إيَّاه عن لسان الله فقال تعالى:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ}.

فهؤلاء القوم لمَّا أُمروا على لسان رسول الله ﷺ بأن يقتلوا أنفسهم لم تطمئن قلوبهم بادئ الأمر إلى أنَّ هذا الكلام الذي يُبلِّغهم رسولهم إيَّاه هو من عند الله لعدم كمالهم، بل حسبوا أنَّ رسولهم هو الذي ارتأى هذا الرأي ولعلَّه مخطئ في رأيه ولذلك لم يعتمدوا قوله ولم يطمئنوا إليه لخبث نفوسهم، بل طلبوا منه أن يروا الله جهرةً ليسمعوا منه ذلك مباشرة فقالوا لذلك الرسول الكريم:

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً).

أقول وهذا حالُ بعض الناس ممَّن لم يصلوا حقّاً إلى الإيمان برسول الله ﷺ فتراهم ينسبون الخطأ أحياناً إلى الرسول ﷺ في بعض أحكامه أو أقواله.

ولو أنهم عرفوا رسول الله حقَّ المعرفة لوجدوا أن رسول الله ﷺ لا يحكم حكماً ولا يُبيِّن رأياً ولا يقول قولاً إلاَّ بناءً على كلام الله ووفق ما أمره به الله، والحقيقة أنه كان كلامه القرآن وفعله أيضاً ترجمان للقرآن، بل كله تشريع وسنَّة ليسنَّ لنا سَيْرنا على الصراط القويم لأنه هو وحي يُوحى من قِبَل الله تعالى الكامل المطلق، فهو ﷺ دوماً مستنير بنور الله لا ينقطع عنه طرفة عين وحاشا أن يُخطئ المستنير بنور ربِّه أو يضل المستهدي بهداه تعالى.

وإلى مقام العصمة من الخطأ أشارت الآيات الكريمة، من ذلك قوله تعالى:

{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [١]

وبناءً على ما قدَّمناه وما أوردناه من آيات كريمة نقول:

كل ما يُنسب إلى الرسول ﷺ ممَّا فيه مظنَّة خطأ في قول من أقواله، أو فعل من أفعاله أو حكم من أحكامه إن هو إلاَّ بعدٌ عن الحق، وما يكون لمؤمن آمن

---

١ - سورة النجم: الآية (٣-٤).

بالله حقَّ الإيمان ثم آمن برسول الله ﷺ أن يظنّ ظنّاً من هذا القبيل أو يقع في قلبه تجاه ما جاء به رسول الله ﷺ وحَكَمَ به شك أو ريب.

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}[١]

أقول: وممَّا يتَّصل بهذا الموضوع ما يجول في رؤوس نفرٍ من الناس إذ يزعمون أنَّ بعض الأحكام التي بلَّغنا إيَّاها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم أصبحت على حسب التطور الزمني وضرورات الحياة لا تصلح لهذا العصر وأنَّه لا بدَّ لنا من أن نتطوَّر مع الزمن فنستبدلها بأحكام أخرى أكثر ملاءمة وأوفى بالحاجة.

ولو أنهم تعمَّقوا في الأمر لوجدوا أنَّ أوامره تعالى كلها خير ومحض سعادة لهذا الإنسان تتلاءم دوماً مع مصلحته لا تعدوها، والذي خلق الإنسان وأبدعه وخلق الكون كلّه من أجله على أتم تكوين وأبدع نظام أدرى بمصلحة هذا الإنسان وخيره وليس يعجزه تعالى أن يضع له قانوناً يكفل سعادته وخيره في كل عصر ومصر وكل زمان ومكان، فهو تعالى محيط بالزمان والمكان.

وهكذا فالقرآن الكريم بجميع ما جاء به من أحكام وأوامر ونواهٍ ودلالات وكل ما أورده من قصص وعبر وأمثال وإن شئت فقل القرآن الكريم بجملته صالح

---

١ – سورة النور: الآية (٤٧-٥٢).

لعصرنا تماماً كما كان صالحاً لعهد الرسول ﷺ والصحابة، وهو أيضاً صالح للبشرية كلها مهما امتدَّت بها القرون والأجيال لأنه تنزيل رب العالمين:

{.. وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (١)

ونعود الآن إلى بني إسرائيل وهم في طريقهم بصحبة رسولهم عليه السلام إلى الميقات الذي عيَّنه الله تعالى لهم بناءً على طلبهم، وكانوا إذ ذاك سبعين رجلاً نوَّاباً عن قومهم فلمَّا أضحوا في المكان المعيَّن وفيما هم ينظرون لوجه الله تعالى أخذتهم الرجفة، رجفة الموت لعدم استطاعتهم تحمُّل التجلِّي الإلَهي، ثم صُعِقوا وأضحوا جثثاً هامدة لا حراك بها ومات القوم، مات السبعون رجلاً ولم يبقَ إلاَّ سيدنا موسى عليه السلام وحده في الميقات منفرداً. قال تعالى:

{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ...} (٢)

وبهذه المناسبة لا بدَّ لنا من أن نقف قليلاً نوضِّح هذه النقطة التي شغلت تفكير أناس ممَّن لم يسلكوا طريق الإيمان الذي شرَّعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ في القرآن الكريم فراحوا يتساءلون:

لماذا لا نرى الله تعالى بأعيننا وكيف نؤمن به ونحن لم نرهُ؟.

إلى غير ذلك من أسئلة لا تعتمد قليلاً ولا كثيراً إلى شيء من التفكير ونحن في الردِّ على هؤلاء وتوضيحاً لهذه النقطة الهامَّة نقول:

تبيَّن لكَ ممَّا أصاب هؤلاء القوم من بني إسرائيل أن النور الإلَهي لا يستطيع الإنسان تحمُّله مباشرةً إذا لم تكن له سابقة أهلية واستعداد، ومن رحمة الله تعالى

---

١ – سورة فصلت: الآية (٤١-٤٢).

٢ – سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

بعباده أنْ يحجب نوره عن الناس الذين لم يؤهِّلوا أنفسهم ولم يعدُّوها الإعداد اللائق.

أرأيت إلى الكأس من الزجاج ذي البرودة الشديدة إذا أنت لم تُعدَّه الإعداد المناسب بتسخينه رويداً رويداً فإنه سرعان ما يتصدَّع بمجرَّد صبّ الماء الساخن فيه وهنالك يغدو عديم النفع لا تمكن الاستفادة منه، ولو أنَّه عُرِّض تدريجياً للحرارة حتى أصبح بحالٍ ملائم لما ضرَّه الماء الساخن ولما أثَّر فيه.

أقول: وكذلك الإنسان إذا هو لم يُعدَّ نفسه فما أسرع أنْ يُصعق ويموت إذا واجهته بارقةٌ من نور الله إنْ لم تكن لديه الأهلية والإعداد السابق فلا ريب أنَّ حاله هذا لا يختلف في شيء عن حال بني إسرائيل.

ونحن وإن كنَّا نقرِّب لك الحقائق بأمثلةٍ غير أننا لا نستطيع أن نجعلك تدركها الإدراك المطلوب لأن هذه الأحوال أبعد من أن تدركَ بمثال، أما إذا أنت سلكت طريق الإيمان الذي أرشدك إليه ربُّك وإذا أنت تابعت التفكير في التربية حتى وصلت إلى التقوى لتبدَّتْ لك بوارق من العظمة والقدرة الإلَهية ولرأيت من الرأفة والرحمة والعلم والحكمة والفضل والإحسان وغير ذلك من الأسماء الإلَهية، بل لشاهدت من الجمال والجلال الإلَهي اضعاف أضعاف ما يمكن أن تتصوَّره وهنالك تقدِّر خالقك بنسبة ما شهدت من أسمائه وترى أنَّك مهما أردت أن تُعبِّر عمَّا شاهدت فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلاً، لكنها أذواق ومشاهدات ملأت نفسك فجعلتها تخرُّ ساجدةً لما شاهدت مِنْ عظمة مَنْ لا تنتهي عظمته، وجمال وجلال مَنْ لا أول لجماله وجلاله وسائر أسمائه ولا انتهاء.

وهكذا فمعرفة الله تعالى وتصديق رسله لا تكون عن طريق الحس والرؤية بعين الرأس ولكن بطريق الاستدلال والتفكير الموصل إلى العقل ومشاهدة طرفٍ

من الأسماء الحسنى بعين النفس بصحبة نفس السراج المنير عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وكلَّما ازداد الإنسان في هذا الطريق تقدُّماً ازداد إلى خالقه شوقاً وإلى ربِّه عشقاً وبقدر عشقه وشوقه يتوسَّع في مشاهدة الأسماء الإلّهية ويرى وليس للنفس حدٌّ تقف عنده ولا سعةٌ معيَّنة لا تعدوها، بل إنَّ نفسك أوسع ممَّا تظنُّ وتتصوَّر.

إنها أوسع من السموات بما فيها وأكثر تحمُّلاً للنور الإلّهي من الجبال الراسيات جميعها وإذا كان الجبل العظيم يتصدَّع ويندكُّ من خشية الله فالنفس المؤمنة المرافقة لرسول الله ﷺ تحصل لها الخشية من الله وتشعر بجلال الله وتخشع له لكنها تثبت ولا تتصدَّع.

وإذا كانت السماء على عظمتها وكبير سعتها لا تتَّسع لأن تحصل لها المعرفة التي يمكن أن يصل إليها الإنسان، فالمؤمن أعظم سعة وأوعى من السماء وفي الحديث القدسي الشريف:

«**ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن**».

هذا أنت أيها الإنسان وهذا هو حالك وذلك هو شأنك عند الله فأنَّى تتحوَّل وأنَّى تُؤفك؟.

وهل لك من إلّه غير الله أم هل لك من خالق ورب رحيم سواه يرشدك إلى الطريق السوي الذي تشهد به طرفاً من الأسماء الإلّهية لتصبح من أسعد الخلْق وأسماهم وتتنكَّب الطريق وتأبى أن تأتي البيوت من أبوابها فتتطلَّب أن ترى الله جهرةً ويحلم سبحانه عليك ولو شاء لتجلَّى لك بشيء من نوره فذابت نفسك وذهبت شعاعاً كما يذوب الشمع ولصعقْتَ وفارقت نفسك جسدها.

أقول: ومن أسماء الله تعالى الحسنى المتكبِّر، فهو سبحانه لا يُري طرفاً من أسمائه إلاَّ لمؤمن ذي شوقٍ وعشقٍ لتلك المشاهدات يُريه بقدرٍ متناسب مع شوقه وعشقه مما يستطيع له تحمُّلاً ويكون له مستعدّاً.

أما النفس المعرضة فلا يُريها من ذلك شيئاً رحمة بها وعطفاً عليها، لعدم ميلها وشوقها.

ونعود الآن إلى بني إسرائيل الذين كنَّا نتكلَّم عنهم فنقول:

لمَّا رأى سيدنا موسى عليه السلام أن السبعين رجلاً الذين يريدون أن يشهدوا لقومهم قد صُعِقوا وماتوا جميعاً عزَّ عليه الرجوع إلى قومه منفرداً فخاطب ربَّه في سرّه قائلاً:

{رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ} [١]

يُريد ﷺ بذلك أن يصرِّح عمَّا في نفسه من الاعتراف بحلْم الله تعالى على قومه، فهو ﷺ يقول: يا ربّ إنَّ هؤلاء القوم استحقُّوا بما فعلوا من قبل الهلاك لمَّا عبدوا العجل، لكنَّك حَلُمْتَ عليهم ولم تُؤاخذهم بما صدر منهم رحمةً بهم وفضلاً منك عليهم.

وبكلمته هذه يرجو ربّه ضمنياً ومن طرفٍ خفي أن يحلم عليهم الآن كما حلم عليهم من قبل فيعيدهم إلى الحياة ليرجعوا معه إلى قومه فلئن عاد وحده وعرف قومه ما حلَّ بنوَّابهم قد ينقطعون عنه ﷺ جميعاً ولا يعود يجد المجال للأخذ بأيديهم إلى الإيمان ولذلك وحرصاً منه عليهم ورحمةً بهم خاطب ربَّه بذلك الخطاب، وتشير كلمة **{وَإِيَّايَ}** أن لو شئت يا رب لأعطيتني مبتغاي وطلبي

---

١ – سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

العالي من رؤياي لجمالك [1] السامي العظيم، ولو حقَّقت شهوتي الفاضلة لكان في تحقيقها ذوبان جسدي بسبب هذا التجلِّي الإلّهي الذي لا تستطيع الأكوان المادية تحمُّله فتتفكَّك ذرَّات جسمي، أما النفس بالآخرة فهي جوهر تتوسَّع وتستوعب كل كمال ومزيد جمال، فلو استجبت لطلبي هذا في هذا الحال الجسدي الدنيوي لهلكت وخسرت وظيفتي في الدنيا والتي بها نوال الجنَّات في الآخرة وبالتالي لخسرت مقام الخلافة التي منحتني إيَّاها لإنقاذ قومي وأمماً كثيرة من عبادك ستهتدي بهذا الهدي "التوراة" الذي هديتنا إليه ولخسرت هداية مخلوقات لا حصر لها فحلمت علي لمَّا أفقت وتبت إليك فكنت أول المؤمنين بك لهم.

فانظر إلى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ما أرحمهم بقومهم وما أشدَّ حرصهم على هدايتهم، ثم انظر إلى اعترافهم بحلم خالقهم وأدبهم في خطابهم مع ربِّهم وجميل تلطّفهم في طلبهم. ومن تعمَّق في هذه الآية الكريمة تذوَّق طرفاً ممَّا فيها من رحمةٍ وحرصٍ وأدبٍ وتلطُّف في الطلب واعتراف من إنسان كريم أقرَّت نفسه بعبوديتها لخالقها وعرفت عظمته تعالى فخاطبته بما يليقُ بجنابه العالي من خطاب.

ثم إن سيدنا موسى عليه السلام بعد أن استعطف ربَّه ذلك الاستعطاف بإعادة هؤلاء إلى الحياة صرَّح أيضاً عمَّا في نفسه من إيمان بعدالة الله واعتراف بأنَّه سبحانه

---

١ -**{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ربِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ}** سورة الأعراف (١٤٣).

لا يأخذ امرأ بجريرة غيره، بل يؤاخذ كُلاًّ بذنبه فقال على صيغة النفي القطعي بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا}:

أي: حاشا يا رب إن ذلك لا يكون، وإنك يا رب لم تُهلك هؤلاء إلاَّ بما فعلوا واستحقوا عليه الهلاك، ثم أضاف سيدنا موسى عليه السلام إلى القول الأول مُعلناً ما رآه في سرّه من عناية الله تعالى بأولئك الذين ملأ حبّ الدنيا وزينتها قلوبهم مبيِّناً أن الله تعالى إنما أخرج لهم بما فعلوه من اتِّخاذهم العجل ما استقرَّ في نفوسهم لتُمكن من بعد ذلك المداواة النفسية والعلاج فقال ﷺ وذلك ما بيَّنه القرآن الكريم في قوله تعالى:

{إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}.

وهكذا فهذه الكلمة تفيد من سيدنا موسى عليه السلام اعترافاً برحمة الله تعالى بهم، إذ يقول: يا رب إن هؤلاء القوم الذين لم يؤمنوا بك إيماناً حقيقياً يُطهِّر نفوسهم من حب الدنيا وزينتها وينتزع ما علق بها من أدران، بل ظلُّوا يؤثرون شهواتهم الدنية على ما أعددته لهم في الآخرة من فضل كبير وإنعام.

هؤلاء يا رب رحِمْتَهم بأن ابتليتهم بالسامري وجعلت من عمله سبباً لظهور حقائقهم وخروج ما كمن في نفوسهم فلعلَّهم بعد خروج شهواتهم الخبيثة منها يصبحون في حالٍ تمكن معه المعالجة وتفيد المداواة.

سيدنا موسى بكلمة **{إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ}** يقول: ما فعل ذلك السامري يا رب ما فعل إلاَّ بإذن منكَ وما ذاك إلاَّ لمعالجة هؤلاء ومداواتهم، وذلك فضلٌ منك عليهم ورحمةٌ وعنايةٌ بهم.

تلك هي فتنة [1] الله تعالى كما يراها سيدنا موسى ﷺ وكما يراها كلُّ مؤمن.

يُرسل تعالى للكافر والمعرض الذي استقرَّ الخبث في نفسه امرأ خبيثاً مثله وشخصاً مُعرضاً من جنسه فيُحبِّب إليه شهوته ويُزيِّن له سوء عمله فيراه حسناً ويستهويه ويباشره مفتوناً به، وعندئذٍ ومن بعد خروج الشهوة من النفس تكون المعالجة والمداواة فتنصبُّ الشدائد على هذا المريض مريض القلب صبّاً ويُنزل الله تعالى به من المصائب ما يجعله في ضيق وهمٍّ وغمٍّ فلا يجد ملجأ ولا منجىً من الله إلاَّ إليه. وهنالك وبمثل هذا الحال تجده يضلُّ عن الشهوات وتخلص نفسه من كثير ممَّا كان يجول فيها من دناءات.

وعن هذا عبَّر سيدنا موسى ﷺ بقوله وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

١ –الفتنة: تقول: فتنَ فلاناً، أي: بعث فيه الميل والإعجاب بالشيء. تقول: فتن المال الرجل، أي: استماله فاستولى على قلبه وأعجب به. وفتنت الدنيا فلاناً، أي: أنه رأى زينتها وبهرجها فمال إليها وأصبح معجباً بها، فهي موضع همه والشغل الشاغل لنفسه. كما تكون الفتنة أي: الإعجاب بالشيء الدنيء المنحط تكون أيضاً بالشيء الطيّب الطاهر، ولكل امرئ في هذه الحياة فتنة تتناسب مع حاله، فأهل الإقبال على الله الذين شهدوا بنوره الحقائق وميَّزوا الخير من الشر تجدهم يُفتنون أي: يميلون ويعجبون بالخير والكمال. والذين عميت بصائرهم بإعراضهم عن الله تراهم يفتنون أي: يميلون ويستهوون الأشياء الخبيثة الدنيئة لأنهم حُجبوا عن رؤية حقائقها المنحطة ولم يشهدوا غير صورها الظاهرة.

{تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ}: أي: إنَّك يا رب بهذه الفتنة التي تفتن بها أولئك المعرضين تُخلِّص نفوس فريق منهم من كثير ممَّا بها من أدرانٍ وتُضلُّهم عن دنيء الشهوات فلا يعودون يرونها ولا تعود تخطر لهم على بال.

{وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ}: ممَّن رجع إليك وأناب.

ثم أتبع سيدنا موسى ﵇ بقوله:

{أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}.

كل ذلك الخطاب الذي خاطب به سيدنا موسى ﵇ ربَّه وجميع هذه المعاني التي تعرَّضنا لها وأمثالها من معانٍ أخرى إنما ناجى بها سيدنا موسى ﵇ ربَّه في تلك اللحظة والبرهة الوجيزة لم يُحرِّك بها لساناً ولا شفةً لكنها معانٍ جالت في نفسه ومناجاةٌ وقف يناجي بها ربَّه في سرّه معبِّراً عن مشاعره بكمال خالقه معترفاً بفضله تعالى ورحمته بعباده متلطِّفاً في الطلب بإعادة أولئك إلى الحياة وبعثهم من بعد موتهم.. تدفعه إلى ذلك الرحمة بهم والعطف والحنان عليهم.

وسمع الله تعالى وهو السميع العليم مناجاة رسوله الكريم فاستجاب له وردَّ الذين صُعقوا وأعادهم إلى الحياة وبعثهم من بعد موتهم وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة بقوله تعالى:

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

* * *

ولربما تقول: من عجيب ما نراه في هذا التأويل أنَّك كثيراً ما تنتقل من تأويل آية وردت في سورةٍ ما إلى تأويل آية ثانية جاءت في سورة أخرى، فبينما تؤوِّل قصة بني إسرائيل الذين اتَّخذوا العجل الواردة في سورة البقرة استطردت إلى تفصيل هذه القصة بآيات أخرى من سورة الأعراف، ثم إنَّك في كثير من الأحيان تنتقل من تأويل الآية إلى موضوع من المواضيع فتفصِّل فيه تفصيلاً

يبتعد بالقارئ عن التأويل ذاته كما فعلت حين انتقلت من قصّة بني إسرائيل لمَّا أُمروا بقتل أنفسهم إلى الكلام عن طهارة النفس وطريق هذه الطهارة.

ومن أهم ما يلاحظ أنَّك تنتهز الفرصة كلما سنحتْ لتتكلَّم عن الإيمان والطريق الموصلة إليه وتُعرِّف بخطواته وتحثُّ على السير فيه وتبيِّن آثاره في النفس وما يعود به على صاحبه من السعادة والخير، وتتغلغل في ثنايا الموضوع وتتعمَّق فيه فتصل إلى أن الصدق في طلب الإيمان هو الأصل ومهما قدَّم الإنسان من أعمال فليس بمستطيع أن يصل إلى الإيمان ما لم يكن صادقاً. وهنا تقف فتتكلَّم كيف يتولَّد الصدق في نفس الإنسان وتبحث في الموضوع من شتَّى نواحيه بحثاً ضافياً، وكذلك مواضيع أخرى لا نطيل بالكلام عنها، فما علاقة هذه الأبحاث بالتأويل وما صلتها به، وهل التأويل الحقيقي هو الذي ينهج صاحبه ما نهجته أم يقتصر فيه على شرح الآيات الكريمة وتوضيح معاني الألفاظ من الوجهة اللغوية ودراسة القصص التي حدثت في سالف الأزمان والاطلاع على ما في هذا الكتاب الكريم من الأحكام؟.

وفي الجواب عن هذه النقطة أقول:

أتظنُّ أنَّ الذي عرف شرح الألفاظ وفهم ظاهر القصص الواردة في القرآن واطَّلع على ما فيه من أحكام وجعل يميِّز بين المجمل والمفصَّل والخاص والعام وأدرك ما فيه من مجازات واستعارات وما انطوى عليه من بلاغة القول وبديع البيان، وبتعبير آخر:

أتظنُّ لو أنَّ الإنسان قضى عمره كلّه في دراسة علوم القرآن جميعها حتى صار فيها أكبر مرجعٍ ولم يجمع إلى جانب ذلك كلّه السلوك في طريق الإيمان هل يستطيع هذا أن يدرك من حقائق القرآن طرفاً يسيراً؟.

أم هل تحسب أن قلبه يطهر ممَّا فيه من أدران ويصفو ممَّا يُعكِّره من كدورات؟.

أما سمعت قول الله تعالى مشيراً إلى طريق فهم القرآن بقوله الكريم:

{... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ...} [1]

{فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ} [2]

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...} [3]

{وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ} [4]

أتظنُّ أن العلم يكون بحفظ ما انطوت عليه الكتب من نصوص وأقوال، أم أنَّ الأصل الذي يُبنى عليه كل شيء هو الإيمان الحقيقي عن علم **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ...}** [5]

ذلك الإيمان المبني على نظر واستدلال وعلم وعقل؟.

وماذا يفيد الإنسان من دراسة قصص القرآن وآياته ومعرفة أحكامه إذا هو لم يعرف المراد الإلَهي من هذه القصص والأحكام؟.

وماذا يغني عن الإنسان حفظه شرح الألفاظ إذا هو لم يشاهد حقائق ما تنطوي عليه تلك الألفاظ ويفقه ما فيها من معان؟.

---

١ – سورة فصلت: الآية (٤٤).

٢ – سورة الواقعة: الآية (٧٥–٧٩).

٣ – سورة العنكبوت: الآية (٤٩).

٤ – سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

٥ – سورة محمد: الآية (١٩).

وأخيراً هل يمكن أن يسمو الإنسان ويصل إلى منازل الفضيلة والكمال ويصبح من أصحاب الأخلاق العالية والأعمال الصالحة الطيِّبة وأن يكون محسناً لنفسه وللآخرين، أم هل يستطيع أن يصل إلى السعادة، سعادة الدنيا والآخرة إذا هو لم يتوصَّل إلى هذا الإيمان الحقيقي الذي نطيل في ذكر طريقه ونفصِّل في بيان خطواته ونتكلَّم عن آثاره؟.

أليس القرآن الكريم يدور في آياته وسوره، بل بكلِّيته حول الإيمان بلا إلّه إلا الله والتعريف بعظمة الله سبحانه وقدرته، وعلمه وحكمته، وسائر أسمائه وأنه سبحانه هو ربُّ العالمين المتصرِّف في هذا الكون كلِّه فلا يقع واقعٌ إلاَّ بعلمه ومن بعد إذنه ولا يتحرَّك مخلوق إلاَّ بإمداده.

أليس ما جاء به القرآن الكريم في قصة سيدنا إبراهيم ﷺ وقد أحاطت به مئات وآلاف من الناس ينظرون وينتظرون أن يكون طعمةً للنار التي أوقدوها فكانت عليه برداً وسلاماً دلالةً وعبرةً على أنَّ الفعَّال المتصرِّف في هذا الكون هو الله وحده العليّ القدير، وأنَّه لا إلّه سواه؟. وأنه لا نار تحرق ولا سيف يقطع إلاَّ بإذنه تعالى؟.

وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام وقد ألقى عصاه وفي قصته لمَّا ضرب لقومه طريقاً في البحر يبساً، لا بل في قصّة تربيته في أحضان عدوِّه ألا نجد دلالةً واضحةً أوردها الله تعالى بمثالٍ حيٍّ ينطق به لسان الحال أن لا إلّه إلا الله. فهل العصا فعلت ما فعلت، أم هي يد الله تعالى المؤيِّدة لسيدنا موسى عليه السلام؟.

وكذلك ما نراه في قصة سيدنا يوسف ﷺ مع إخوته وقد كادوا له، أما بيَّن لنا تعالى أنَّه سبحانه لطيفٌ لما يشاء وأنه هو العليم الحكيم؟.

وهكذا إذا أنت رجعت إلى القرآن الكريم وتتبَّعت ما فيه من قصصٍ وأمثال وجدت فيه من لطيف الإشارة، وجميل العرض وبليغ البيان، وصريح الدلالة إلى

مبدأ التوحيد والتعريف بلا إلّه إلا الله ما يجعلك تثق، لا بل توقن بأنَّ هذا النوع من الإيمان هو المطلوب من كل إنسان وهو الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وسائر الرسل الكرام وهو الذي يدور حوله القرآن، وهو الذي يجب أن يدعو إليه كل مؤمن متَّبع لرسول الله ﷺ وأن التأويل الصحيح يجب أن يعرِّف الإنسان بما انطوت عليه السور والآيات والقصص من الدلالة إلى هذا النوع من الإيمان والتعريف بلا إلّه إلا الله وأننا مُحقُّون بما نلحُّ ونؤكِّد عليه:

{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [١]

ونعود إلى الآية الكريمة التي كنَّا نؤِّولها وهي قوله تعالى:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فنقول:

هذه الآية الكريمة انطوت على معانٍ عدَّة نذكر بعضها ممَّا يناسب المجال فنقول:

تتبدَّى لنا من خلال هذه الآية رحمة الله تعالى بعباده وحنانه عليهم فهو سبحانه لا يدعُ وسيلةً يمكن أن يهتدي بها الإنسانُ أو معالجة من المعالجات التي قد تجعله يُصلح من شأنه ويثوب إلى رشده إلاَّ ويطبِّقها تعالى له.

فهؤلاء القوم رغم ما فعلوا من اتِّخاذهم العجل، ورغم عدم تصديقهم لرسولهم . رحمة منه تعالى بهم وحناناً عليهم . غضَّ سبحانه عمَّا صنعوا وبعثهم من بعد موتهم لعلَّهم يطبِّقون العلاج الذي أمرهم به فتطهر نفوسهم ممَّا علق بها، وهنالك إذا ماتوا وانتهت بهم الحياة كانت قلوبهم نقيَّةً سليمة من كل ما بها من أدران ففازوا بما أعدَّ تعالى لهم من النعيم والخيرات.

---

١ – سورة يوسف: الآية (١٠٨).

وما ساق لنا تعالى هذه الواقعة وأمثالها ممَّا سيرد معنا من معاملته سبحانه لبني إسرائيل وحلمه عليهم إلاَّ لتتولَّد الثقة في نفوسنا برحمة الله تعالى ورأفته بنا فنتوب إليه وننيب ونعلم أنَّه تعالى وإن كنَّا أخطأنا من قبل رؤوف بنا ورحيم.

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ...}[١]

وممَّا يبدو لنا من خلال هذه الآية الكريمة أيضاً إمكانية هذا الإنسان للتوبة والرجوع. فإن كلمة **(لَعَلَّكُمْ)** الواردة في قوله تعالى: **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** تفيد أن الله تعالى لم يكتب "كما يزعم فريق" الشقاوة على أناس وأنهم مهما سعوا فليس لهم من طريق إلى الهدى والتوبة، فإنَّ هذه العقيدة وأمثالها نفتها هذه الآية وإن هي إلاَّ عقائد فاسدة زَعَمتها اليهود من قبل فقالوا: **{.. قُلُوبُنَا غُلْفٌ..}** [٢]

كما زعمها المشركون الذين ندَّد الله تعالى بهم في القرآن الكريم وبيَّن بطلان مزاعمهم في ذلك بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ}[٣]

وهكذا فكلمة **(لعلَّ)** التي تفيد معنى الترجِّي تبيِّن لنا معنيين اثنين:

أولهما: حرص الله تعالى على هداية الإنسان ورأفته به وشديد عطفه عليه، فهو تعالى يُنوِّع للإنسان المعالجات علَّه يؤوب ويتوب.

---

١ – سورة الشورى: الآية (٢٥–٢٦).

٢ – سورة الأنعام: الآية (١٤٨).

٣ – سورة الأنعام: الآية (١٤٨).

وثانيهما: إمكانية هذا الإنسان وقابليته للتوبة إذا هو شاء وأراد، ونفي تلك المزاعم الباطلة التي تقول إن الله تعالى كتب الشقاوة على أناس من قبل أن يُخلقوا ويأتوا إلى هذا الوجود.

وما هذه الآية الكريمة التي بما أشارت إليه من قصة وبما عبَّرت به من لفظ إلاَّ واحدة من مئات من الآيات الكريمة التي تبطل وتردُّ تلك العقائد الفاسدة التي تثبِّط العزائم وتقطع أمل الإنسان من رحمة الله وتقعد به عن السعي وتولِّد في نفسه اليأس والقنوط.

فثق أيها الإنسان برحمة ربِّك وحبِّه لك وحنانه عليك ولا تقنط فإنه لا يقنط من رحمة ربِّه إلاَّ الضالون ولا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون، قال تعالى:

{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (١)

{قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ} (٢)

وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (٣)

---

١ – سورة الحجر: الآية (٤٩).

٢ – سورة الزمر: الآية (٥٣–٥٥).

٣ – سورة الأنعام: الآية (٥٤).

ولو لم يكن طريق التوبة وسبيل الهدى والإيمان مفتوحاً وميسَّراً لكل إنسان، لما خاطب تعالى رسوليه الكريمين سيدنا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام يوصيهما بالرفق بفرعون، إذ يقول تعالى في سورة طه (٤٤):

{فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، بل لأهلَكَ تعالى الكافرين جميعاً ولما أرسل الرسل لهدايتهم ولما أظهر تعالى تلك المعجزات على أيدي رسله ولما أنزل الكتب عليهم ولما أمرهم بحرب أولئك المعاندين وقتالهم، لكنها رحمة الله تعالى اقتضت هذه العناية وهذا الحرص على العباد.

{... وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [١]

وأخيراً وبعد أخذ ورد، ومن بعد صعق وموت وبعث طبَّق بنوا إسرائيل ما أمرهم الله تعالى به على لسان رسوله الكريم.

وبما أنَّ أولئك القوم رأوا ما رأوا من سيدنا موسى عليه السلام من معجزات ظاهرة، وحيث أن اعتقادهم به أضحى بسبب ذلك قوياً لدرجة تحملهم على التصديق بكلامه وتُلزمهم بطاعته.

{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ...}

ولعلَّنا نتساءل متعجبين عن الشجاعة الأدبية التي ولَّدت في قلوب بني إسرائيل الجبناء هذا الإقدام الرهيب والجرأة المتناهية على قتل أنفسهم "والجود بالنفس أقصى غاية الوجود" فلنلتجئ إلى كتاب الله نستهديه ونستلهم منه تعالى فهم هذا الإشكال، ولنعد إلى الآية (١٧١) من سورة الأعراف: **{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ...}** وذلك عندما عبدوا العجل في غيبة سيدنا موسى عليه السلام

---

١ – سورة النور: الآية (٢١).

"والعجل ذهب على شكل صنم"، فلما رجع سيدنا موسى ﷺ إليهم ورآهم قد ضلوا، أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم فما صدَّقوه، ذهب معه السبعون نقيباً للميقات ليسمعوا أمر الله، عندها مال على بني إسرائيل الجبل متزعزعاً.

{وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ}: فأغمي عليهم.

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}: لما صحوا بعد الإغماء قال لهم سيدنا هارون ﷺ اتَّبعوا ما جاءكم به موسى ﷺ وطبِّقوه بقوة.

{وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}: أي: ما في نفس سيدنا موسى ﷺ من كمال.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}: أي تستنيرون بنوره الموصل لنور الله تعالى، عندها تتفتَّح بصائركم وتستنير قلوبكم فتروا الخير خيراً فتطلبوه والشر شرّاً فتتجنَّبوه، فأنتم والحالة هذه على نور دائمي حتى مطلع فجر الحياة الأبدية بعد الممات كما كنتم في الحياة وتحظوا بسعادة الدارين.

لذلك رغبة منهم بتطهير نفوسهم وخوفاً من عذاب الآخرة لم يَسَع الذين وقع "حب الدنيا العاجلة" في قلوبهم أولئك الذين عكفوا عليها إلاَّ الإئتمار بذلك الأمر الذي بلَّغه إيَّاهم على لسان الله فجعلوا يقتلون بعضهم بعضاً، وبذلك فَقد كان هذا النوع من المعالجة سبباً في خروج محبَّة الدنيا من نفوس أولئك الذين قُدِّموا للقتل وتوبتهم توبة صادقة وذلك ما عنته كلمة:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ).

فالله تعالى بهذه المعالجة الشديدة التي عالجهم بها في الدنيا عافاهم من عذاب النار، وبهذه المعالجة تاب عليهم أي: ردَّهم إليه ليرحمهم ويغمرهم في الآخرة بفضله وهو سبحانه التوَّاب الرحيم.

ولعلّك تقول: ألا يمكن تطهير أنفس هؤلاء من حب الدنيا إلاَّ بالذبح والقتل؟.

فنقول: ليس الذبح وليست الشدائد التي يسوقها الله تعالى للإنسان هي التي تطهِّر النفس وتزكِّيها، إنما الإقبال على الله والوجهة الصادقة إليه هي وحدها تطهِّر النفس، فإذا ما أقبل الإنسان على ربِّه بوجهة صادقة إليه وتخلَّل ذلك النور الإلّهي سارياً في ذرَّات هذه النفس فهنالك تطهر وتزكو ولا يبقى فيها جرثوم من جراثيم الشهوات الخبيثة ولا أثر من آثار الذنوب، ولو أن أولئك القوم سلكوا طريق الإيمان ففكَّروا وعرفوا خالقهم والتجأوا إليه لطهرت نفوسهم ولما احتاجوا إلى هذا الضغط الذي يضطرهم إلى الالتجاء إلى الله. ولو أنهم فعلوا ذلك وصلُّوا طوعاً وعن طيب نفس منهم لكانت طهارة نفوسهم بيسر ولطف. وقد بيَّن لنا تعالى شأن الصلاة وأثرها في النفس فقال تعالى:

{... إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...} (١)

فهذه الصلة بين العبد وخالقه، هذه الصلة التي عبَّرت عنها كلمة **{الصَّلاَةَ}** هي التي تكون سبباً في انمحاء الجراثيم من النفس وذهاب الأدران.

غير أن أولئك القوم بسبب عدم صلتهم بالله وعدم طهارة نفوسهم من حبِّ الدنيا، لذلك أُمروا بقتل أنفسهم فكان أحدهم إذا وضعت السكين على حلقومه وعاين الموت وعرف أنه في تلك اللحظة مفارق الدنيا لا محالة، هنالك وفي تلك اللحظة كان يُلقي الدنيا ويعاف ما فيها من شهوات دنيّة.

وفي مثل هذا الحال من نبذ الشهوة وإلقائها كان ينكشف عن النفس ذلك الحجاب الحاجز بينها وبين خالقها، فكانت تشهد كماله وتتمتع بجماله وتؤمن

---

١ – سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

إيماناً شهودياً بلا إلّه إلا الله وتموت ميتة حب وشهود وإيمان.. تموت ميتة سداها الحمد ولُحمتها الشكر لله على ما أنعم به وتفضَّل.

وكيف لا تحمد الله تعالى وتشكره وقد تفضَّل عليها بجنَّة الخلد تتمتع بشهود جمال من هو أحبُّ للنفس من كل شيء وأجمل لديها من كل شيء.. وكيف لا تحمده تعالى على تلك الشدَّة التي حلَّت بها وقد كانت سبباً لاستغراقها في نعيم مقيم يتَّصل أوَّله بتلك اللحظة التي فارقت فيها الحياة وودَّعت الدنيا، أما النهاية فليست له نهاية ولا حدٌّ مهما امتدَّ بها الأمد وطال فهي لا تبغي عنه بديلاً وهي لا تبغي عنه حِولاً.

تلك هي نتائج هذا الذبح على الذين سلَّموا أعناقهم للذبح، إنها جنَّة الخلد، إنه النعيم الأبدي. وذلك ما نفهمه من كلمة:

(.. فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

أما الذين أمسكوا برقاب مَنْ يذبحونهم، فقد كان أحدهم إذا أراد ذبح قريبه من أخ أو ابن أو غير ذلك ممَّن يعزُّ عليه، كانت تتفطَّر نفسه عليه أسى وتذوب حسرة وألماً. وهناك كانت الشهوة أيضاً تختفي من نفسه وتنمحي، لكن انمحاءها لم يكن مماثلاً لما وقع للذين ماتوا ذبحاً وإنما يختلف عنه اختلافاً ظاهراً، فقد كان الذبيح ساعة الذبح يلقي بالشهوة ويعافها وبذلك يزول عن النفس الحجاب الذي كان يحجبها عن ربِّها وهنالك تشهد جماله وكماله تعالى، وتدخل هذه النفس منذ ساعة موتها في ذلك النعيم الأبدي ولا يعود للشهوة سبيل للرجوع إلى نفسه إذ مات جرثومها وأضحى ميدان النفس بالإقبال على الله نقياً طاهراً.

أما الذين كانوا يقومون بذبح إخوانهم فكان انمحاء الشهوة من أنفسهم انمحاءً ظاهرياً كما كان آنياً مؤقتاً، وهم والحالة هذه بين أحد أمرين:

إما أن يسلكوا طريق الإيمان وقد انفتح أمامهم المجال وتمهَّدت السبل ولم يبقَ في النفس ما يعوقها عن التفكير بآيات الله والنظر في هذا الكون والتعرُّف منه إلى خالقه ومربِّيه.

وإما أن يتناسوا ما حلَّ بهم ولا ينتهزوا هذه الفرصة السانحة وذلك الصفاء الذي أحاط بنفوسهم، بل يعودون إلى الاشتغال بالدنيا والانصراف إليها، وهنالك تعود الشهوة الخبيثة التي لم يمتْ جرثومها فتنبت من جديد في نفوسهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه من قبل وما تزال الرحمة الإلَهية تسوق لهم من الشدائد والمصائب ألواناً وأنواعاً.

{... وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} (١)

فإن انتهز الإنسان الفرصة ورجع بعد كشف البلاء عنه إلى الله سالكاً طريق الإيمان فهنالك يسري الإيمان إلى نفسه وتكون تلك الشدائد خيراً كبيراً وتكون أيامه ملأى بعمل الإحسان والخير، فإذا ما انتهت به مرحلة الحياة ومات ميتة الأبرار حشر مع النبيين والصدِّيقين والشهداء وكان أعظم مقاماً وأقرب إلى الله زلفى من أولئك الذين قدَّموا أنفسهم للذبح فماتوا ودخلوا في النعيم، فهو بما بين يديه من أعمال، أقرب منهم إلى الله تعالى مكانة وأحظى لديه شأناً، وأسعد به منهم في شهوده لجمال الله وكماله الذي لا يتناهى.

وما مثل هذين إلاَّ كمثل طفلين مات أحدهما صغيراً ولما يبلغ الحلم، فهو بما اتَّصفت به نفسه من طهر وبراءة وعدم تلوُّث بذنب، أهل لكل قرب وإكرام ونعيم، وعاش الآخر حتى بلغ مبلغ الرجال وسلك طريق أهل الصدق والإيمان

---

١ – سورة الرعد: الآية (٣١).

وكانت له من إيمانه أعمال صالحة وتضحيات، فهو والحالة هذه أسعد من الذي مات صغيراً، وهو بما قدَّم من أعمال صالحة وتضحيات أرفع عند الله من الأول بمراتب ومنازل ودرجات، وهكذا فالمصائب من الله تعالى والشدائد في هذه الحياة أسباب للدخول في مداخل الإيمان وهي كلها عبارة عن أدوية لهذه النفس وعلاجات تعالج الشهوة الخبيثة لتُزيل ما بينك وبين الله من حجاب، فإن انتهزْت الفرصة وسلكْت طريق الإيمان فقد أفلحت ونجحت، وهنالك تحصل لك الصلة بالله وتستطيع أن تقيم الصلاة فتكون من أهل السعادة وتكون ممَّن جاء إلى هذه الدنيا فعرف ثمين قيمتها وغالي شأنها فاكتسبها ولم يضيِّعها.

{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [1]

أما وقد بيَّنا ما بيَّناه لك فاعرف طريقك وكن يقظاناً لما يسوقه الله تعالى لك من مكاره ومصاعب واعلم أن الحمد لله على كل حال، فأنت بصفتك الإنسانية وقابليتك للإيمان ما خُلقت وأُخرجت إلى هذه الدنيا لتأكل وتشرب وتفعل كما يفعل الحيوان وتنحط إلى أسفل منه بدرجات.. لقد أُخرجت إلى الدنيا لهدف سام وغاية عالية أُخرجت لتسعى وتجد وتجاهد فتكون من أهل النعيم الأبدي المقيم وما هذه الحياة الدنيا إلاَّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان "حياة الديمومة الأبدية".

فانظر إلى رحمة الله تعالى ببني إسرائيل وانظر إلى رحمته بهذا الإنسان، وانظر إلى رحمته بك، إذ ذكر لك تلك القصة ليوقظك ويحذِّرك ويعرِّفك.

أما بنوا إسرائيل الذين عاشوا بعد أولئك القوم.. بنوا إسرائيل الذين لم ينتهزوا تلك الفرصة التي سنحت لهم بعد أن انفتح لهم طريق الإقبال على الله وتمهَّدت

١ - سورة العنكبوت: الآية (٦).

أمامهم سُبل التفكير فقد عادوا إلى ما كانوا عليه من حبِّ الدنيا واستغراق في شهواتها الدنيَّة.

والشهوة الدنيَّة هي سبب الحجاب والبعد عن الله، وحب الدنيا هو المرض العضال الذي إذا حلَّ في قلب امرئ فلا صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة، ولو أنه صلى في اليوم مئة ركعة وصام الدهر كلَّه وحجَّ في كل عام حجَّة فلا سبيل لهذه النفس إلى الله وهي لا تستطيع الإقبال عليه ما لم ترفع ذلك الحجاب وتتخلَّص من تلك العلّة.

نعم قاموا يقتلون أنفسهم ومات منهم بسبب ذلك من كانت هذه الميتة الأليمة خير دواء لنفسه وأكبر علاجٍ وبقي من بقي ممَّن كانت تلك العملية في ذبحه ذويه أول معالجة من سلسلة لمعالجات ستتلوه من بعد وستُطبَّق عليه، فلعلَّه إن لم يُفِدْ من معالجةٍ أفاد من مُلاحِقَتِها والأمر كلُّه موقوف على مبلغ إقبال العبد على ربِّه ورجوعه إليه.

ولو أنَّ هذا الإنسان أقبل على ربِّه كما ذكرنا من قبل ذلك الإقبال الكافي لطهرت نفسه ممَّا بها ولما احتاجت إلى تلك الشدائد كلها، وما يفعل الطبيب بالأدوية الكريهة والعلاجات العديدة يصفها لولده المريض إذا هو برئ من علَّته، وهل من المعقول أن يستمر في تطبيق المعالجة له إذا شفي ولم يبقَ به شيءٌ من مرضه؟.

ذلك مثل سقناه لنقرِّب لك به ما نريد من معنى والله تعالى أرأف بعباده وألطف وأرحم بهذا الإنسان وأعطف عليه من أبويه والناس أجمعين، فما أن تطهر نفس العبد وتُشفى ممَّا بها حتّى يرفع الله تعالى الشدّة عنها ويصرفها.

{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً} [1]

ولكن هل أفاد هؤلاء القوم الذين ظلُّوا على قيد الحياة من تلك الشدة التي حلَّت بهم؟.

وفي الجواب عن هذا أقول:

إذا كان قسم منهم قد أفادوا من هذه المعالجة وهم الذين سلَّموا أعناقهم للذبح لرضاء الله وبغية الخلاص من محبّة الدنيا الدنية واتقاء الغضب والنيران الأبدية "هؤلاء كان مصيرهم الجنَّة"، فإن قسماً آخر لم يفيدوا شيئاً وهم الذين لم يغتنموا هذه الفرصة من زوال حب الدنيا من قلوبهم ويؤمنوا بالله حقاً من ثنايا آياته الكونية، والدليل على ذلك أنَّهم لمَّا أُمروا بدخول الأرض المقدَّسة وقتال من فيها من أهل الكفر والطغيان لم يذعنوا لأمر رسولهم، بل جبَّنوا وامتنعوا عن لقاء الأعداء وخافوا أن يكون نصيبهم من هذه المعركة الموت.

وإليك الآيات الكريمة التي تشير إلى ذلك من قوله تعالى في سورة المائدة:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ، يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

---

١ – سورة النساء: الآية (١٤٧).

الْفَاسِقِينَ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [1]

تلك هي حال هؤلاء وذلك هو جوابهم لرسولهم وموقفهم منه.

وإنك لتعجب كل العجب من موقفهم هذا وتقول:

أبعد أن أنجى الله تعالى هؤلاء على يد رسوله وخلَّصهم من فرعون يسومهم سوء العذاب يذبِّح أبناءهم ويستحي نساءهم؟.

أبعد أن رأوا ما رأوا من المعجزات الظاهرة التي أيَّد الله تعالى بها رسوله الكريم من إبطال السحر وانجماد البحر، ثم غرق عدوَّهم وهم ينظرون؟.

أبعد أن تجلَّى الله تعالى عليهم بنوره وصُعقوا لعظيم ما رأوا وشهدوا؟.

أبعد أن قتلوا ذويهم يذبحونهم ذبح النعاج وتقطَّعت أنفسهم عليهم حسرات؟.

أبعد هذا كلّه يقفون من رسولهم هذا الموقف ويقولون ممتنعين:

{... إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}.

أيكون هذا جواب مؤمن لرسوله؟.

أيُقابَل الرسول بمثل هذا الجفاء من بعد أن رأى منه ذلك الإنسان ما رأى من معجزات وسمع ما سمع من آيات بيِّنات؟.

ترى لماذا لم يفد هؤلاء من كل ما رأوا وجميع ما حلَّ بهم من بليَّات؟.

ما هذه القوة المعنوية التي تصدُّ هؤلاء عن التطبيق، ما هذه الموانع التي قامت تحول بينهم وبين الإذعان والتصديق؟.

---

١ – سورة المائدة: الآية (٢٠-٢٦).

وما تفيد الشدائد في هذا الإنسان ما دامت لا تطهر نفسه من الأدران ولا تردّه عمَّا هو عليه من طغيان؟.

وفي الجواب عن هذا أقول:

ليست هنالك من قوة معنوية تصدُّ الإنسان عن تطبيق أوامر خالقه، وليست هنالك موانع تحول بينه وبين الإذعان والتصديق، وإنَّ مثل هذه الاعتقادات تتنافى مع صحيح الإيمان ولا تتوافق مع رحمة الله تعالى وعدالته ورأفته بهذا الإنسان.

ولو كانت هنالك موانع لما كانت ضرورة للتضييق على الإنسان وسوق الشدائد والبليّات، بل لكانت هذه الشدائد والمصائب ولكان إرسال الرسل بالبيِّنات نوعاً من العبث وحاشا لمبدع السموات والأرض وفاطر الإنسان وموجد الكون على هذا النظام أن يعبث بالإنسان ذلك المخلوق الضعيف وإنه ليس يصدر من هذا الرب العظيم إلاَّ كل كمالٍ وخير. قال تعالى:

{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} (١)

وإذن فهذه المعالجات كلّها من الله تعالى حق ولهذه المعالجات أهدافها وغاياتها ويتلخَّص جوابنا على قول من قال ماذا تُفيد الشدائد في هذا الإنسان ما دامت لا تطهر نفسه من الأدران ولا تردُّه عمَّا هو عليه من طغيان بما يلي:

ما دامت النفس متعلِّقة بالدنيا وشهواتها معرضة عن خالقها وعن الوجهة إليه لا يمكن لها أن تطهر من أدرانها بوجه من الوجوه.

والسبيل الوحيد لطهارة النفس وزكاتها إقبالها على خالقها.

---

١ - سورة الأنبياء: الآية (١٧-١٨).

أما المرض والفقر والشدائد والمصائب فإنما هي وسائل تقطع النفس عن الدنيا وتصرفها عن شهواتها وتجعلها في شُغل عنها فلعلَّ هذا الإنسان حينما ينقطع عن الدنيا بسبب شدّةٍ من الشدائد التي حلَّت به ينيب إلى ربِّه ويتعرَّف إليه، وهنالك تتفتَّح أمامه سُبُل الإيمان من بعد أن رَفَعَت الشدائد من طريق النفس ما كان يعترضها من حواجز الشهوات، فإذا ما توصَّلت النفس إلى الإيمان وأُريد به الإيمان بلا إلّه إلا الله وتحقَّقت بها فما أقرب ما تصل إلى الطهارة وما أيسر وما أهون الوصول إلى الكمال.

وبشيء من التفصيل وزيادة في إيضاح ما قدَّمناه من بيان الغاية من الشدائد وموقف الإنسان منها نقول:

كل امرئ منَّا، لا بل كل إنسان ذي وعي وإدراك إذا ألمَّ به مرض من الأمراض أو نزلت به مصيبة من المصائب تراه في مثل هذه الحال يعافُ الدنيا ويكرهها ولا تعود تخطر له شهواتها على بال. ولكن هل زالت الشهوات من هذه النفس بالكليّة، وهل طهرت من أدرانها؟. سيكون الجواب على هذا السؤال نفياً:

فالمصيبة لم تنتزع جراثيم الشهوة الخبيثة ولم تقضِ عليها ولم تَمْح العلَّة من النفس لكنَّها أخمدت الجرثوم ودوَّخَتْه وسترت العلَّة ستراً آنياً وما هذه الكراهية التي حلَّت بالنفس تجاه الدنيا وشهواتها إلاَّ كراهية مؤقتة قد لا تدوم طويلاً فإذا لم تغتنم النفس الفرصة، وإذا هي لم تتعرَّف إلى الله تعالى ولم تؤمن به من بعد الشدة، فما أسرع ما تعود الشهوة وتظهر في ساحة النفس حتى أنَّ ظهورها قد يكون أكثر وضوحاً وفتكها في النفس قد يكون أشدُّ خطراً.

ولذلك وتلافياً للأمر واغتناماً للفرصة يجب على الإنسان إذا هو أصبح في حال الأمن من بعد الخوف، والصحة بعد المرض، وإن شئت فقل في حال

الرخاء من بعد الشدة أن يبادر إلى التعرُّف إلى ربِّه الذي لم يجد في حال المصيبة ملجأ إلاَّ إليه وموئلاً سواه.

يجب على الإنسان وقد استجاب الله دعاءه فبدَّله من بعد خوفه أمناً أن يسلك طريق الإيمان فيفكِّر، وما أيسر التفكير في مثل هذه الحال.

يجب عليه أن يغتنم هذه الفرصة العظيمة لأنَّ النفس قد انضمَّت إلى الفكر وأضحت سُبُل التفكير مذلَّلة مُيسَّرة.

وهكذا إذا فكَّر الإنسان باحثاً عن الإيمان بلا إلَه إلاَّ الله وسرعان ما يصل وهو في مثل هذه الحال إلى ذلك المطلب العالي، فلا شك أنَّ إيمانه هذا يجعله في حصن الاستقامة الحصين فحيثما اتَّجه وأنَّى أقبل يرى الله تعالى شاهداً رقيباً، وتولِّد هذه الاستقامة لديه وكما رأينا من قبل ثقة برضاء الله تعالى عنه فيقبل على الله بكلِّيته ويشعر بالقرب من الله جلَّ جلاله في صلاته، وهنالك يطهِّر هذا الإقبال، وإن شئت فقل يطهِّر ذلك النور الإلَهي النفس تطهيراً حقيقياً ممَّا علِق بها من جرثوم الشهوات ويُنقِّيها من أدرانها تنقية متناسبة مع إقبالها. وإلى جانب ذلك أيضاً يصبغ هذا الإقبال النفس بصبغة الكمال.

أمَّا وقد بيَّنْتُ لك طريق الطهارة النفسية الصحيحة وعَرَّفْتُك بطرف من المراد الإلَهي والرحمة الإلَهية في سوق البلاء والشدَّة، أعتقد أنه أضحى من اليسير عليك أن تفهم بعض المراد من قوله تعالى:

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (١)

وبعض المراد أيضاً من قصة أصحاب الجنَّة التي أوردها تعالى في سورة القلم مبيِّناً فيها أن البلاء الذي أصاب أولئك المزارعين الذين تحدَّثت عنهم تلك

---

١ – سورة السجدة الآية: (٢١).

القصة كانت سبباً في رجوعهم إلى الله تعالى ورغبتهم إليه ممَّا عقَّب تعالى عليه بقوله الكريم:

{كَذَلِكَ الْعَذَابُ...} [١]

يريد تعالى تعريفنا بأنَّ الغاية من العذاب رجوع الإنسان عن غيِّه ورغبته إلى ربِّه.

على أن الناس ليسوا سواء تجاه هذه الشدائد والمصائب، بل هم أحد رجلين:

. رجل اغتنم فرصة الراحة والرخاء من بعد الشدَّة والبلاء وجدَّ في التعرُّف إلى الله تعالى حتى اهتدى إليه ووصل إلى الإيمان الصحيح، وهنالك تغمَّده الله برحمته وغمره بفيض من برِّهِ وإنعامه فجعل يشكر الله على ما ساقه إليه من قبل لأنه وجد أنَّ منْعه تعالى هو عين العطاء، وبلاءه وشدائده كانت لنفسه خير علاج ودواء وسبباً في ذلك الرخاء ولله الحمد على كل حال.

. ورجل أضاع الفرصة ففرح بانكشاف الغمَّة وعاد من بعد المصيبة والشدّة إلى الانغماس في الشهوات والملذَّات فبشِّره من بعد هذه المصيبة بمصيبة أكبر وشدَّة أعظم، وما يزال هذا الإنسان تحت المعالجة والمداواة، وما تزال المصائب تترى متزايدة في الشدَّة حتى يرجع ويتوب أو يموت وقد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

{... وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [٢]

---

١ – سورة القلم: الآية (٣٣).

٢ – سورة الرعد: الآية (٣١).

وقد ذكر لنا تعالى حال الرجلين الذين قدَّمنا الكلام عنهما في كتابه الكريم وأشارت إلى حال الأول الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [1]

وأشارت الآيات التالية إلى حال الثاني فقال تعالى:

{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [2]

وقد حذَّر تعالى في الآيات التي سنذكرها الآن من الإعراض والغفلة في حال الرخاء بعد الشدة فقال تعالى:

{رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً، أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً، أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً} [3]

---

١ – سورة لقمان: الآية (٣٢).

٢ – سورة يونس: الآية (٢٢–٢٣).

٣ – سورة الإسراء: الآية (٦٦–٦٩).

على أنَّ هذه الآيات الكريمة وسابقاتها وإن كانت تصف في ظاهرها حال أناس مسَّهم الضر في البحر فلم يجدوا ملجأ إلاَّ إلى الله تعالى فجعلوا يدعونه مخلصين له الدين، لكنها في الحقيقة تتضمَّن أيضاً رمزاً هادفاً لحال الإنسان تجاه كل مصيبة ومحنة.

وما الإنسان الوادع المطمئن في هذه الحياة إلاَّ كالمسافر في البحر "بحر الحياة" وقد جرت به الفلك بريحٍ طيبةٍ وفرح بها، وما المصائب والشدائد إلاَّ كالعواصف والأمواج تحيط بالفلك من كل مكان تهدِّد هذا الإنسان الغافل بالغرق فيستسلم إلى الله تعالى داعياً مستغيثاً.

وما حال الإنسان وقد رفع الله تعالى عنه الشدَّة والمحنة إلاَّ كحال أولئك وقد أنجاهم تعالى إلى البر.

وما التهديد بخسف البر أو الإعادة إلى البحر وإرسال قاصفٍ من الريح إلاَّ إنذار بمحنة كبرى تنتهي بهلاك محتَّم وعذاب مقيم تحلُّ بالإنسان إذا هو عاد إلى الذنب بعد التوبة وإلى الإعراض بعد رفع الشدة.

أما وقد تبيَّن لك ما أشكل فهمه من نقاط وعرفت شيئاً من حكمة الله تعالى فيما يسوقه لعباده من شدائد وما ينزله بهم من مصائب واتَّضح لك السبب في عدم إفادة هذا النفر من بني إسرائيل ممَّا طُبِّق عليهم من علاج فسأذكر لك الحلقة الثانية من سلسلة المعالجات التي طُبِّقت عليهم فأقول:

لمَّا امتنع بنوا إسرائيل عن تطبيق أمر رسولهم بدخول الأرض المقدَّسة وجبَّنوا عن الجهاد فلم يروا ما انطوى عليه ذلك الأمر الإلّهي من الخيرات.. السبب حيث ما صار لهم إيمان رأوا الله بعيداً عنهم، "أما المؤمنون كمن قاتلوا مع سيدنا داوود ﷺ فعرفوا أن الله ناظر رقيب فأولئك لهم الخيرات وأولئك هم الفائزون".

أما هؤلاء الذين لم يؤمنوا لِتمكُّن حب الدنيا من قلوبهم فقد قذف الله تعالى بهم في الصحراء يتيهون في الأرض وظلُّوا على ذلك أربعين عاماً لا يعرفون إلى الخلاص من هذه المتاهة سبيلاً.

وإنك لتحسب لأول وهلة أن هذه الشدَّة التي حلَّت بهؤلاء إنما هي تنكيلٌ من الله تعالى بهم وعقوبةً لهم على عدم طاعتهم، غير أنك إذا تعمَّقت ودقَّقت وجدت الأمر خلاف ما يتبادر لذهنك وغير الذي تصوَّرت وتعالى الله الملك الحق عن هذا وتنزَّه عن أن يقسو على هذا الإنسان لمجرَّد المخالفة والعصيان، لكنه سبحانه إنما يداوي بتلك الشدَّة أنفساً مريضةً وقلوباً عليلةً لعلَّ هذه الشدائد تكون سبباً في الشفاء وطريقاً إلى النعيم والرخاء وليس يصدر عن الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء إلاَّ ما فيه الرحمة والرأفة والخير وكل ما يُعاملك تعالى به ولو لم يوافق مرادك ومبتغاك هو منه تعالى عين الحكمة وهو لك أحسن دواء وأنجع علاج، وليس يخرج عن أن يكون ممزوجاً بالرحمة، لا بل مجرَّد رحمة وعطف وحنان.

فسبحانك ربِّي ما أرحمك وما أعطفك وأكبر فضلك وأوسع إحسانك.

لو عرفك العباد كما ينبغي ويليقُ لما انقطعت أنفسهم عنك طرفة عين وما صدَّهم عن طاعتك وما أبعدهم عنك إلاَّ الجهل وعدم معرفتهم باسمك الرحمن الرحيم.

فلكَ الحمد على فضلك وإنعامك، ولكَ الحمد على خيرك وإحسانك، ولكَ الحمد على المرض بعد الصحة، والصحة بعد المرض، ولكَ الحمد على الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر والفاقة، ولكَ الحمد على الأمن بعد الخوف والخوف بعد الأمن والطمأنينة، ولكَ الحمد على كل ما تسوقه لعبادك كافَّة.

عرفك المؤمنون بكَ حقّاً فاتَّخذوك وكيلاً واستسلموا لفعلك واطمأنت قلوبهم بذكرك وغفل عنك الغافلون وأساؤوا الظنون فما عاملتهم إلاَّ بما يليق بكمالك من عطفٍ وحرصٍ عليهم وعناية وأنت الغني ومالك بهم من حاجة، فلكَ الحمد كله خالصاً ولكَ الدين واصباً، ولكَ الحمد على كل حال.

* * *

كيف ظلَّل الله تعالى على بني إسرائيل الغمام وأنزل عليهم المنَّ والسلوى؟

ونعود الآن إلى بني إسرائيل في التيه فنقول:

أول ما بدأهم به تعالى من بوادر الرحمة أن ظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وأشارت إلى ذلك الآيات الكريمة في قوله تعالى:

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

ولعلَّك تقول: لماذا كتب الله تعالى على هؤلاء القوم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة لا يجدون في تلك الصحراء طريقاً يخرجون به من هذه المتاهة وظلَّل عليهم إلى جانب ذلك الغمام وأنزل عليهم المنَّ والسلوى؟.

وفي الجواب عن هذا نقول:

لكل امرئٍ في هذه الحياة أجلٌ معيَّن لا يستأخر عنه ساعةً ولا يستقدم، وحيث أن هؤلاء لم ينتهِ أجلهم بعد، لذلك من الرحمة الإلَهية بهم ألاَّ يُحرموا من العلاج ما داموا في هذه الحياة، وبما أن العلاج الوحيد لهذا الإنسان معرفته بربّهِ ووصوله إلى الإيمان الحقيقي بلا إلَه إلا الله لذلك زجَّ الله تعالى بهم في التيه من بعد أن أعلمهم بذلك على لسان رسولهم ﷺ فلعلَّهم إذا هم رأوا أنفسهم يتيهون في الأرض ثم رجعوا إلى ذلك الإخبار الذي سمعوه من رسولهم من قبل يربطون الحوادث ببعضها ويتعرَّفون إلى أنَّ ما حلَّ بهم "بسبب عصيانهم"هو من عند

الله، وأنَّ التصرُّف في هذا الكون راجعٌ إلى الله تعالى وحده وهنالك يلتفتون ويلتجؤون إليه تعالى ويعلمون أن السير بيده سبحانه وهنالك يعقلون الحقيقة وهي أنه لا إلّه إلا الله، فلا يكتفون أن يقولوها بألسنتهم قولاً، بل يتوصَّلون إلى الإيمان بها حقّاً كما يصلون إلى الإيمان برسولهم إيماناً حقيقياً ولا يظلُّون محبوسين في تلك الدائرة الصغيرة من التصديق والاعتقاد.

ثم إنه من لطيف العناية الإلّهية بهم أنَّ الله تعالى لم يدعهم في تلك الصحراء القاحلة التي لا ظلال فيها من أشجار أو جبال ولا طعام فيها ولا ماء عرضةً للشقاء والهلاك، بل ظلَّل عليهم الغمام يسير معهم أنَّى ساروا وحيثما ارتحلوا وأنزل عليهم المنَّ والسلوى طعاماً طيِّباً لا يجدون مثله في المدن الآهلة والرفاه، وما ذاك أيضاً إلاَّ ليفكِّروا ولو قليلاً فيتعرَّفوا من وراء هذه الحوادث إلى الله تعالى ولتكون هذه الظاهرات من مرافقة الغمام والإمداد بالغذاء في تلك الأرض القفراء سبباً في تحريك أفكارهم الخامدة فلعلَّهم يتعرَّفون إلى تلك اليد القديرة ذات الإحسان المتواصل والرحمة الدائمة.

وبالحقيقة غمام يُظلِّل الإنسان في تلك الصحراء المحرقة يسير معه أينما سار خلال عشرات الأعوام ظاهرةٌ تستدعي التفكير وتجتذب الانتباه وليس يقل عنها شأناً تلك الظاهرة الأخرى من نزول المنِّ والسلوى.

أفبعد هذه العناية وبعد هذا الحلم الإلّهي وتلك الأنواع الشتَّى من المعالجة يستطيع أو يجرؤ إنسان على القول بأنَّ الله تعالى كتب على أناس من قبل أن يُخلقوا ويأتوا إلى هذه الحياة الشقاء والآلام وأنَّه خصَّص أُناساً بالهدى والإيمان وجعل آخرين أهل كفر وطغيان؟.

تنزَّه الله تعالى عن هذا، وما قال تلك الأقوال الباطلة من قالها إلاَّ بسبب عدم رجوعه إلى آيات الله وعدم تدبُّره مراميها ومقاصدها، وقد يظنُّ الإنسان لكثرة ما

يسمعه عن معاملة الله تعالى لبني إسرائيل وحلمه عليهم أنَّه خصَّ هؤلاء القوم بمزيد من العناية فعالجهم بمعالجات عديدة لم يتكرَّم بمثلها على غيرهم من الأقوام.

والحقيقة أن الجواد الكريم والرب العظيم لا يقتصر إحسانه على أُناسٍ دون أُناس، بل يشمل برُّه سائر العباد وجميع المخلوقات، وإنَّك إذا تتبَّعت الحوادث أو تعمَّقت فيما ورد في القرآن الكريم من شواهد لعرفت ذلك ولآمنت به حقَّ الإيمان وكل ما ذكره الله تعالى عن بني إسرائيل إن هو إلاَّ نماذج وأمثلة عن معاملة الله تعالى لعباده كافةً، حتى إنك لو تعمَّقت ودقَّقت لوجدت تلك العناية الإلَهية التي أحاطت ببني إسرائيل وغيرهم من الأقوام هي هي مع كل فرد من الأفراد تتكون مع كل امرئ على حسب حاله وبما يتناسب مع نفسيته وما فيها من علل وأدران.

والحكمة الإلَهية تُمازجها الرحمة والرأفة واللطف، تعطي كل امرئ مناسباته، ولو أنَّ هذا الإنسان نظر مفكِّراً في آيات هذا الكون حتى اهتدى إلى الله تعالى وآمن حقَّ الإيمان بأنه لا إلَه إلا الله لما احتاج إلى جميع هذه المعالجات، لكنه ظلم نفسه بعدم تفكيره هذا وانصرافه إلى الدنيا وشهواتها.

وقد أشار تعالى إلى ذلك بمعرض الكلام عن بني إسرائيل الذين ضلُّوا في التيه فقال تعالى:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

وقد بيَّنت الآية التالية والتي تليها ما كنَّا أسلفنا شرحه فذكرت أنَّ سبب الوقوع في هذه المتاهة عصيان هؤلاء النفر رسول ربِّهم لمَّا أُمروا بدخول الأرض المقدَّسة فقال تعالى:

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

ولكن لماذا أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدَّسة وقتال من فيها كما أشارت إلى ذلك الآيتان اللتان نحن بصددهما وما ورد أيضاً من آيات بهذا الخصوص في سورة المائدة؟.

ولبيان الجواب عن هذا نقول:

ما أخرج الله تعالى الإنسان إلى هذا الوجود وما خلق له جميع ما في الكون من سماءٍ وأرضٍ، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وجبال وبحار، وسهول وأنهار، وأتربة وأحجار، ومعادن منوعةٍ ونباتات وأشجار مختلفة، وحبوب وأثمار وفواكه وأزهار، وأسماك وأطيار، وحيوانات تعدَّدت وظائفها وأعمالها، وحشرات اختلفت ألوانها وأشكالها، وإن شئت فقل ما خلق الله تعالى هذا الكون المنظَّم وما جعل جميع ما فيه مذلَّلاً ومُسخَّراً لخدمة هذا الإنسان ليتمتَّع هذا الإنسان بملاذ هذه الحياة الدنيا أياماً معدودة ثم يرحل عنها فكأن لم تكن وكأنه ما كان.

ما أخرج الله تعالى الإنسان إلى هذه الحياة ليأكل ويشرب ويلهو ويلعب ويصرف عمره الثمين سعياً وراء تأمين المعاش والاستزادة من حطام الدنيا الزائلة والتكاثر في الأموال والأولاد، بل إنما أخرجه إلى هذه الحياة لمهمَّة عُظمى وغرضٍ أسمى.

أخرجه ليُحقِّق الهدف الذي أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} (١)

---

١ – سورة الكهف: الآية (٧).

وقوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}**[١]

وهكذا فالعمل الصالح هو المطلوب من الإنسان في هذه الحياة الدنيا ومن أجله وحده كان خروجنا إليها وعليه المعوَّل من كل ما نقوم به من أعمال، فإن عرف الإنسان لماذا خُلِقَ ولِمَ جاء واكتسب هذه الحياة في صالح الأعمال فقد أفلح وفاز، وهنالك وفي ساعة الموت عند فراق هذه الدنيا يكون مغتبطاً فخوراً بما قدَّم وعلى ذلك يكون الجزاء في الآخرة، وعلى ذلك يكون النعيم والتدرُّج في منازله في جنَّات تجري من تحتها الأنهار.

لهذا أمر الله تعالى بني اسرائيل بدخول الأرض المقدَّسة وأمرهم أن يُقاتلوا من فيها ليردُّوهم عن ضلالهم وليكون لهم من جهادهم هذا عملٌ صالحٌ ترقى به أنفسهم وتُشفى من عللها الخبيثة، إذ بالخروج للجهاد تضحية بالدنيا وبالحياة، بذا تكسب النفس الثقة برضاء الله عنها فتُقبل عليه تعالى فيسري نوره بالنفوس فتُشفى من حبِّ الدنيا الدنية وتكسب الكمالات العليّة فترقى وتنجح، عندها يمدُّها تعالى بالجاه والمال والعز والصحة ويغتنمون هذه الفرصة من عمرهم.

وقد أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أنَّ الإنسان إذا هو آمن وعمل الصالحات عاش في هذه الدنيا في بسطةٍ من العيش وسعة وذلك ما نفهمه من قوله تعالى:

(فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً).

---

١ - سورة الملك: الآية (١-٢).

فإذا قلَّت ذات يد الإنسان ووقع في الفاقة فما عليه إلاَّ أن يسلك طريق الإيمان ويعمل الصالحات وهنالك يوسِّع الله تعالى عليه رزقه ويبدِّله من بعد الضيق سعةً وبعد العسر يسراً، قال تعالى:

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [١]

وقال تعالى في معرض الكلام عن سيدنا نوحٍ مع قومه:

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً} [٢]

نعم إنَّ الله تعالى يوسِّع الرزق على هذا الإنسان الذي آمن وعمل صالحاً لأنه أضحى مخلوقاً كريماً وإنساناً فاضلاً لا يخرجه غناه ويسره عن سلوك الطريق الإنساني القويم في سائر تصرُّفاته وليس ينال الرزق إلاَّ من وجهه ولا يصرفه إلا في وجهه ولا يأكله إلا بحقِّه.

وإذن فلِمَ المنع ولِمَ التضييق والعسر، وهل يمنع الطبيب مريضه من الطعام إذا رآه قد شُفي من مرضه وخلص من علله؟.

أم هل يحرم الأب ابنه من الدراهم إذا رشد وسلك طريق سعادته؟.

ولله المثل الأعلى والله أرأف بعباده وأرحم من الطبيب مع المرضى والآباء والأمهات مع الأبناء.

وهو سبحانه أرحم الرحماء، فإن آنس من عبده صلاحاً ورشداً فتح له أوجه الرزق يأكل من حيث يشاء رغداً لأن هذا الإنسان أضحى مستنيراً لا يُخشى

---

١ – سورة الأعراف: الآية (٩٦).

٢ – سورة نوح: الآية (١٠–١٢).

عليه من أن يشذّ عن السبيل الذي أوصاه ربُّه بسلوكها وكيف يشذُّ أو ينحرف وقد نوَّر الله قلبه بالإيمان وصبغه بصبغة منه وحلاَّه بحلية الكمال.

وإلى جانب ما ذكرناه من رغد العيش الذي يجده هذا المؤمن في الحياة يتكرَّم الله تعالى عليه بالمغفرة.

وكلمة "المغفرة" مأخوذة من غَفَرَ. وغَفَرَ بمعنى: ستر ووقى من الأذى، ومنه المِغْفَر وهو غطاء من حديد متين يضعه المحارب على رأسه في الحرب فيستره ويحفظه من ضربات الأعداء.

ومن معاني المغفرة التي يؤيدها هذا الذي أوضحناه: الإصلاح، وغفر الخياط الثوب، أي: أصلحه. فالمغفرة صلاح النفس وشفاؤها ممَّا كان ينغِّصها من علل معنوية وأدران.

فإنَّ الإنسان إذا آمن وعمل صالحاً كان له من عمله الصالح سببٌ للإقبال على الله تعالى والوجهة إليه، وبهذا الإقبال والوجهة تطهر النفس ممَّا بها من درن وتحصل لها المغفرة والشفاء فلا يعود يُقلقها ذنبٌ ولا تنغِّصها خطيئة.

وأعظم من رغد العيش وأبلغ من المغفرة أن يُضْحي هذا المؤمن الذي عمل صالحاً في كنف الله تعالى وحضرة القرب من تلك الذات العليَّة قرباً معنوياً يجعله في سعادة نفسية متزايدة تتزايد على مرِّ السنين والأعوام، لا بل على مرِّ الشهور والأيام وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة فمن قربٍ لقرب أعلى ومن نعيم لنعيمٍ أسمى رقيّاً متزايداً على التمادي لا ينقطع ولا يتناهى.

بهذا وعد الله تعالى بني إسرائيل وبهذا رغَّب كل إنسان، وما الآيات الكريمة بما فيها من معانٍ إلاَّ موجِّهات ومرغِّبات توجِّه كل إنسان وترغِّب كل امرئٍ بطريق السعادة وتحضُّه على اغتنام هذه الحياة.

فهل لك أن تأكل من حيث شئت رغداً؟. وهل لك في مغفرة خطيئاتك؟. أم هل لك في أن تضحي محسناً قريباً من حضرة الله وأن يزيدك الله تعالى من فضله ويغمرك بفيضٍ من ذلك النعيم بلا انقطاع؟.

إن شئت هذا كله فادخل الباب ساجداً وقل حطَّة تَنَلْ من ذلك بقدر صدقك وسعيك ولكَ في ذلك ارتقاءٌ متتالٍ وزيادة والله واسع عليم ليس لفضله حدٌّ وليس لهذه الزيادة التي يتكرَّم بها على عباده المؤمنين من نهاية.

أما الباب الذي يجب عليك دخوله والذي أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخوله فما هو بباب حديقة وما هو بباب مدينة إنما هو باب الله تعالى الذي تدخل منه على حضرته سبحانه.

فإذا أنت دخلت الباب أصبحت في تلك الحضرة المقدَّسة تنعم بالقرب وتحصل على ذلك الحال العالي من أحوال الإيمان.

وقد أمر الله تعالى الملائكة قديماً بهذا، إذ أمرهم بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام وأمر المؤمنين كافَّةً بذلك فقال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [١]

وأمر بني إسرائيل أن يدخلوا في تلك الحضرة بإقبالهم برفقة رسولهم الكريم، وذلك ما عنته كلمة **(ادْخُلُوا الْبَابَ)**.

فرسل الله عليهم الصلاة والسلام هم أبواب أُممهم، إذ برفقتهم ومعيَّتهم، وإن شئت فقل بحبِّهم والارتباط النفسي بهم تغدو النفس في حضرة الله، فهم أبواب

---

١ – سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

القرب إلى الله تعالى وبالارتباط بمحبَّتهم يكون الدخول في حضرة الله سبحانه، وما يدرك حقيقة هذا إلاَّ مؤمن وليس البيان كالمشاهدة والعيان.

فإذا دخلت الباب فهنالك تسجد لله، والسجود كما كنَّا بيَّناه وعرَّفناه إنما هو طلب الفضل من الله والاستعانة به في كل ما يتطلَّبه المؤمن من مطالب سواءٌ طلب التأييد في الحجّة والبرهان على من يعارضون ويناقشون ليطفئوا نور الله، أو النصر في ساحة الحرب على الأعداء الذين لا يروق لهم ما يدعو إليه رسل الله من إرساء أوامر شرع الله، وهكذا في كل طلب تتطلَّبه سجودٌ والتجاء واستعانة فادخل الباب ساجداً لله والله معك حيثما كنت يمدُّك بالعون والتأييد والنصر.

أما الطريق إلى دخول الباب فإنما هو أن تقول حِطَّة، وسنشرح لكَ ما تشير إليه هذه الكلمة فنقول:

ليس المراد بكلمة **(حِطَّة)** أن تقولها بلسانك قولاً، لأن القول باللسان لا يُغني عنك شيئاً ولو أنك كررته مائة ألف مرَّة حتى ولو أنَّك قضيت بها العمر كلّه. المراد من هذه الكلمة أن تُقيم معناها وتُطبِّق ما تشير إليه.

إنها تشير إلى نزول الإنسان عن كبريائه والخضوع لأمر الله. تقول: حطَّ الرجل حمله، أي: ألقاه، وحطَّ الطائر على الغصن إذا هبط، ومنه المحَط والمحطة مكان الموضع والوقوف.

وهكذا فالحطّة تعني الخضوع والطاعة، وإن شئت فقل تتضمن الإئتمار بأمر الله والانقياد والاستسلام إليه.

فإذا أنت طبَّقت دلالة الله تعالى حسبما بيَّن لك رسوله الكريم فنظرت إلى أصلك نطفةً وتابعت النظر في الكون مفكِّراً حتى اهتديت منه إلى الله تعالى

وعرفت عظمته وجلاله فهنالك ترى نفسك وتعرف ضعفها فتخضع وتخشع وتتنازل نفسك وتحطّ عن كبريائها.

وإن أنت سرت بأمر الله وطبَّقت التعاليم التي أمرك بها سبحانه على لسان رسوله الكريم، وإذا أنت خالفت نفسك وهواك وكان هواك تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ فقد قلت حطَّة، ولو لم تقلها بلسانك ولو لم تنبس بها شفَة ولسان، وعندئذ تستطيع أن تدخل الباب ساجداً وترتبط نفسك برباط المحبَّة برسول الله ﷺ مقبلاً منه على الله تعالى وهنالك يحصل لك التأييد الإلّهي على الأعداء.

بهذا أمرك الله تعالى كما أمر بني إسرائيل ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه إلى ما في كلامه تعالى من معانٍ سامية وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم.

أما وقد عرفت المراد من كلمة **(ادْخُلُوا الْبَابَ سُجّداً)** وتبيَّن لك أنَّه لا يدخل الإنسان في حضرة الله القدوس إلاَّ بمعيَّة الرسل الكرام وصحبة أهل الكمال.

وعرفت المراد من كلمة **(وَقُولُوا حِطَّةٌ)** وأدركت أنَّ هذه الكلمة تُشير إلى خضوع الإنسان ونزوله عن كبريائه واستسلامه لخالقه الذي أوجده وجعله على هذا التركيب البديع الذي يدهش العقل ويُحيِّر الأفهام.

فسلْ نفسك مُتفحِّصاً مستفسراً وقل في سرِّك ترى هل دخلت نفسيَ الباب مع من دخلوا سُجَّداً، أم ما تزال أسيرة الشهوة قيَّدتها الذنوب والرغائب الدنيوية، فما تستطيع أن تجوز أو تتقدَّم قدماً؟.

ثمَّ سلْ نفسك هل قالت حطَّة، وهل خضعت لله مستسلمة وخشعت بين يديه متنازلة عن كبريائها وعجبها بذاتها، أم ما تزال شامخة بأنفها مستكبرةً عن طاعة ربِّها لا تعرف إلاَّ تطمين رغائبها والسير بحسب ما تحب وتهوى كأنَّ الله تعالى ما خلق في العالمين بشراً مثلها وكأن المخلوقات جميعها أدنى منها منزلة وأضعف قوَّة وشأناً.

إنه وقد تبيَّن لك ما أشرنا إليه من معنى دقيق وعرفت طرفاً من المعنى الذي تنطوي عليه هذه الآية الكريمة لا بدَّ لنا في هذه المناسبة من أن نسوق الكلمة التالية فنقول:

إنَّ فريقاً من الناس ويا للتعاسة، في أعناقهم الأغلال وفي أيديهم وأرجلهم القيود وهم محبوسون وراء الباب لا يستطيعون الدخول في حضرة الله، يقف أحدهم للصلاة فلا يجد في صلاته خشوعاً ولا وجهةً، ويسمع القرآن فلا يجد له طلاوة ولا حلاوة ولا يدرك منه إلاَّ أصواتاً وأنغاماً، ويُذكر عنده رسول الله ﷺ فلا يهيج قلبه إذ يسمع بشمائل هذا الرسول الكريم ولا يرى في نفسه حنيناً إلى تلك النفس الزكية الطاهرة، ويسمع بأولئك الرجال الذين وصفهم الله تعالى بقوله الكريم:

{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ...} [١]

فلا يجد في قلبه عند ذكر الله خشوعاً ولا وجلاً ولا تفيض عينه بقطرةٍ من دمعٍ.

وتتساءل عن السبب وتقول ما علَّة هؤلاء وما هذه القيود والأغلال التي تحول دون دخولهم في حضرة الله فأقول:

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أيها الناس إنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلاَّ طيِّباً»[٢].

وفي حديث آخر:

---

١ - سورة المائدة: الآية (٨٣).

٢- أخرجه مسلم عن أبي هريرة

«المسجد يؤذيه ما يؤذي العين».

وليس المراد بالمسجد ذلك المكان الذي يقف فيه الناس للصلاة، إنما هو موضع السجود من هذا الإنسان وهو قلبه وفؤاده، إنه قلب النفس وسويْداؤها، وإذا كانت العين الباصرة يؤذيها أقل الأجرام المادية وأصغرها حتى الذرَّة من الهباء، فكذلك القلب يؤذيه ويعكّر صفوه أقل الذنوب وأحقرها وما دامت النفس تجد لها عملاً سيئاً لا يُرضي الله فهي محبوسة وراء الخجل مقيَّدة بقيد الذنب والخطيئة لا تستطيع أن تدخل في حضرة الله ولو أنها صلَّت مئات الركعات، وأنفقت آلاف الدنانير، ولو أنَّها مدَّت يد المعونة لسائر الخلْق، ولم تدع باباً من أبواب الخيرات إلاَّ فعلته فالإقلاع عن الذنب والرجوع عن التمادي فيه وإن شئت فقل التوبة النصوح هي المفتاح الذي يفتح لك الباب، وهي أول ما يجب أن تقوم به من أعمال.

وما دمت لا تتوب وما دمت لا تقلع عن الذنوب فلا تطمعنَّ بدخولٍ في حضرة الله. وأعمالك هذه وحالك صورةٌ لا حقيقة، وصلاتك إن هي إلاَّ حركات رياضية خاليةٌ من كل نور ووجهة وشعور، إنه لا يؤذن لك بالدخول في حضرة الله لأن الله تعالى طيِّب ولا يقبل إلاَّ طيِّباً.

فتطهَّر أولاً بماء التوبة واغسل ثياب نفسك وطهِّرها بالإنابة وهنالك يُفتح لك الباب من بعد قرعٍ طويل، يفتح لك الباب على مصراعيه وتُنادى أن أُدخل يا عبد الله بمعيَّة المقرَّبين في حضرة البرِّ الرحيم وتمتَّع بالروح والريحان وجنَّة النعيم إن كنت جئت بزاد أو كنت ممَّن قدَّم صالح الأعمال.

وهكذا فالتوبة النصوح والإقلاع عن الذنوب كفيل بفتح الباب، أمَّا العمل الصالح فهو الجناح الذي يهبك القوَّة على الدخول، ومن لا عمل صالح له فهو

مقعد في مكانه لا قوة له تُساعده على التقدُّم والدخول، ولذا رغَّب رسول الله ﷺ صغيره وكبيره فقال:

«لا تحقِّرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلْق» [1]

وقال ﷺ في حديث شريف آخر:

«.. والكلمة الطيبة صدقة وتُميطُ الأذى عن الطريق صدقة» [2]

وحثَّ تعالى الإنسان على العمل الصالح بعد الإيمان في عشرات السور، ومن أبلغ ما ورد بهذا الخصوص قوله تعالى:

{وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [3]

فإن شئت أن تحيا حياة المؤمنين الذين صَفَت نفوسهم بالله وطاب لها المقام في حضرة الرحيم الرحمن، وإن شئت أن تحظى نفسك بصحبة المؤمنين الصادقين ورسول الله ﷺ ، وإن شئت نعيم القرب في هذه الدنيا قبل الوصول إليه في دار الخلد والجنان فتُبْ مقلعاً عن كل ذنب وأنت أعلم بنفسك وكل امرئٍ حسيبُ نفسه، وكل إنسان على نفسه بصيرة وقد كنَّا بيَّنا لك من قبل طريق التوبة وفصَّلنا ذلك خلال كلامنا عن الإيمان الحقيقي وبيَّنا أنَّه أصل الخشية والاستقامة، ثم انْطَلِقْ بعد التوبة جاهداً في عمل المعروف ومَرِّسْ نفسَك على مدِّ يد المعونة للخلْق كافة عدوّهم وصديقهم، صغيرهم وكبيرهم، قريبهم وبعيدهم، مُحسنهم إليك ومسيئهم فإنَّ الله تعالى يحبُّ المحسنين ورحمة الله قريب من المحسنين و الله مع المحسنين.

---

١ -أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢٦). وأحمد في المسند: (٤٨٣/٣).

٢ -أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥/٣) و (٦٨/٤).

٣ - سورة العصر.

ضحِّ براحتك دوماً واطلب القرب من الله بخدمة الخلْق والإحسان إلى الناس وأكثِر من فعل المعروف ما سنحتْ لك فرصة فالله تعالى معك ولن يَترِك عملك وسيجزيك بالإحسان إحساناً، فما جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان، قال تعالى:

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (١)

أما الذين يؤثرون الراحة والدعة على التعب والبذل في سبيل الله هؤلاء الذين يبخلون على أنفسهم ولا يريدون أن يقرضوا الله قرضاً حسناً، هؤلاء هم المجرمون الذين حرموا أنفسهم من الخير وهم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بعدم فعلهم ما يجلب لهم السعادة والخير، وما حال هؤلاء إلاَّ كحال بني إسرائيل الذين أمرهم الله تعالى أن يدخلوا الأرض ليكون لهم من جهادهم وردِّ الناس إلى الحق سببٌ يتقرَّبون به إلى الله تعالى فامتنعوا وأبوْا وبخلوا على أنفسهم فعرَّفنا تعالى بحالهم بما أشارت إليه الآية الكريمة:

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

وظمئ القوم في التيه وطلبوا الماء فلم يجدوه وهنالك لجأوا إلى رسولهم يطلبون منه أن يدعو لهم الله تعالى، وتلك هي حال المعتقد اعتقاداً ما دام في حال من البسطة في العيش والسعة تجده غافلاً عن الله فإذا ما وقع في الشدَّة والضيق استغاث واستجار.

وقد استسقى سيدنا موسى عليه السلام لقومه فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله الكريم:

---

١ – سورة العنكبوت: الآية (٦٩).

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}

وممَّا يلفت النظر ويستدعي التفكير في هذه الآية الكريمة ظاهرتان بارزتان:

أولاهما: أن ينبجس الماء من حجر في تلك الصحراء بمجرَّد ضربة عصاً يضربه بها هذا الرسول الكريم.

وأخراهما: أن تكون الأعين المتفجرة متوافقةً في عددها مع عدد فِرَقِ بني إسرائيل، وبذلك جعل كلَّ أُناسٍ منهم يشربون من عين.

وما هاتان الظاهرتان إلاَّ لتعريف هؤلاء بقدرة الله تعالى وتصرُّفه في هذه الأكوان وأنه تعالى معهم مبصر إيَّاهم بصير بأحوال ضعفهم أمدَّهم بتعدادهم وأنه معهم لا تخفى عليه خافية. وإشعارهم بمكانة هذا الرجل الذي استسقى لهم تعريفاً بأنه رسول الله فلعلَّهم يؤمنون حقّاً برسالته ويطبّقون ما يأمرهم به من عند الله.

تلك هي رحمة الله تعالى بالإنسان وتلك هي معاملته مع أهل الضلال يسوق لهم في كل يومٍ آية ويضع بين أيديهم عبرةً، يُشدِّد تعالى ويُفرِّج، ويقبض ويبسط، ويُظمئ ويُسقي، ويُخوِّف ويُطمئن، ويمرض ويشفي، ويُغني ويُفقر، ويزج بهذا الإنسان في مآزق يظنُّ أن لا منجى له منها وفي غمرة الشدَّة وحينما تبلغ نهايتها العظمى وتصل إلى الذروة يمدُّ تعالى لهذا الإنسان يدَ المعونة ويُخلِّصه ممَّا هو واقعٌ به فلعلَّه يفكِّر ولعلَّه يعرف تلك اليد التي تصرِّف الأمور وتُجريها.

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...} (١)

---

١ – سورة فصلت: الآية (٥٣).

إنه تعالى يُمرِّر الأنفس في ظروف مختلفةٍ وأحوالٍ متباينة وما ذلك كلُّه إلاَّ من رحمته تعالى بهذا الإنسان وشديد حرصه على هدايته وبيانٌ إلى أنَّ الهداية أمرٌ يجب أن يسلك الإنسان طريقه ويشقّه بنفسه وليس له بدٌّ من أن يُعمل نظره ويكدّ تفكيره ومحاكمته "في إقناع ذاته بذاته".

وما هذه الوقائع التي ذكرناها عن بني إسرائيل والتي أوردها تعالى في القرآن الكريم إلاَّ أمثلة بارزة وحقائق ناصعة تُبيِّن للإنسان رحمة الله تعالى ورأفته بالناس فلعلِّي إذا أنا قرأت هذه الآيات ودقَّقت فيما ورد في تلك القصص من إشارات أُدرك طرفاً من معاملة الله تعالى لي وأرى تلك اليد التي ينبسط عليَّ خيرها وتحفُّ بي عنايتها في غناي وفقري، في عسري ويسري، في همِّي وغمِّي واطمئنان قلبي وراحتي، في صحَّتي وسقمي.

لعلِّي أعرف أنَّ هنالك يداً حكيمةً رحيمة وقويةً قديرةً تخضع لها تصاريف الأمور.

لعلِّي أوقن بما أرشدني إليه مرشدي وأؤمن حقّاً بما جاءني به رسول الله ﷺ عن ربِّي.

لعلِّي أفكِّر حقَّ التفكير فأعلم أنه لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير.

لعلِّي أؤمن هذا الإيمان فأخاف الله وأخشاه وأأْتمر بأمر الله وأكتسب عمري الثمين بأعمال البر والخير فأفوز بما أعدَّ لي الله في الآخرة من النعيم.

تلك هي عناية الله بي وبك وبالعصاة من بني إسرائيل، لا بل بكل فرد من بني الإنسان أيّاً كان دون تفريق بين جنس وجنس، أو نوع ونوع، أو أمّة وأمّة وتلك هي معاملته تعالى مع سائر المخلوقات وذلك ما يتوافق مع الجلال الإلّهي

وذلك ما يليق بهذا الرب العظيم الذي ذكره الذاكرون وعرفوا من جلاله وعظمته ما جعلهم يخرُّون للأذقان يبكون سُجَّداً ويهيمون به حُبّاً وعشقاً.

لقد جعل تعالى في الكون من الآيات المعرِّفة به ما لا يعدُّ ولا يحصى وأضاف إلى ذلك كثيراً من الحوادث والوقائع الكونية العامّة وعزَّز هذا كله بظروف وأحوال يمرُّ بها الإنسان خاصَّةً، وساق من الأمثلة والقصص والعبر ما يستحثُّ تفكيرك، أفلا تتفكَّر بعد هذا كله وتتعرَّف إليه سبحانه، أم ما تزال تنسب الظلم إليه وتقول: خلق وفرَّق فكتب السعادة على أناس والشقاوة على آخرين ولا حيلة لنا في شيء.

* * *

ونواصل تأويلنا في الكلام عن بني إسرائيل في التيه فنقول:

سلخ هؤلاء القوم في تلك الصحراء ما يُقارب الأربعين سنةً يأكلون ويشربون ويظلِّلهم الغمام، ثمَّ ملُّوا من المن والسلوى وتطلَّعت أنفسهم إلى بقل الأرض وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.

وأنت ترى من خلال هذه الآية الكريمة أنَّ الإنسان إذا هو لم يتعرَّف إلى ربِّه فإنه يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير وذلك كما فعل بنوا إسرائيل، فقد ينفق في سبيل نزهة من النزهات أو رحلةٍ من الرحلات مئاتٍ، لا بل آلافاً من الدراهم وقد يجود على نفسه في شراء أدوات اللهو الباطل والغناء المحرَّم بمبالغ طائلة

حتى أنه ليستدين في بعض الأحيان الثمن ويقسِّطه أقساطاً ربوية ويعرِّض نفسه لسخط الله ويضيق دخله عن سد حاجاته الضرورية ويقع تحت أعباء العجز المالي ويتحمَّل ذلك ويصبر عليه ولا يجد في ذلك أية غضاضة. ولو أنه كُلِّفَ بدفع مبلغ ضئيل يساعد به فقيراً محتاجاً أو إنساناً مريضاً أو بناءً خيرياً لأحجم وامتنع، بل لتفاقر وتقهقر وشكا ضيق ذات اليد والعسرة ولوجد لنفسه مائة عذر في مساعدة هذا الفقير العاجز أو المسكين المحتاج.

تُرى ما السبب في ذلك كله، وما هو أثر الإيمان في المسارعة إلى أعمال الخير والإنفاق؟.

وجواباً على هذا نقول:

إذا آمن الإنسان بربِّه إيماناً حقيقياً وصار له العلم بأنه لا إلّه إلاَّ الله فهنالك تقرُّ نفسه من صميمها بأنَّ الدنيا فانيةٌ وشيكة الزوال وأنَّ هذا العمر فرصةٌ ثمينةٌ منحها الله تعالى له ليكتسب به صالح الأعمال، وما أعطاه الله تعالى ما أعطاه من مالٍ أو قوة أو جاهٍ وسلطان إلاَّ ليكون وسيلة له يتقرَّب بها إلى الله زُلفى وما عليه إلاَّ أن يغتنم الفرصة قبل حلول موعد الرحلة فيقضي ما تفضَّل الله تعالى به عليه من عمر في مساعدة هذا وذاك.

وما السعادة في الآخرة إلاَّ بقدر ما يُقدِّمه الإنسان من صالح الأعمال، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه والله الغني ونحن الفقراء المفتقرون دوماً إلى أعمال الخير ليكون لنا منها سبب للنعيم وتجارة رابحة في تلك الحياة الأبدية التي لا نهاية لها ولا انقضاء.

يقرُّ المؤمن بهذا ويرى عمل الخير فرضاً لازماً، لا بل غنيمةً كُبرى ساقها الله تعالى إليه فيبادر ويسارع ويسابق الآخرين إلى ذلك ويرى فضل ذي الحاجة

عليه ولا يرى لنفسه فضلاً، ويرى فضل الله تعالى عليه إذ ساق له ذلك المحتاج ليكون له من مساعدته ربحٌ وغنم وقربة:

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١]

تلك هي حال المؤمن وتلك هي مشاعره تجاه ذوي الحاجات وذلك هو عمله ما عاش وامتدت به الحياة.

أما البعيد عن الله والمعتقد اعتقاداً صورياً والذي قصَّر به صدقه عن الوصول إلى الإيمان بلا إلّه إلا الله فدُنياه أثمن شيء لديه وملاذّها كما تريه نفسه ويزيّن له الشيطان أنها هي الملاذ الحقيقية، ولذا تراه يستخفُّ بأولئك المؤمنين الصادقين ويحقّر ما يقومون به من أعمال الإحسان والخير ويبخل عن نفسه بدراهم معدودة في سبيل الله وينفقها آلافاً مؤلَّفة في أوجه الفسق والضلال التي يعقبها الألم.

كل ذلك بسبب عدم رؤيته الحقائق، وكل ذلك ناشئ عن عدم وصوله إلى الإيمان الحقيقي الذي يصل به إلى معرفة المعايير الحقيقية لقيم الأعمال.

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [٢]

وهكذا فعدم وصول بني إسرائيل إلى الإيمان الحق هو الذي جعلهم يتقاعسون عن الجهاد في سبيل الله، وهو الذي جعلهم يستبدلون الذي هو أدنى

---

١ – سورة التوبة: الآية (٩٩).

٢ – سورة التوبة: الآية (٩٨).

بالذي هو خير وهو الذي حبَّب إليهم دخول بيت المقدس من أجل قثائها وفومها وعدسها وبصلها ولم يحبِّب إليهم دخولها من أجل جهاد قومٍ ضلُّوا عن الله فيكون لهم من ردِّهم إلى الحق عملٌ صالحٌ وقربة يتقرَّبون بها إلى الله تعالى.

وما هذه القصة إلاَّ عبرة لك أيُّها الإنسان المعتقد فلعلَّك تصْدُق ولعلَّك تبحث وتفكِّر ولعلَّك تتوصَّل إلى الإيمان، فالمؤمن كله خير والمؤمن كلُّه عطف وحنان، والمؤمن كلُّه إحسانٌ ومساعدة لكل ذي روح وكل مخلوق من المخلوقات، يؤْثر على نفسه ولو كان به خصاصةٌ ويُضحِّي بنومه وراحته من أجل مساعدة ذوي الحاجة، ولا يرى لنفسه حياةً ولا يشعر بسعادةٍ إلاَّ إذا أحسن وساعد وعاون.

إنَّه هو الإنسان الحق الذي يرتاح قلبه براحة الآخرين وسعادتهم ويفرح لسرورهم وهنائهم ويألم لألمهم فيسعى جهده لتخفيف المصاعب عنهم وتفريج كروبهم.

إنَّه هو المنارة المضيئة تأوي إليها السفن الضالَّة وقد أرهقتها الظُّلَم وأحاطت بها الأمواج فتسكِّن عنها المخاوف ويزول عنها ما بها من اضطراب.

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (١)

ودخل بنوا إسرائيل أخيراً الأرض المقدَّسة من بعد أن تاهوا في الأرض أربعين سنة قضوها تحت المداواة والمعالجة، وصلحت نفوس القوم وأصبحوا قادة الأمم وفضَّلهم الله تعالى على العالمين.

وتوالدوا وتكاثروا ونشأ من بعدهم جيلٌ جديد وامتدَّت بهم الأيام وأضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات وعادوا إلى العناد والضلال فعاد الله تعالى عليهم

---

١ – سورة التوبة: الآية (١٢٨).

بالمداواة والشدائد وضرب الله تعالى عليهم الذلَّة والمسكنة، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).

وهكذا فالله تعالى لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم.

يأتيك الرخاء والنعمة، وتواتيك الظروف وتسرُّك الأحوال، فإذا تغير ما بنفسك من نيَّة طيِّبة، وإذا تحوَّلت وجهتُك وكدت تنحرف أو بدأت تسير في غير ما يريده تعالى لك حوَّل عنك الحال وصرفه وضيَّق وشدَّد ولله الحمد من قبل ومن بعد.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (١)

* * *

ونواصل ما نحن بصدده من تأويل فنقول:

بعد أن عرَّفنا تعالى ما حلَّ ببني إسرائيل من شدائد أراد تعالى أن يبيِّن لنا أنَّ الأسماء مهما اختلفت صورها ودلالاتها يتساوى أصحابها في نتائجهم ما دام أحدهم لا ينفذ من وراء الاسم إلى الإيمان الحقيقي الذي يُوقي النفس من السيِّئات ويُقيم وجهتها إلى الله تعالى.

وقد أراد تعالى أن يُعرِّفنا بذلك لئلاَّ نغترَّ كما اغترَّ بنوا إسرائيل من قبل فوقعوا فيما وقعوا به من ضلال فقال تعالى:

---

١ - سورة الأنفال: الآية (٥٣).

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وأنت ترى من خلال هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان على نوعين:

١. يمان بالخالق وهو ما أشار إليه صدر هذه الآية وأولها في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا).

٢. إيمان بالمسيِّر الذي بيده سير الكون كلّه وتصريف شؤونه، وهو ما أشار إليه آخر الآية الكريمة في قوله تعالى:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ).

وما دام الإنسان مُقتصراً في إيمانه على الإيمان بالخالق ولم يتدرَّج مرتقياً إلى الإيمان بالمسيِّر فما هو بواصل للمطلوب وما هو بناجٍ من النار ولا بخالص من الحزن والخوف.

فالعرب قبل الإسلام رغم اعترافهم بوجود الخالق ما كان ذلك ليحجزهم عن الشذوذ والانحراف وعبادة الأصنام، بل كانوا يقولون:

{... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...} (١)

{... وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ...} (٢)

واليهود اليوم يقرُّون بوجود الخالق ولا ينكرون، ومع ذلك تجدهم فاقوا البشرية جميعاً في العدوان والانحطاط ومقارفة الذنوب.

وكذلك أُناس كثيرون ممَّن لم يؤمنوا بأنه لا إلَه إلاَّ الله لا يقلُّون أيضاً في أعمالهم المنحطَّة عمَّن سبقوهم من الأقوام.

---

١ – سورة الزمر: الآية (٣).

٢ – سورة يونس: الآية (١٨).

والسبب في ذلك كلّه أن الذين اقتصروا على الإيمان بالخالق ولم يجاوزوه فيعلموا أنَّ هذا الخالق العظيم هو الإلّه المسيِّر.

أقول: ما داموا لم يصلوا إلى هذا الإيمان بأنه لا إلّه إلاَّ الله فليس يمكن أن تنصلح أحوالهم أو تستقيم أعمالهم لأنه لا يحجز النفس عن الوقوع في المحرَّمات ولا يحملها على الاستقامة والتقيُّد بأمر الله إلاَّ الإيمان والعلم بأنَّه لا إلّه إلاَّ الله ومشاهدة أنَّ الفعل كلَّه بيد الله، فهو سبحانه شاهد رقيب لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء.

وهكذا فالله تعالى يريد أن يبيِّن لنا أنَّ الذين آمنوا بالخالق أيّاً كانوا دون أدنى اعتبار لزمان أو مكان وكذلك الصابئون الذين عبدوا الكواكب والنجوم، واليهود الذين جاؤوا قبل بعثة سيدنا عيسى ﷺ والنصارى الذين كانوا قبل سيدنا محمد ﷺ كلُّ امرئٍ من هؤلاء إن سمتْ به همَّته فانتهى مُرتقياً من الإيمان بالخالق إلى مرحلة الإيمان بالله وحصل له العلم بأنَّه لا إلّه إلاَّ الله وأدَّى ذلك به إلى الإيمان باليوم الآخر وعمل الصالحات فهو الناجي عند الله، وما سوى ذلك إن هي إلاَّ ألقاب وأسماء وظنون وتعصُّبات، وما كانت الأسماء الخالية من الحقائق لتغني عن صاحبها شيئاً في يوم من الأيام.

{.. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى، أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى، فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى، وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [١]

وفي الآية التالية عودٌ إلى ذكر معاملة الله تعالى لبني إسرائيل وبيانٌ إلى ما واثقوا ربَّهم وعاهدوه عليه، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم:

---

١ – سورة النجم: الآية (٢٣–٢٦).

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

ولعلَّك تقول: متى أخذ الله تعالى على بني إسرائيل الميثاق وما هي موادُّه

فأقول:

أما الحين الذي أخذ الله تعالى فيه الميثاق على بني إسرائيل فإنما كان بعد خلاصهم من فرعون وإن شئت فقل من بعد تلك الشدَّة التي حلَّت بهم لمَّا أُمروا بأن يقتلوا أنفسهم بسبب اتِّخاذهم العجل.

ذلك لأن من عادة الأنفس المعرضة أنَّها لا تصغي إلى النصيحة ما لم تقع في الشدَّة وهي لا تلتفت إلى ما يذكِّرها الله تعالى به إلاَّ إذا حلَّ بها الألم وضاقت في وجهها السُبل.

وهكذا فمن بعد هذه الشدائد أخذ سيدنا موسى عليه السلام الميثاق على قومه وواثقوا ربَّهم وعاهدوه.

أما مواد هذا الميثاق فإنَّما تنحصر بحسب ما أشارت إليه الآية الكريمة بشيء واحد وهو أن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى في التوراة من دلالة وأوامر بقوَّة، أي: أن يحرصوا على تطبيقها ولا يتهاونوا بشيء منها.

ذلك ما نفهمه من كلمة: **(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ).**

ورَمَزَ تعالى إلى تلك الدلالة العالية والبيان الرفيع الشأن الذي انطوت عليه التوراة بكلمة **(الطُّور)** ليعرِّفنا بجليل شأن كتبه وما اشتملت عليه من خير عظيم، لأن الطُّور من كل شيء أعلاه وأسماه وأرقاه.

وقد بيَّن لنا تعالى في هذه الآية الكريمة أيضاً أنَّ الإنسان إذا طبَّق أوامر خالقه عاد ذلك عليه بالخير وعندئذٍ تراه يشكر الله تعالى على أن أمره بتلك

الأوامر التي كانت سبباً في جلب الخير له وحصوله على السعادة، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: **(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).**

فبتطبيقك أوامر الله سبحانه تعود عليك عوائد من الخير والفضل الإلّهي ويُحييك الله حياة طيبة، وهنالك تشكر الله على أنْ هداك هذه الهداية وتحبُّه لما يسوقه لك من خيرات وإحسان.

وإنك وقد أصبحت ممَّن يغمره الفضل الإلّهي تُقبل عليه من صميمك إقبالاً متزايداً، وبهذا الإقبال تتكامل نفسك وتتدرَّج في الكمال حتى تصبح أهلاً لرفقة رسول الله والدخول بمعيَّته ﷺ على الله، وحينئذٍ تحصل لك التقوى فتشاهد بنور الله تعالى الخير خيراً والشرَّ شرّاً، وذلك ما عبَّرت عنه كلمة: **(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).**

وهكذا فالتقوى لا تحصل وليس يُشارفها إلاَّ سامعٌ مُطيع حمل نفسه على الاستقامة وكلَّفها فعل الخير.

وفي الحديث الشريف: «**إنَّما العلم بالتعلُّم، وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحلُّم...**»[1] «**الكيّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجزُ من أَتبعَ نفسُه هواها وتمنَّى على الله الأماني**»[2].

أما بنوا إسرائيل فبدلاً من أن يُطبِّقوا دلالة الله سبحانه ويطيعوا أوامره وبدلاً من أن يوفوا بعهد الله نقضوا الميثاق وتولُّوا عن طاعة ربِّهم مُدبرين، ولو شاء الله لأهلكهم وحرمهم من هذه الحياة وما فيها من الخير، لكنه تعالى حَلِمَ عليهم وعالجهم وداواهم في التيه حتى صلحت نفوسهم ودخلوا الأرض المقدَّسة فاتحين، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى:

---

١ –الجامع الصغير {٢٥٩٢} عن أبي هريرة. (طس) عن أبي الدرداء.

٢ أخرجه الترمذي

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

أي: لولا فضل الله تعالى عليكم بهذه الشدَّة التي أنزلها بكم في التيه، ولولا أن مدَّ لكم في الحياة حتى تبتم ورجعتم إليه لخسرتم هذه الحياة الثمينة ولمتُّم ميتة المحرومين من الخير ولجئتم في الآخرة ولا عمل لكم ولكنتم من الخاسرين.

وإذن فالخاسر كلُّ الخاسر من يُرسله الله تعالى إلى هذه الدنيا ويمدُّ له في الأجل كما قال سيدنا نوح عليه السلام لقومه:

{أَنِ اعْبُدُواْ الله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [١] ثم يخرج منها ولا ذخيرة له من عمل صالح أو إحسان.

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً، قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَه وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}[٢]

---

١ – سورة نوح: الآية (٣-٤).

٢ – سورة الكهف: الآية (١٠٣-١١٠).

لقد تمَّ بفضل الله ونعمته المجلد الأول من

تأويل الأمين

للعلاَّمة الإنساني الجليل

محمد أمين شيخو قدِّس سره.

تنزيل من حضرة الله ورسوله العظيم إلى عباده الصادقين المخلصين وللحق على الباطل ناصرين، الذين يبغون وجه الحقيقة والحق والدين ولو عارضت آراء المنحرفين ، بل لو أطبق ضدَّهم آل الثقلين ... من لا يخشون في الحق لومة لائم ولا ينزاحون عن طلب اليقين من رب اليقين ...

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ...

وَمَنْ تكُن برسول اللّه نُصرَتُـه
إنْ تَلقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ


ISBN 978-1-5172-9450-2